محمد عبد الرازق

أغـــلال

الكتـــــــــاب: أغـــلال

المـــؤلـــــف: محمد عبد الرازق

الغـــــــــلاف: أ/ كريم آدم

المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة

رقـــم الإيـــداع: 14222 / 2014

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 6447 - 80 - 6

الإخـراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

محمد عبد الرازق

أغـــلال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾

(الإسراء: ١٣).

إهـــداء

إلى نفسي التي أرهقتها معي طوال سنوات عمري،

لقد آن لكِ أن تقري عينًا فقد وضحت الطريق

إلى ضحكات ولمسات وحنان ابني الصغير، إلى

نبتة قلبي وروحي . . . . إياد

شكر خاص

إلى الدار الواعدة الرائدة، دار المبدعين، دار إبداع، تحت قيادة دكتور عيد إبراهيم صاحب القلب العامر بالأمل والوفاء، لكَ كل الشكر والتقدير على ماتبذله لرفعة شأن الدار وكُتَّابها لتصل إلى ما تحلم به وتحتل مقام الريادة والتفوق في كل مكان.

إلى الأخت الفاضلة وزهرة فلسطين الندية الأديبة الأستاذة سلام عيدة، لكِ منى كل التحية والتقدير والاحترام على مجهوداتك التي لا تنتهى.

الجـــزء الأول

"سيداتي آنساتي سادتي، كابتن خالد محمود يحييكم ويهنئكم بسلامة الوصول، ويهنئ العروسين (سامح ومنال) بالزفاف السعيد ويتمنى لهم قضاء شهر عسلٍ رائعٍ في الأراضي الروسية."

تردد صوت قبطان الطائرة بعدّةِ لغاتٍ داخل الطائرة أعقبه صوتُ تصفيقٍ حادٍّ من جميع ركاب الطائرة قبل أن تتجه أعينهم نحو مقعدين متجاورين في منتصف الطائرة يجلس عليهما رجلٌ وامرأةٌ متشابكا الأيدى والسعادة تقطر من عينيهما، ولقد تخضب وجه المرأة بحمرة الخجل وهي تنظر في الوجوه التي تحملق فيها هي وزوجها، أما الرجل فقد ابتسم في هدوء وهو يرد تحية ركاب الطائرة ثم التفت إلى زوجته وقَبّل أصابعها برقةٍ ثم قال:

"مبروك يا حبيبتي."

ابتسمت منال في فرح ثم قالت:

"الله يبارك فيك يا حبيبي."

نظر إليها سامحٌ للحظاتٍ، تأمَّلَ خلالها ملامحها الجميلة، وسبح في بحر عينيها العسليتين اللتين يحيط بهما وجهٌ أبيضُ رقيقٌ يزينه حجاب أخضر اللون، كانت منال مثالاً للرقة وللجمال معًا في ثوبها الأبيض البسيط الذي أصرّت على ارتدائه أثناء سفرها كي يذكرها بثوب زفافها الذي ارتدته منذ يومين فقط في ليلة زفافها التي كانت ليلة شبيهة بليالي ألف ليلة وليلة، لقد تزوجت سامح حبها الأول والأخير.

لامست عجلات الطائرة أرض مطار موسكو في الوقت نفسه الذي لامست فيه الذكريات ثنايا عقل سامح. كانت زوجته منال تتمنى أن تقضي شهرَ عسلٍ في موسكو حيث تشاهد الطقس البارد وتشعر به كما يشعر به أهله، ولشدّة حبه لها لم يرفض لها طلبًا على الرغم من الذكريات السيئة مع هذه المدينة، ولكن إرضاءً لزوجته قرر أن يذهب إلى مدينة الثلوج، إلى موسكو.

استقرت الطائرة على أرض المطار، وانفتح بابها بهدوء ثم بدأ الركاب بالنزول منها وكلٌّ منهم يتدثر في ثيابٍ ثقيلةٍ اتّقاءً لموجة البرد القارصة التي قررت أن تغزو موسكو على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة صباحًا.

هبط سامح بهدوء سلم الطائرة، تتأبط ذراعه اليمنى زوجته منال التي تكاد تطير من الفرح. ثم همست في أُذُن سامح قائلة: "ألف شكر يا حبيبي."

التفت إليها قائلاً:

- على إيه يا حبيبتي؟!!
- علشان حققت لي أمنيتي، ووافقت على إننا نقضي شهر العسل في موسكو.
- حبيبتي، أحلامك أوامر.
- ربنا يقدرني وأسعدك.
- وأنا أوعدك بشهر عسل غير عادي... شهر عسل مش هتنسيه طول عمرك.

وكم كانت عبارته صادقة! فشهر العسل الذي قرر مع زوجته قضاءه هنا على الأراضي الروسية لن يكون شهر عسل، بل سيكون شهر العذاب والهوان، شهر عسل ولكن بطعم العلقم، فبمجرد ملامسة قدميْ سامح لأرض هذه المدينة أعدّ الجحيم نفسه وفتح أبوابه على مصراعيها لاستقبال نزيليه العروسين سامح ومنال. ويا له من استقبال!

****

ما إن وضعت منال حقيبتها على أرضية الغرفة التي استأجرها سامح في أفخم فنادق موسكو، حتى اتسعت عيناها عن آخرهما، وهي تدور بهما في أرجاء الغرفة لتتأمل النقوش التي ازدانت بها الحجرة، والفراش الذي يشبه فراش الملوك. ثم أدارت عينيها إلى سامح فوجدته يبتسم في وجهها بهدوء وسعادة فقفزت تتعلق برقبته وتمطر وجهه بالقبلات، وهي تقول في فرحة عارمة:

"متشكرة أوي يا حبيبي، متشكرة."

ثم فجأة أجهشت بالبكاء حتى إن دموعها بللت عنقه، فأبعدها عنه

بهدوءٍ ومسح دموعها بأصابعه ثم رفع وجهها إليه وقال بهدوء:
"كده برضه؟ تزعليني كده، أنا مش قلت لك ما بحبش أشوف دموعك خالص."
نظرت منال في عينيه ثم قالت:
"ربنا يخليك ليا يا حبيبي."
ابتسم سامح، ثم قال فجأة بحماس:
"يلا غيّري هدومك بسرعة علشان آخدك أفسحك وأوريكي اللي عمرك ما شفتيه."
- حاضر يا حبيبي، بس إنت عارف الأماكن هنا كويس؟!!
نظر إليها سامح لثوانٍ، ثم قال بهدوءٍ وعيناه تشردان بعيدًا جدًا:
"أنا عارف كل مكان هنا، وليا ذكرى مع كل شبر من البلد دي."
نطق عبارته الأخيرة وانطلق عقله ليسبح في ذكرياته مع هذه البلد... ذكرياتِه القاتلة.

****

بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب، معلنةً نهاية يوم من أيام كوكب الأرض. ثم بدأت في إلقاء نظرة أخيرة على الموجودات من حولها لتَعِدَهُم بِغَدٍ جديدٍ، فاستجابت لها الموجودات وودّعتها بمجموعةٍ من الظلال على كل من حضر هذا الحوار، وعلى الرغم من مشهد الوداع المؤثر بين الشمس والموجودات على الأرض، لم يلتفت سامح لهذا

المشهد وهو ينطلق بسيارة حديثة من نوع المرسيدس، وبجانبه منال تتأمل الثلوج المحيطة بهم من كل جانب، ثم التفتت إلى سامح وقالت: "إحنا هنروح فين دلوقتي؟!! إنت قلت لي إنك هتوريني حاجات كتيرة عمري ما شفتها هنا في البلاد العجيبة دي."

التفت إليها سامح لثوانٍ قبل أن يقول: "إحنا رايحين دلوقتي على أقرب محطة قطار بس من طريق مختصر. والقطار ده هيودينا على مدينة جميلة جدا اسمها (لينجراد) وزمان كان اسمها (سان بطرسبرج)."

– طب مش كنا نستنى للصبح أحسن، أنا خايفة من الضلمة دي وخاصة إن الثلج مغطي كل مكان.

ثم قَرَنَتْ قولها بأن اشرأبّت بعنقها إلى الأمام تحاول رؤية الطريق أمامها ولو لمترٍ واحدٍ، ولما عجزت عن ذلك أرجعت ظهرها إلى الخلف وتنهدت بعمق، ثم التفتت إلى سامح تنتظر إجابته عن سؤالها فوجدته ينظر أمامه بتركيزٍ كبيرٍ وكأنه يتطلع إلى شيء خارج السيارة فظهر الغضب على ملامحها الجميلة لعدم اهتمامه بكلامها، ولكنها عندما نظرت إليه مرة أخرى وجدته مُتّسِع العينين، وحاجباه مرتفعان حتى كادا يصطدمان بسقف السيارة واكتسى وجهه ببياضٍ شديدٍ خالٍ من الدماء ينافس لون الثلوج المحيطة بهما من كل جانب، وعندما نظرت أمامها تحاول أن ترى ما آثار دهشته وخوفه وجدت نفسها وقد انتقل إليها كل ما يشعر به من خوف ودهشة ولكنها تفوقت علية بجرعة

من الفزع والكثير من الارتجاف...

فأمام السيارة وعلى بعد خمسةِ أمتارٍ فقط رأت أمامها فتاةً صغيرةً لا تتجاوز العشر سنوات وعلى ملامحها طفولة بريئة، ثم تحولت بسرعة البرق إلى فتاةٍ يافعةٍ في العشرين من عمرها ثم إلى امرأة عجوز تخطت العقد السابع من العمر قبل أن تعود مرة أخرى إلى شكل الفتاة اليافعة، ثم تحولت ملامحها إلى غضبٍ رهيبٍ. أما عيناها فقد رمقت سامح بنظرة وعيد وتهديد وفجأة حدث الارتطام...

ارتطمت سيارةُ سامحٍ بالفتاة لتلقي بها على جانب الطريق، فصرخت منال حتى كادت أحبالُها الصوتية تنقطع، وبحركة لا إرادية أدارت عجلة القيادة من يد سامح تريد إنقاذ الفتاة، وشعر بها سامح فانتفض في عنف وكأنه يستيقظ من كابوسٍ رهيبٍ ولم يشعر إلا والسيارة تنقلب على جانبها الأيمن قبل أن تتدحرج عدة مرات ثم ترتطم بشجرة ضخمة على جانب الطريق، قبل تتوقف تمامًا في وضع مقلوب وإطاراتها تدور بسرعة كبيرة، ثم ساد السكون المكان بإكمله خارج السيارة وداخلها وكأنّ راكبيها قد قررا مفارقة عالم الأحياء إلى العالم الآخر؛ عالم الأموات، علّهُما يجدان فيه ما يريحهما مما سَيَرَيانِهِ في عالم الأحياء؛ عالم الأحياء الذي هو في الحقيقة: أصل الموت.

****

(شلينكو دوروف) أحد أقوى ضباط الشرطة في موسكو، يعشق روسيا

عشق الحبيبِ لحبيبه، ولا يجرؤ أيُّ فردٍ من أفراد الشرطة على الكلام في حقّ روسيا في وجود (شلينكو)، وذلك لعنف ردّ فعله مع كل من يتحدث عن وطنه أو يسيء له، فلقد علّمهُ والده قاعدة أصيلة منذ صغره ألا وهي: " الوطنُ أولاً ثم أيُّ شيءٍ بعدَ ذلك. " ولقد نفّذ (شلينكو) نصيحة والده منذ كان صغيرًا حتى كبر وأتم دراسته ثم التحق بجهاز الشرطة ثم نال عدة ترقياتٍ استثنائيةٍ لتفانيه في عمله. ولأنه يحبّ وطنه ويهيم به عشقًا فقد انتفض واقفًا عندما جاءه خبر وقوع حادث على الطريق المؤدي إلى (ليننجراد)، وأنّ أحد شهود العيان شاهد سيارةً بها سائحان عربيّان تنحرف عن الطريق إلى الأشجار وكأن يدًا عملاقةً قد أزاحتها عن الطريق.

ترك (شلينكو) مكتبه على الفور وتأكد من وجود مسدسه في حزامه، ثم استقل سيارته وانطلق بها على الفور إلى موقع الحادث. وعندما وصل إلى هناك أدرك أنه قد وصل متأخرًا فقد وجد العديد من سيارات الشرطة هناك وكذلك الإسعاف والإطفائية.

تَرَجّل (شلينكو) من سيارته وعيناه تدوران في المكان كأنه يبحث عن شيءٍ ما، ثم اتجه مباشرة إلى موقع الحادث وألقى تحيةَ المساء على زملائه من الضباط قبل أن يوجه حديثه إلى أحدهم قائلاً:

- الحادثة حصلت إزاى؟

أجابه زميله (رومانوف) بأن أشار إلى أحد رجاله فجاءه مسرعًا

وبصحبته رجلٌ آخرُ يبدو عليه الإرهاق، وقف الاثنان أمام (رومانوف) الذي نظر إلى (شلينكو) قائلاً:

– ده شاهد عيان للحادث، وأعتقد إنه ممكن يحكي لك أحسن مني.

نظر (شلينكو) إلى الرجل دون أن يتكلم منتظرًا أن يحكي له الرجل عن الحادث، فتلعثم الرجل أمام نظرات (شلينكو) الصارمة قبل أن يقول بخوف:

– أنا ساكن قريب من هنا وكنت راجع من شغلي فلمحت العربية دي بتتحرك ببطء من جنبي، ولمحت فيها رجل وامرأة ومن خلال كلامهم عرفت إنهم عرب وبالتحديد مصريين.

أشار (شلينكو) بيده إلى الرجل فتوقف عن الحديث، فتحدث (شلينكو) قائلاً: "عرفت إزاي إنهم مصريين؟"

أجابه الرجل قائلاً:

– أنا من زمان وأنا بتعلم لغات وخاصة اللغات الشرقية، وعلشان كده بمجرد ما إتكلموا قدرت أميز كلامهم. وبعد كده العربية إتحركت بسرعة بعد ما مرت على المنحنى اللي لمحتها فيه وبعد كده فجأة العربية اتقلبت على جنبها واتدحرجت أكتر من مرة لغاية ما وصلت عند منطقة الأشجار، بمجرد ما شفت الحادثة اتصلت بحضراتكم فورا.

أومأ (شلينكو) برأسه بغير رضا، قبل أن يترك الجميع متجهًا نحو السيارةِ القابعةِ وسط الأشجار متجاهلاً نداء صديقه (رومانوف).

وعندما وصل إلى هناك استقبله رجال البحث الجنائي، ولكنه تجاهلهم

ووصل إلى السيارة وألقى نظرةً داخلها ثم عقد حاجبيه بحيرةٍ، وعندما استدار وجد أمامه (رومانوف) فنظر إليه (شلينكو) قائلاً:

- فين الجثث؟!!

أطرق (رومانوف) رأسَه باحثًا عن إجابةٍ قبل أن يقول:

- مفيش جثث.

- يعنى إيه مفيش جثث؟

- لما وصلنا لمكان الحادث فتشنا العربية والمنطقة كلها في مساحة كيلو متر مربع وملقيناش أي أشخاص أحياء أو أموات.

عقد (شلينكو) حاجبيه مفكرًا وسيلٌ منهمرٌ من الأسئلة يغمر عقله بأكمله، ولكن سؤالاً واحدًا أزاح كل الأسئلة في عقل (شلينكو) ليستقر في المقدمة:

" لو مفيش جثث زي (رومانوف) ما بيقول، يبقى فين الراجل اللي كان سايق العربية هو والسيدة اللي كانت معاه؟!!"

ولم يجد (شلينكو) أيّة إجابة لسؤاله في هذه اللحظة ولا في هذه الليلة بإكملها، أو حتى في الليالي القادمة، أبدًا!

لثوانٍ ظل (شلينكو) يحدق في وجه (رومانوف) وهو غيرُ مصدقٍ لما يقول، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا ويقول في هدوء:

"ممكن تقوللي اللي حصل تاني."

أعاد عليه (رومانوف) ما قاله مرة أخرى، فعقد (شلينكو) حاجبيه بشدة

ثم التفت مرةً أخرى إلى السيارة فوجدها على نفس الوضع الذي ذكره (رومانوف) فاقترب منها (شلينكو) وتطلع داخلها ثم دار حولها وهو يتأملها باهتمام من كل اتّجاه قبل أن ينحنيَ ويلتقطَ شيئًا صغيرَ الحجم من داخل السيارة ويتأمله باهتمام قبل أن يبتسم بهدوء وعيناه تكاد تضيء المكان من حوله من قوة البريق الذي يُشعّ منهما، فقد كان ما وجده (شلينكو) هو الدليل القاطع على عدم حدوث حادث من الأساس.

التفت (شلينكو) إلى (رومانوف) وهو يمسك بقلادة صغيرة عبارة عن حرف ذهبيّ يشير إلى حرف الـ (S) باللغة الإنجليزية فأمسك به (رومانوف) بدهشة ثم قال:

"إنت لقيت ده فين؟!! والحرف ده معناه إيه؟!!"

التقط (شلينكو) الحرفَ الذهبيّ من يد (رومانوف)، ثم وضعه في جيبه وهو يقول:

"من الواضح إنكم ما فتشتوش العربية كويس، ده رقم واحد، رقم اتنين إن الحرف ده معناه إن المرأة اللي كانت في العربية أول حرف من اسمها يبدأ بحرف الـ (S)، أو الرجل هوه اللي بيبدأ اسمه بحرف (S)."

- إنت عارف إن روسيا كلها فيها كام اسم بيبدأ بحرف الـ (S).

- كتير أوي.

- ممكن أعرف إنت بتفكر في إيه؟!!

ابتسم (شلينكو) بهدوء قبل أن يقول: "هتعرف... وهقول لك هنعمل إيه."

ولم يعد هناك ما يقال في هذا الوقت على الأقل.

****

أطلقت سيدة في العقد الخامس من عمرها زفرةً قويةً تدل على الضيق والملل، ثم التفتت إلى رجلٍ مليحِ الوجهِ يحتسي كوبًا من الشاي في هدوءٍ، وقالت وعيناها تترقرقُ فيهما الدموع:

- يعنى كان لازم يقضوا شهر العسل في آخر الدنيا، البنت وحشتني أوي يا عبده.

نظر إليها الرجل بهدوء وهو يرتشف آخرَ قطراتِ الشاي الموجودة في كوبه ثم يعيده إلى المنضدة الموضوعة أمامه ويأخذ نفسًا عميقًا ثم يقول في حزن: "أنا كمان وحشتني جدًا، بس اللي مطمِنّي إنها مع جوزها، واللي مطمِنّي أكتر إنه بيحبها وبيخاف عليها."

- دي أول مرة تغيب عني المدة دي كلها.

ضحك الأب ضحكةً عاليةً أفرغ فيها كل توتّره وقلقه على ابنته ثم قال: "هي دايمًا الأمهات كده، قلقانين على طول."

- يا سلام، يعني إنت مش قلقان عليها؟!!

نظر الأب إلى الأم نظرةً صامتةً ولكنها كانت أبلغَ من أي كلام، نظرةً حمَلَت كلّ ما أراد الأب قوله، فهو ليس بقلق على ابنته فقط بل كان يحمل بركانًا من الخوف والفزع والقلق على ابنته وخاصة بعد ما رآها في المنام وهي تحترق وينصهر جلدها بأكمله ولا يتبقى منها غيرَ هيكلٍ

عظميٍّ ثم يمتلىء هذا الهيكل باللحم مرة أخرى ثم ينصهر وهكذا دواليك. ولكن العجيب أن ابنته كانت تحترق دون أيّ أثرٍ للنيران، بل كانت تحترق داخل الجليد... الجليد الروسي.

****

تراجع الضابط (شلينكو) في مقعده داخل مكتبه الأنيق وهو ينظر إلى التقرير الذي وصله للتوّ والذي يحصي أسماء كل المسافرين العرب الذين وصلوا إلى الأرض الروسية في العشرة أيام الماضية، ثم توقف عند أربعة أسماءٍ تبدأ بحرف السين ولقد استبعد بسهولةٍ اثنين منهما وذلك لكبر سنهم الذي تعدّى الستين، ثم توقف عند اسمين لزوجين جاءوا لموسكو بغرض السياحة. أمسك (شلينكو) قلمه ثم أحاط اسم الزوجين بدائرةٍ حمراءَ، شرد ببصره للحظات وفجأة اتسعت عيناه عن آخرهما ثم قام من مكانه وخرج من المكتب مندفعًا ليركب سيارته ويضغط دواسة الوقود بكلّ قُوّتِه، كان بصره شاخصًا في اتجاهٍ واحدٍ دون أن يلتفت يمينًا أو يسارًا، كان قد تحول إلى ما يشبه الإنسان الآلي الذي ينفذ الأوامر دون مناقشة، لقد كان جالسًا في مكتبه يطالع أسماء المسافرين حتى سمع صوتًا يتردد من حوله يأمره بالذهاب إلى مكان الحادث مرةً أخرى، حاول أن يقاومَ الصوت، حاولَ أن يصرخ، أن يستنجدَ بأيِّ أحدٍ ولكنه شعر وكأن لسانَه لم يعُدْ في حَلْقِه ووجد قوةً هائلةً تدفعُه لتنفيذ الأمر والذهاب إلى هناك، ولقد كان. وصل إلى مكان

الحادث الذي أحاطته قوات الشرطة بالسلك حتى الانتهاء من القضية. توقفتْ سيارة (شلينكو) بالقرب من الأسلاك وترجل منها بهدوءٍ وعبر الأسلاك بهدوءٍ ليقابلَه جنديُّ الحراسة ويؤديَ التحية العسكرية بقوةٍ وباحترام. لقد ارتفع حاجباه في دهشة عندما مرّ به (شلينكو) ولم يعره أيَّ اهتمامٍ أو يشعرْ حتى بوجوده، (شلينكو) الذي كان يهتم كل الاهتمام بالرسميّات، مَرّ بجانبه وكأنه غير موجود، تابعه الجندي ببصره حتى توقف أمام السيارة المقلوبة ثم دار حولها حتى توقف عند الشجرة التي اصطدمت بها السيارة ونظر إليها بتأمُّلٍ لثوانٍ، ثم فجأة تَمَوّجَ هذا الجزء من الشجرة ليتحولَ إلى وجهٍ مخيفٍ بلا عينين، امتدت أحدى فروع الشجرة وتحولت إلى يدٍ ضخمةٍ مخيفةٍ أمسكتْ بكتف (شلينكو) الذي لم يتحرك قيد أُنْمُلَة وكأنه انفصل عن العالم بأكمله ولم يشعر بما يدور حوله ولا حتى بالكفّ الضخمة التي جذبته بعنف ناحية الوجه المخيف الذي فتح فمه عن آخره و... وابتلع (شلينكو)! كل هذا أمام عيني جندي الحراسة الذاهلتين. ولكن الجندي تغلب على الموقف بسرعة ثم استلّ مسدسه واندفع ناحية الشجرة ودار حولها ولكنه لم يجد أيَّ أثر للضابط (شلينكو)... (شلينكو) الذي اختفى تمامًا ولم يعد يَمُتُّ بأيِّ صلة إلى عالمنا الذي نعيش فيه.

****

انطلق رنين الهاتف بمكتب الكولونيل (تروتسكي) أحد أقوى ضباط

الأمن العام فمد يده بآليّةٍ والتقط السماعة قبل أن يضعها على أذنه ويقول بضجر:

- ألو.

أجابه (رومانوف) بصوت لاهث:

- (شلينكو) اختفى.

عقد (تروتسكي) حاجبيه في تساؤلٍ قبل أن يردد قائلاً:

"اختفى؟"

تكلم (رومانوف) قائلاً:

- في بلاغ جه للإدارة عن حادثة عربية حصلت لاثنين من المصريين، من حوالي ساعتين في الطريق بين (موسكو) و(لينجراد)، راح (شلينكو) لمكان الحادث ورجع مكتبه تاني، لكنه رجع تاني لمكان الحادث ووقف في مكان وبعد كده اختفى و...

قاطعه (تروتسكي) قائلاً بتوترٍ:

- عرفت الكلام ده منين؟

أجابه قائلاً على الفور:

- عسكري الحراسة هو اللي بلغنا باختفاء (شلينكو) فبلغتك على طول.

انتفض (تروتسكي) من مقعده وقال بحزمٍ:

- أنا رايح على هناك.

قال عبارته ثم وضع سماعة الهاتف، قبل أن يقوم من مكانه وينطلقَ إلى

مكان الحادث ليجدَ (رومانوف) وبجواره الجندي الذي أبلغه باختفاء (شلينكو)، تقدّم منهما (تروتسكي) وقال موجهًا حديثه للعسكري:

- إيه اللي حصل؟

أعاد عليه الجنديُّ الكلام نفسَهُ الذي أبلغه به زميله ولكنه أضاف قائلاً:

- لكن بمجرد ما اختفى ظهرت شَبُّورَة[1] قوية جدًا غَطّتْ المكان كله.

قال عبارتَه وهو يشير إلى الشَّبُّورة البيضاء، فتقدم (تروتسكي) من الشَبّورة ومد عنقه إلى الأمام محاولاً اختراق الضباب الثلجيّ بعينيه، ولكنه لم يرَ أيّ شيء فتقدم عدة خطوات حتى اخترق الشَّبُّورة، يرافق ذلك صوت زميله الذي أخذ يحذّرُه بصوتٍ عالٍ، ولكنّ (تروتسكي) لم يبالِ بتحذيرات زميله حتى اختفى تمامًا لثوانٍ مَرّتْ كسنواتٍ على (رومانوف) والعسكري المرافق له، قبل أن ينطلق صوت (تروتسكي) من داخل الشَّبُّورَة مناديًا عليهما، فأمسك (رومانوف) بكتف العسكريّ ودفعه إلى الشَّبُّورَة وهو يتبعه بحذر، وما إن دخل إلى المكان حتى وجد (تروتسكي) مُتَسمّرًا في مكانه وأمامه ثلاثةُ أجساد ملقاةً أمامه؛ جسدُ منال وسامح، بالإضافة إلى صديقه العزيز (شلينكو)، العجيب أن الثلاثة لم تظهر بهم أيُّ إصاباتٍ، أشار (تروتسكي) إلى الثلاثة وقال بصرامة وهو يلتفت إلى العسكريّ:

- اتصل بالإسعاف بسرعة.

---

(١) الشبورة هي الضباب.

تكلم (رومانوف) قائلاً:

-إنت...

قاطعه (تروتسكي) قائلاً بحزم:

- ننقلهم المستشفى الأول وبعدين نتكلم.

هز (بوريس) رأسه موافقًا، فالتفت (تروتسكي) إلى جسد (شلينكو) والأسئلة تضرب عقله بلا هوادة، ولكن بلا تفسير.

****

"غيبوبة"...

نطق دكتور (كوربوف) بهذه الكلمة وهو ينظر في عينيْ (تروتسكي) الذي عقد حاجبيه بتساؤلٍ وهو ينظر إلى أجساد سامح ومنال و(شلينكو) من خلف زجاج غرفة العناية المركزة السميك، وقد اتصلت بأجسامهم العديد من الخراطيم الصغيرة التي تَمُدُّهُم بالغذاءِ والمحاليلِ التي تحافظ على حيواتهم لأطول فترةٍ ممكنة، لقد أصرّ على أن يظل مع الثلاثة داخل المستشفى التي تمّ نقلُهم إليها حتى يطمئن عليهم ليبدأ بعد ذلك تحقيقاته ويعرف ملابسات الحادث، ولكنه فوجئ بحالتهم التي أخبره بها الدكتور الذي أكمل حديثه قائلاً بآليةٍ:

- في المعتاد مفيش سبب واضح لمعظم حالات الغيبوبة في أيّ مرجع طبي.

التفت إليه (تروتسكي) وقال:

- يعني إيه؟

أجابه (كوربوف) قائلاً:

– يعني هيفضلوا تحت الملاحظة والرعاية لغاية ما يخرجوا من الغيبوبة وبعد كده ننقلهم لغرفة المتابعة وبعد كده ممكن تستجوبهم.

زَمّ (تروتسكي) شفتيه بتبرُّم وقال بلهجة آمرة:

– لو حصل أي تغيير لحالتهم بلغني على طول.

ألقى أوامره ثم اندفع مغادرًا المستشفى بأكمله إلى إدارة الأمن العام، ولكن عقله ما زال هناك مع (شلينكو) .

****

"صباح الخير (دوروف)."

نطقت السيدة (إيفا) جارة العقيد (دوروف)، بتحية الصباح ، كانت تقطن المنزل المجاور له. لقد تُوفِّيَ زوجها منذ عامين وتركها وحيدةً بلا أنيسٍ أو عزيزٍ، ولكنها أحبّت (دوروف)، لقد رأت فيه ما افتقدته في زوجها الراحل، فأعطته كل اهتمامها، فهي تحتاج إلى رجل بجانبها يشعرها بالأمان وتستظل بظله، لذلك قررت أن تُلقي بشباكها على أقرب الرجال إليها؛ على (دوروف) الذي فقد زوجته بدوره منذ سنواتٍ عديدة، قررت أن توليَهُ اهتمامها ورعايتها، فهي تعلم أن ابنه الوحيد (شلينكو) لن يستطيع رعايته كما ينبغي نظرًا لانشغاله بعمله في دائرة الأمن العام، لذلك فقد أخذت عهدًا على نفسها بأن تكون زوجة (دوروف) القادمة، فكانت تُعِدُّ له طعام الإفطار يوميًا، ثم تُعِدُّ قدحين

من القهوة اللذيذة كي تحتسيَها مع (دوروف) في حديقة منزلها وهي تتجاذب أطراف الحديث معه في أمورٍ عامةٍ. حتى جاء هذا الصباح فألقت عليه التحية ولكنه لم يُجبْها، لقد كان يستند إلى حافة الشرفة التي تُطِلُّ مباشرةً على الشارع العموميّ ويضع يده على خده، وعيناه تحملقان في الأفق وفيهما نظرةُ حزنٍ عميقةٍ. تركت منزلها ثم ذهبت إليه وقرعت جرس الباب، وما هي إلّا ثوانٍ معدودةٌ وفتح (دوروف) الباب، فبادرته (إيفا) بابتسامةٍ عذبةٍ فبادلها الابتسام، ثم قال:

- أهلا (إيفا).

نظرت في عينيه الزرقاوين وقالت بقلق:

- مالك؟

أغمض عينيه ثمّ فتحهما بلا مبررٍ، والتقط نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- اتفضلي.

دَلَفَتْ إلى الصالةِ الواسعةِ قبل أن يدعوَها (دوروف) إلى الجلوس بجانب المِدفأة الكبيرة التي تحتلّ رُكنًا قَصِيًّا في المنزل، جلست على المقعد المجاور للمدفأة مباشرة وهي تتطلع إلى (دوروف) بتساؤل، كانت تتمنى لو تحتويه بين جنبات قلبها وتزيل عنه همومه وآلامه، جلس بجانبها ثم نظر إلى ملامحها الرقيقة التي بعثت فى نفسه ببعض الطمأنينة والراحة ، فتكلم بهدوء قائلاً:

- أنا قلقان على (شلينكو) أوي.

رَبّتَتْ على كَفّهِ لتطمئِنَه قبل أن تقول:

- ليه؟

- حاسس إن في خطر من حواليه وهو مش حاسس بيه، حاولت أتصل بيه علشان اتطمّن عليه النهاردة ما ردش عليا، وخصوصا إنه ما باتش في البيت امبارح.

ابتسمت (إيفا) وقالت بلهجة مُطَمْئِنَة:

- يمكن كان مشغول في مأمورية وما عرفش يرد عليك.

هز رأسه مؤيدًا قبل أن تَثْبُتَ عيناه في اتجاه الباب وتتسعا عن آخرهما ثم يرتجف جسده بأكمله قبل أن يسقط أرضًا بلا حراك تتبعه صرخات (إيفا) المُلتاعة، اندفعت نحوه تحاول إسعافه ولكن بلا فائدة، اندفعت إلى الهاتف وطلبت رقم إحدى صديقاتها تطلب مساعدتها في نقل (دوروف) إلى المستشفى لتُفاجَأ هناك بالشخص الذي كانت تتحدث عنه مع (دوروف) منذ قليل، عن ابنه الوحيد (شلينكو)، ويبدو أن الأب قد قرر أن يقابل ابنه بأيّ شكلٍ حتى ولو كان بغيبوبةٍ عميقةٍ بلا قرار.

****

فجأة، فتح سامحٌ عينيه ثم انتفض في مكانه كمن يفيق من كابوسٍ طويلٍ، تلفّتَ حوله في فزعٍ وهو يبحث عن منال ولكنه لم يجدها، كلُّ ما وجده من حوله هو الجليد، فقط الجليد ولكنه جليد لم يرَ له مثيلاً من قبل، لقد كان جليدًا أحمرَ اللون جليدًا بلون الدم، فانتفض مرةً أخرى وهو

يقوم من مكانه ويتلفّت يمينًا ويسارًا باحثًا عن أيِّ شخص يفسر له ما حوله فلم يجد إلا الجليد الدامي فقط. التقط أنفاسه بصعوبةٍ ثم هتف بأعلى صوتِه مناديًا منال ولكن لم يُجِبْهُ إلّا الصمتُ المُطبِق، حاول أن يتحرك من مكانه ولكنه شعر وكأن قدميه قد زُرِعتا في الثلج. حاول ثم حاول أن يتحرك ولكن هيهات! لقد كان يستطيع التحرك من ثوانٍ قليلة ولكنه الآن أصبح عاجزًا عن الحركة، تزاحمت الأسئلة في رأس سامح : "ما هذا المكان الذي انتقل إليه؟!! أين منال؟!!" كل ما يذكره هو الحادثة التي وقعت له وانقلاب السيارة ثم الارتطام بتلك الشجرة وفقدان الوعي ثم هذا العالم الذي يوجد فيه الآن. هل ما زال هناك في روسيا أم أنه انتقل إلى عالم آخر... عالم الموتى؟!!

جاهد مرة أخرى كي يتحركَ ولكن... هيهات! لقد تَيَبّسَ في مكانه.

ولكن أمرًا غريبًا شعر به مما أثار حيرته ودهشته؛ إنه لا يشعرُ ببرودة الثلج الذي يضع قدميه فيه والذي تحول بأكمله إلى اللون الأحمر الداكنِ مثلِ لونِ الدماء. لقد شعر بسخونةٍ بدأت تتصاعد، حتى إنه بدأ يشعر بها في داخله ويُحِسُّ بألمها وعندما قرر أن يصرخ من الألم لم تتجاوز صرخته فمه، لقد فقد حاسة الكلام فاتسعت عيناه برعبٍ وفزعٍ فوضع يده في فمه يبحث عن لسانه فلم يجده في مكانه، كان فمُه فارغًا ليس به لسانٌ ولا أسنانٌ، سالت الدموع من عينيه عندما شعر بالعجز من موقفه هذا فأغمضهما بقوة ثم فتح عينيه مرة أخرى ليجد أمامه ما

أسقط قلبه بين قدميه، فهناك وعلى مدّ البصر كان الخطر يقترب، الخطر الذي تمثل في عاصفةٍ جليديةٍ حمراءِ اللون تقترب بسرعةٍ رهيبةٍ منه ، لم يملك إلا أن يقف عاجزًا عن الدفاع عن نفسه أو حتى الهرب من هذا الجحيم... الجحيم الثلجيّ.

****

" الموتُ قادمٌ لا محالة. "

دَوّتْ هذه العبارة داخل أعماق سامح وهو ينظر بفزعٍ إلى العاصفةِ الثلجيةِ القادمةِ ناحيتَه، التي تحمل كل الرهبة والخوف والرعب لتصيب بهم كلَّ مَن يقف أمامها قبل أن تَفْتِكَ به وتُحِيلَهُ إلى ما يشبه الهشيم الذي تذروه الرياح.

أغمض عينيه وتلا الشهادتين في أعماقه بانتظار الموتِ القادم. على بُعْدِ خُطواتٍ كان هديرُ العاصفة يُدَوّي في أذنيه لترتجف أوصالُه وهو يتخيل ما سيحدث له في اللحظاتِ التالية، اقتربت العاصفةُ منه حتى إنه شعر بالهواء البارد الذي يسبقها، ولكن فجأة توقف كل شيءٍ وكأنّ كلَّ شيءٍ حوله إلى صورةٌ صامتةٌ للمكان، توقفت العاصفة على بعد سنتيمترات قليلة من سامح الذي فتح عينيه غيرَ مُصَدّقٍ لما يراه أمامه فقد توقفت العاصفة وعم المكان سكونٌ رهيبٌ، ولَمْ يَتَخَلّفْ عن العاصفة إلا كومةٌ كبيرةٌ من الثلج اقترب منها سامحٌ ببطءٍ ثم لمسها بحذرٍ شديدٍ، فَوَجَدَ الثلجَ ساخنًا على عكس طبيعته التي يعرفها كل

المخلوقات منذ بدء الخليقة، سحب يديه بسرعة ثم غلبه فضوله فمدّ يديه إلى كومة الثلج ولمسها مرةً أخرى، وهنا حدث أمرٌ غايةٌ في العجب؛ لقد انفتحت كومةُ الثلجِ لتمتدَّ منها يدٌ عملاقةٌ بيضاءُ اللون قبضت على يد سامح وابتلعته ثم عاد كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى ما عدا شيئًا واحدًا؛ لم يعد هناك وجودٌ للمدعو سامحٍ في هذا المكان أو هذا الزمان.

****

ظلام... ظلام... ظلامٌ يولّد شعورًا غيرَ عادي بالخوف والتوجس والترقب، ظلامٌ يولّدُ الرعب في أشد القلوب بأسًا. هذا ما شعر به سامح عندما انتقل إلى هذا المكان، ولكنه أغلق عينيه وأخذ يتلو بعض الآيات القرآنية ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم فتح عينيه فلم يتغير شيء، الظلام نفسه، والمشاعر المرعبة نفسها، فَرَدَ ذراعَه أمامه يَتَحَسّسُ طريقه وهو ينقل قدميه بحرص، وتصبَّبُ العرقُ من جبينه وكأنه في منتصف شهر يوليو، وفجأة تعثّرتْ قدماه بجسدٍ أمامَه ولكنّه لم يستطع رؤيته من شدة الظلام فسقط على وجهه وهو يسمع أنينًا خافتًا من الجسد الذي اصطدم به فاعتدل في مكانه وتحسس الجسد المُسَجّى أمامه فوجده جسد امرأة، فهمس باسم منال ثم ارتفع صوته ينادي عليها ومع ارتفاع صوته انبعث ضوءٌ خافتٌ في المكان قبل أن يغمر الضوء المكان كُلّه، ومع إضاءة المكان تبين سامحٌ ملامحَ الجسدِ المُسجّى أمامه واتسعت

عيناه عن آخرهما وهو ينطق اسمها في خفوت قائلاً: (زوشا)! وضع يده عليها، وَجهُها منتفخٌ وعيناها جاحظتان وثابتتان في محجريهما، أما جسدها فكان مبتلاً تمامًا وكأنها خارجة لتوّها من أعماق بحر سحيق.

حاول إسعافها وهو ينطق اسمها بلهفةٍ وفزعٍ ولكنها لا تستجيب، تلفّتَ يمينًا ويسارًا علّهُ يجدُ أحدًا يساعده، فلم يجد أيّ أحد، حاول إسعافها مرةً أخرى فلم تُفلِح محاولاته، فوقف أمامها وهو لا يدري ماذا يصنع؟

انطلق صوتُ صرخاتٍ مُدَوّيّة في المكان، وضع سامحٌ كفّيْه على أذنيه من شدة الصوت حتى إنه أحس وكأن طَبْلَتيْ أذنيه ستنفجران، ثم أغلق عينيه بقوةٍ عندما ازدادت شِدّةُ الصوت وبدأ يئِنّ مُخّه في جمجمته.

توقف الصوت، وساد المكانَ صمتٌ مُطْبِقٌ رهيبٌ اخترقه صوتُ سعالٍ قويّ من جسد (زوشا) فاندفع إليها سامحٌ وأخذ رأسها بين ذراعيه وهو ينطق اسمها بلوعةٍ قبل أن يَسمَع صوتًا يقترب منه، فالتفت إليه ليجد أمامه تلك الفتاة التي بين ذراعيه واقفةً خلفَه بصحةٍ وافرةٍ تنظر إليه بمقتٍ شديدٍ ثُمّ مَدّتْ يَدَها اليمنى إليه فانتفض جسدُه في عنف، ثم اتسعت عيناه في رعبٍ وفزعٍ وتلاحقت أنفاسه في انتظار مصيره المحتوم.

****

أما (شلينكو)، فقد وجد نفسه فجأةً في عالمٍ آخرَ غيرِ الذي ألفه وعاش فيه طوال حياته؛ فقد وجد نفسه هو المسجون وليس السجان، وجد نفسه داخل زنزانةٍ من الحديد، حاول الخروج من بابها فتلقى ضربةً

قويةً في صدره أعادته إلى قلب الزنزانة مرة أخرى، كانت الضربةُ قويةً حتى إن (شلينكو) أغمض عينيه من شدة الألم، وعندما فتح عينيه مرة أخرى وجد خارج الزنزانة ما جعل حاجبيه ينعقدان بشدة وتلاحقت أنفاسُه وكأنها تتسابق مع روحه للخروج من جسده...

فقد رأى أمامه، وعلى بعد مترين خلف الباب، كل أعدائه من اللصوص والقتلة والخارجين عن القانون الذين سبق له أن وضعهم في السجون أو تسبب في حكم الإعدام عليهم، كانوا عشرة رجال وامرأة، وكانت تُطِلُّ من أعينهم نظراتٍ تحملُ كلّ الكُرْهِ والبغض لـ(شلينكو). كان الباب يكشف ما خلفه لكن لا يمكن عبوره، كأنّه وهم مرسوم على الجدار.

حاول أن يقوم من مكانه لملاقاةِ ماضيه الماثلِ أمامَه في هذا المكان، فلم يستطع ، وفجأة رفع الرجال أيديَهُم لأعلى في الوقت نفسه الذي أطلقتْ فيه المرأة صرخاتٍ مدوّيّةٍ اضطر (شلينكو) معها إلى وضع كفيه على أذنيه حتى لا تنفجر طبلتا أذنيه من شدتها.

بدأت أحداث النهاية، نهاية الضابط الهمام (شلينكو دوروف)، عندما بدأت جدران الزنزانة في الاقتراب من بعضها وبدأ السقف في الهبوط على الأرض ليقع (شلينكو) بين شقيْ الرّحى، فما إن تلتقي جدران الزنزانة ببعضها ويلتقي سقفها بأرضها حتى تتحطم كل عظام (شلينكو) ويبقى أثرًا بعد عين، وهنا ومع آخر لحظات (شلينكو) في هذه الدنيا، ابتسم الموت واستعد لتلقي ضحيته الجديدة التي لا حول لها ولا قوة

بعدما استسلمت تمامًا لمصيرها، ويا له من مصير!

****

انتفضت كلُّ خليةٍ في جسد سامح عندما مدت شبيهة (زوشا) يدها إليه، ثم وجد نفسه يرتفعُ عن الأرض قرابة المترين ويتعلق في الهواء ليشعر بعدها بآلام مُبَرّحَةٍ في كل عَظْمةٍ من عِظام جسده زاد الوجع مع حدّة نظرات تلك المرأة العجيبة إليه، ولكنه تحامل على نفسه وهو ينظر إلى الجسد الآخر الملقى على الأرض وكأنه يستمد منه القوة للتغلب على هذا الموقف العجيب الذي يتعرض له، ولكنه وجد جسد (زوشا) ساكنًا وعينيها شاخصتين لأعلى وثابتتين في محجريهما فاتسعت عيناه في رعبٍ في اللحظة نفسها التي طَوّحَتْ شبيهة (زوشا) يدها بعيدًا ليطير جسد سامح عبر المكان ثم ليرتطم بجدار جليديّ ظهر فجأة وكأنه نَبَتَ من العدم قبل أن يهوي إلى الأرض الجليدية بعنف.

تحامل سامحٌ على نفسه وقام واقفًا وكلُّ عَظْمَةٍ من عظامه تئن من شدة الألم والتعب والإرهاق، نظر إلى شبيهة (زوشا) التي نظرت إليه نظرة عجيبة جمعت كل مشاعر الكره والبغض والحقد التي تعتمل بها نفسها قبل أن تشير إلى جسد شبيهتها الميتة وتقول:

- إنت قتلتها.

نظر إليها سامحٌ بفزعٍ وقال:

- لا مش ممكن، مش أنا اللي عملت كدة، ثم إنتي تبقي مين؟؟!!

أجابته المرأة قائلة:

- أنا أخت (زوشا) التوأم.

اتسعت عينا سامح في دهشةٍ قبل أن يُرَدّدَ في ذهول:

- أخت (زوشا)!؟ مش ممكن!!

ثم نظر إلى جسد (زوشا) الملقى أرضًا وكأنّه يسألها عن صدق كلام أختها قبل أن يُردّد مرة أخرى بخفوت:

- مش ممكن.

أشارت المرأة إلى جسد أختها قائلة:

- إحنا لقيناها بالمنظر ده قرب البحيرة القريبة من البيت، وحاولنا ننقذها وننقذ اللي في بطنها لكن مع الأسف الدكتور أنقذ اللي في بطنها ومقدرش ينقذها هي.

عقد سامحٌ مع حاجبيه بدهشةٍ قبل أن يقول:

- اللي في بطنها !! (زوشا) كانت حامل؟

اقتربت المرأةُ مِن سامحٍ حتى أصبحت على بُعْدِ مترٍ واحدٍ منه ثم نظرت إليه وقالت:

- أيوه، (زوشا) كانت حامل، حامل في بنت.

ثم اقتربت منه حتى شعر بأنفاسها تداعبُ وجهه قبل أن تقول:

- بنتك.

ظلّ سامحٌ ينظرُ إلى أخت (زوشا) لثوانٍ غيرُ مُصدّقٍ لما يسمعه قبل أن

يقول بصوت مبحوح:

- بنتي؟!

فرقعت أخت (زوشا) بإصبعيها في الهواء لتظهر فجأةً بجانبها طفلةٌ صغيرةٌ في العاشرة من عمرها تحمل وجهًا أبيضَ، تُزَيِّنُهُ خصلاتٌ من الشعر الأصفر الناعم، أما عيناها فكانت زرقاء بلون السماء، وأما أنفُها فصغيرٌ، ولها شفتان حمراوان بلون الدم، كانت الطفلة عبارة عن آيةٍ من آيات الجمال والرقة، كانت ترتدي فستانًا أحمرَ اللون مكوّنًا من قطعة واحدة وتمسك بيدها دمية صغيرة من القش تعبث بها بين الحين والآخر.

نظر سامح إلى الطفلة بحنانٍ وتعجبٍ. لقد كانت تشبه أُمّها وخالتها تمامًا حتى إن سامحًا قال في قرارة نفسه ذلك المثل الشهير:

"يخلق من الشبه أربعين."

قطعت أخت (زوشا) أفكار سامح قائلة:

- (ميلا)، هي بنتك من (زوشا).

- مش ممكن! أنا آخر مرة شفت (زوشا) ما قلتليش إنها حامل.

- حاول تفتكر كده، افتكر الحكاية من الأول.

هز سامح رأسه يمينًا ويسارًا بعنفٍ قبل أن يقول بانفعال:

"مش ممكن، إنتي كذابة، ثم إيه اللي يثبت إنك أخت (زوشا)، ده أنا حتى لغاية دلوقتي معرفش إسمك إيه؟!!"

- (نيرفانا ميخائيل)، (زوشا) حكت لي على حكايتك معاها من أول ما

جيت هنا لغاية ما سبتها حامل ومشيت.

- أنا مش فاكر حاجة من اللي بتقوليها دي.

أطلقت (نيرفانا) ضحكةً مجلجلةً اهتزت لها جدران ذلك المكان العجيب قبل أن تقول:

- أنا هفكرك بكل حاجة.

قالت هذه العبارة ثم لوحت بيدها لتظهر أمامهم شاشةٌ سينمائيةٌ كبيرةٌ، صفقت بيدها لتبدأ الشاشة بعرض كلِّ تاريخ سامحٍ في روسيا، اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يرى كل ما مرّ به منذ أكثر من عشر سنوات في الأرض الجليدية ويستعيد معها ذكرياته... مع (زوشا). ويا لها من ذكريات!

****

استعد (شلينكو) لاستقبال ضيفٍ ثقيلٍ على نفس كل إنسان، استعد لاستقبال الموت متمثلاً في تلك الزنزانة الحديدية التي تحركت جدرانُها مع سقفها لتطبق على (شلينكو) لتحوّلَ جسدَه إلى كومةٍ من اللحم المفرى والعظام المُهشّمة، ولكنّ (شلينكو) لم يكن ليستسلم أبدًا، لقد كان معروفًا بين أقرانه بالعناد والمثابرة طوال حياته، لذا فقد انتفض واقفًا ثم انطلق إلى باب الزنزانة الوهميّ وألقى نفسه خارجه ليتلقى اللطمة نفسها التي تلقّاها سابقًا غير أنه تحامل على نفسه وأمسك بقطعة حديد مُدلّاة من سقف الزنزانة فوق الباب المفترض، ثم دفع قدميه دفعًا للخروج من الباب، ولقد عبره بالفعل لتستقبله

فوّهاتُ أسلحةِ الرجال العشرة خارج الزنزانة. حاول (شلينكو) أن يَسْتلّ مسدسه ليدافع به عن نفسه ولكن المرأة الموجودة مع الرجال العشرة أطلقت صرخةً مدويةً أخرى جعلت (شلينكو) يترك مسدسه ويغلقُ عينيه في ألمٍ رهيبٍ في اللحظة نفسِها التي التقت جدران الزنزانة مع بعضها بصوتٍ مدوٍّ. سقط (شلينكو) أرضًا وهو لا يزال مغمضًا عينيه، رفع وجهه إلى أعلى وفتح عينيه ببطءٍ لتستقبله فوهةُ مسدسِ أقربِ الرجال إليه. كان يبتسم في تشفٍّ حين قال:

"الوداع."

ثم أَطلق الرصاص لتتبعه كلُّ مسدسات الرجال من خلفه، سيلٌ من الرصاص اخترق جسد (شلينكو) الذي انتفض بعنفٍ بعد أن تحول جسده إلى مصفاةٍ من كثرة ما تلقى من رصاصاتٍ قبل أن يسقطَ على وجهه جثةً هامدةً لا تمت إلى عالمنا بأيّة صلة.

ما إن سقط (شلينكو) أمام الرجال العشرة حتى توقف الرجال عن إطلاق النيران ثم أطلقوا صيحة انتصار حين توقفت المرأة عن الصراخ، قبل أن يعيد الرجال مسدساتهم إلى أغمادها وهم يرفعون وجوههم إلى أعلى ويخرجون من المكان ليختفوا تمامًا، ما عدا المرأة التي اقتربت من جثة (شلينكو) وهي تنظر إليها بازدراء قبل أن تبصق عليها وهي ترفع رأسها لأعلى بدورها لتتضح ملامحها من خلال الضوء الخافت المنبعث من مكان خفيّ.

لقد كانت تلك المرأة هي (نيرفانا ميخائيل)
أخت (زوشا)... التوأم.

****

بدأت الحكاية منذ أكثر من عشْرِ سنواتٍ، عندما كان سامحٌ يدرس في كلية التجارة، لقد كان من طبقة الطلاب الفاشلين الذين بالكاد نجحوا وبالغش وبالخداع، كان يعتمد على ثروة أبيه الطائلة المتمثلة في العقارات والأراضي، ناهيك عن الشركات والمجمّعات التجارية الضخمة. لكن على الرغم من كل ذلك لم يَغفَل الأب عن التعليم؛ كان يرى أن الإنسان يُقَيّم بشهادته وليس بماله حتى ولو امتلك كل أموال الأرض خاصة أنه حُرِمَ من التعليم، لذا قرر أن يعطي ما حُرِمَ منه لابنه الوحيد، ولكنّ سامحًا كان في قرارة نفسه مقتنعًا بأن المال هو سبيل السعادة في كل بقعة من بقاع الأرض، فأخذ ينفق من أموال والده كيف يشاء غير مبالٍ من أين أتى والده بكل هذه الأموال.

وعندما ظهرت نتيجة الثانوية العامة أصابت خيبة الأمل الوالد عندما عرف أن ولده الوحيد لن يلتحق بأيّة كلية من كليات القمة ولا حتى كليات القاع، فقرر الوالد أن يكمل ابنه تعليمه خارج البلاد وعندما سأل أحد أصدقائه نصحه بأن يتلقى سامح تعليمه في إحدى البلاد الباردة وذلك لتميزهم عن غيرهم بالشدة في التعامل، والدقة في التدريس. لذا، عرض الأب الموضوع على سامح الذي تقبل الأمر بكل سعادة

مطيعًا لوالده بل مرحبًا بالحياة الجديدة التي سيعيشها لأول مرة في حياته مُطلِقًا العنان لكل نوازعه وأفكاره الشيطانية. وقبل سفره بثلاثة أيام كان يقضي آخر سهراته (سهرة الوداع) مع مجموعة من أصدقائه الذين كان يحب أن يناديهم بـ"شلة الأنس" ولقد كانوا على نفس شاكلة سامح في أخلاقه السيئة وطباعه الحادة، فكانوا خير مثال للمثل القائل (ما جمع إلّا لمّا وفق) ولقد كان التوفيق لإبعد مدى عندما اكتشف سامح أن شلة الأنس سترافقه في سفره إلى البلاد الباردة، إلى (روسيا) ليكملوا تعليمهم هناك في كلية التجارة للحصول على الشهادة، فقط الشهادة، كي يظهروا أمام المجتمع من حملة الشهادات ليس إلا.

كانت الشلة تتكون من ثلاثة أفراد خلاف سامح، كان أولهم وزعيمهم هو عبد العزيز صاحب الشقة وابن أشهر رجال الأعمال في مصر، كان عبد العزيز نحيلاً طويلَ القامة يحمل وجهه قدرًا كبيرًا من الوسامة، تَشعر عندما تتحدث معه أنه دائمًا بنصف وعي (مسطول)، كان لا يتكلم إلا عن أنواع المخدرات وكيفية الحصول عليها كان هو مسئول المزاج في الشلة، أما الثاني فكان طارق، ابن أشهر رجال المقاولات في مصر، طارق هو الولد الوحيد بين أربع بنات. فكان الفتى المدلل لدى العائلة الذي لا يستطيع أحدٌ أن يرفض له طلب، وقد كان طارق هو المسئول عن "الحريم" في الشلة، كان يعرف تقريبًا كل العاهرات في (كباريهات) القاهرة وبعضِ المحافظات، فكان مسئولَ توريدِ

"الحريم" للشلة، لم يكن وسيمًا ولم يمتلك جسدًا رياضيًا، ولكنه يتمتع بلسان ذَلِقٍ، يتكلم بإسلوب مهذب ورقيق يستطيع به استمالة أيِّ فتاةٍ إليه وإيقاعها في شَرَكِه.

أما الثالث فهو مهند ابن أكبر تُجّار الحديد في مصر، كان مهند يشبه الممثل التركيّ مهند، وسيمٌ رقيقٌ يمتلك جسدًا رياضيًا يُحسَد عليه، وكانت نقطة ضعفه هي الخمور ولعب الورق. كان يستطيع تمييز أيّ نوع من أنواع الخمور بمجرد أن يتذوقها، ولقد كان يتفنن في عمل الكثير من الكوكتيلات المختلفة التي تُذهِب العقل وتضعُ الإنسان في عالم من الهلاوس وعدم الاتزان، وكان عندما يمسك بالكأس يشعر وكأن الدنيا بأكملها بين يديه، ناهيك عن لعب الورق كل ليلة على الرغم من خسارته يوميًا.

أما سامح فكان يمتلك جسدًا رياضيًا، وكان وسيمًا وجذابًا، ولكنه متعلق بهذه الشلة لأبعد مدًى منذ المرحلة الثانوية، لقد كان يجد فيهم ما لم يستطع والده أو والدته إعطاءه إيّاه، أقصد: الثقة بالنفس، فقد كانت نقطة ضعف سامح هي ضعف الشخصية فباتت كل قراراته متخبطة وغير فعالة، لكن سامح لم يدرك أن والده ووالدته فعلوا به ذلك من شدة خوفهم عليه من الوقوع في المحظورات التي يقع فيها الكثير من الشباب هذه الأيام، في المقابل لم يدرك الوالدان أن كل ما فعلاه لإبعاد سامح عنه، كان طريقه للوصول إليه. ولكن ليس كل ما يتمناه

المرء يدركه فلقد وقع سامح في المحظور عندما نشأت صداقةٌ عجيبةٌ بينه وبين هذه الشلة الفاسدة التي على الرغم من ضياعها استطاعت أن تبثّ الثقة في نفس سامح فكان تَرْكُ هذه الشلة بالنسبة لسامح هي الضياع والهلاك، كانوا يجتمعون يومين في الأسبوع بحجة المذاكرة عند عبد العزيز زعيم الشلة، وما إن يلتقي الفريق حتى تبدأ الحفلة التي كانت تحتوي على كل المحرمات والموبقات من مخدرات وخمور ونساء وكل ما تتخيله من ضياع لأيّ شاب في هذه السن الحرجة.

وفي آخر لقاء لهم في مصر، سحب طارق نفسًا عميقًا من سيجارة محشوة بالحشيش، ثم كتمه لثوانٍ حتى احمرّتْ عيناه قبل أن يخرجه ببطء من منخريه بطريقة المحترفين ثم قال باستمتاع:

– الله ينور عليك يا (زيزو) حته كِيف معتبرة.

ابتسم عبد العزيز في هدوء قائلاً:

– شد جامد يا طرّوق، الخير ده مش هنشوفه في البلاد اللي رايحنها.

تكلم سامح قائلاً وهو يلتقط السيجارة من طارق:

– وإنت برضه هتغلب يا عبده، ده إنت برنس.

التفت إليه عبد العزيز ونظر إليه لثوانٍ ثم قال في غرور:

– أخجلتم تواضعنا والله يا رجاله.

تكلم طارق قائلاً:

– يا ترى المزز هناك أخبارهم إيه؟ الواحد عايز يجرب الحته البيضاء.

تكلم مهند لأول مرة قائلاً بهدوء:
- المواضيع دي ما تهمنيش خالص.
اقترب طارق بوجهه من وجه مهند قائلاً وهو يلقي إليه قُبلةً في الهواء:
- إنت عارف لولا إنك صاحبي من زمان يا نونو أنا كنت عملت معاك أحلى شغل يا مُز يا جامد.
قالها طارق ثم انطلق يضحك، يشاركه ضحكاته جميع أفراد الشلة بما فيهم مهند نفسه، كانوا على الرغم من فسادهم تجمعهم صداقة من النوع القوي الذي لا تُفرِّقه الأيام. ولكن... دوام الحال من المحال! صحيحٌ لا تفرقهم الأيام، ولكن قد تبعدهم الظروف.

****

الانبهار!! كانت هذه هي أنسب كلمة تقال عن الأصدقاء الأربعة عندما وطئت أقدامهم الأراضي الروسية، الثلوجُ التي تحيط بهم من كل مكان، درجة الحرارة تنخفض لعدة درجاتٍ تحت الصفر لم تمنع حالة الانبهار التي أحاطت بهم، فروسيا من الدول المتقدمة صناعيًا واستطاعت أن تعيد بناء نفسها مرة أخرى بعد الانهيار الاقتصاديّ الذي لحق بها في أوائل التسعينات، لتسير بخطًى ثابتة في طريقها لمنافسة أكثر الدول الأوروبية تقدمًا.
موسكو، بطرسبرج، مبنى الكريملين الرهيب، الحدائق، الشوارع، المباني الشاهقة كان لها مفعول السحر في كيان الأصدقاء الأربعة.

أما عن الدراسة، فقد التحقوا بكلية التجارة، وذلك بناءً على رغبة آبائهم كي يكتسبوا خبراتٍ تمكّنُهم من إدارة الأموال الطائلة التي لن تدوم لهم ولكنها ستبقى لأبنائهم.

كان اليوم الأول في الجامعة شاقًّا ومرهقًا، البحث عن الكلية ثم البحث عن أماكنهم فيها، ولكن (زوشا) أخذت بأيديهم إلى بداية الطريق عندما رآها طارق لأول مرة في ساحة الجامعة، فَلَفَتَ نظرَه جمالُها الأخّاذ، وعلى الرغم من وجود الجميلات من حوله منذ أن وضع قدميه على أرض الجامعة فقد كان ما يميز (زوشا) هو الهدوء والثقة بالنفس، ناهيك عن جمال ملامحها الرقيقة وزُرقةِ عينيها التي تشبه السماء في صفائها. أما عن ابتسامتها فحدث ولا حرج، ابتسامة تبعث على الراحة والطمأنينة في قلب أيّ إنسان على وجه الأرض.

يومها توجه إليها طارق بصحبة أصدقائه الثلاثة وسألها باللغة الروسية - التي أتقنها هو وأصدقاؤه قبل سفرهم إلى روسيا بستة أشهر- عن مكان الكلية وأخبرها أنّ أربعَتَهُم أصدقاءٌ من مصر، وما إن سمعت (زوشا) أنهم من مصر حتى انتفضت في مكانها واتسعت ابتسامتها لتغطي الكون وهي ترحب بهم وبكل أهل مصر قبل أن تصطحبهم إلى الكلية وتعرفهم على بعض أصدقائها هناك، ذاب الخوف وانهار القلق في نفوس الأصدقاء الأربعة ودبت فيهم روح الألفة والطمأنينة، (زوشا) نفسها كانت سعيدة لأنها قابلت أشخاصًا من مصر، مصر التي

تَمَنّتْ زيارتها ورؤية آثارها التي قرأت عنها كثيرًا في كتب التاريخ، لقد قالت في قرارة نفسها إن مصر هي التي أتت إليها متمثلة في هؤلاء الشبان الأربعة، ستعرف منهم كل شيء عنها وعن المصريين.

تعاملت معهم بلطف ورقة فاقتربت من قلوبهم حتى سكنتها، ولكن لم يسكن قلبها إلا سامح فقد كان يعاملها بأدب واحترام على عكس أصدقائه الثلاثة الذين كانت تشعر في نظراتهم بالشهوانية الحيوانية ولكنها أحالت الأمر إلى أنهم لم يروا أوروبا ولا بنات أوروبا قبل ذلك، أما سامح فقد لمست فيه البراءة في كل تصرفاته ولقد أيقنت أنّ بداخله شخصًا مختلفًا عما يحاول أن يظهره، لذلك أولته الكثير من اهتمامها؛ ففي يوم ميلاده أعدت له حفلاً جميلاً بهيجًا تعمّدت ألا يحضره إلا سامح وهي فقط، وفي شقة إحدى زميلاتها كان اللقاء والاحتفال، يومها اعترفت له بحبها وسلمت له نفسها وهي غير نادمة، ومن بعدها لم تترك سامح لنفسه أبدًا، لقد عزمت على إعادة هيكلته مرة أخرى فأخذت تلقي إليه بالنصائح وتأخذ بيده إلى طريق النجاح، حتى جاء يوم الاحتفالات الشهير المعروف بـ(يوم روسيا) اليوم الذي يخرج فيه الشعب الروسي بأكمله إلى الشوارع، الزينة والرايات في كل مكان، الخمور تراق يمينًا ويسارًا حتى ساعة متأخرة من الليل.

في هذا اليوم أصر طارق ومهند وعبد العزيز على دعوة (زوشا) على العشاء في منزلهم البسيط بحي (أرباط) الذي تسكنه فئة كبيرة جدًا

من المصريين المهاجرين إلى روسيا، ووافقت (زوشا) على مرافقتهم بعد أن علمت أن سامح سيكون معهم، كي تشعر بالأمان لوجوده إلى جوارها، فبعد أن قَضَوْا يومًا رائعًا في حديقة (نوفودوفيتشي) أشهر الحدائق في روسيا، ذهبوا جميعًا إلى المنزل، وهناك أعد الأصدقاء وليمةً رائعةً احتفالاً بـ (زوشا) وبقدومها إلى منزلهم المتواضع، أعد مهندٌ كوكتيل الفودكا ريدبول من الفودكا "المشروب الشائع هناك الذي يصل تركيز الكحول فيه إلى ٥٠٪ للتغلب على برودة الجو" مع مشروب الطاقة (ريدبول)، أما عبد العزيز فقد أعدّ العُدّة لهذا اللقاء، فاستطاع الحصول على أفضل أنواع المخدرات التي تذهب العقول وتثير حفيظة الشياطين في النفوس، وفي منزلهم قام طارق بعد العشاء بتشغيل موسيقى شرقيةٍ ثم دعا (زوشا) إلى الرقص فَلَبّتْ النداء على الفور وأحاطت وسطها بكوفية من الصوف ثم أخذت تتراقص وتتمايل مع أنغام الموسيقى.

غطى الدخان المنبعث من سجائر المخدرات التي طفِقَ يشربها عبد العزيز بنهمٍ شديدٍ، كلَّ مكانٍ في المنزل تقريبًا فدارت معه رأسه ثم رؤوس أصدقائه من بعده، وفي الوقت نفسه قامت الخمر بدورها في نفوس الأصدقاء الثلاثة، كل ذلك جعل طارقًا يتأمل كل تفصيلة في جسد (زوشا) المتناسق قبل أن يقوم من مكانه ويحيط وسطها بذراعيه، ويضمها إليه برفق فنظرت إليه بدهشة ثم نظرت إلى سامح فوجدته في

حالة يُرثى لها، تائهًا بين الخمور ودخان المخدرات، فنادته تستنجد به ولكنه لم يلبِّ النداء، كل ما فعله أن ابتسم ببلاهة قبل أن ينزويَ في ركن الحجرة ويضم ركبتيه إلى صدره ويعضّ على شفتيه بندم وقلة حيلة والدموع تملأ عينيه.

أما أصدقاؤه الثلاثة فأخذوا يتناوبون على (زوشا)، وصراخُها يعلو ويعلو فوق مخاوف سامح.

انتهى طارق وعبد العزيز من جسدها، وعندما اقترب منها مهند أخذت ترتجف بعنفٍ والزَّبَدُ يخرج من جانب فمها وعيناها تحدقان في سقف الحجرة بثبات، ابتعد عنها مهند وهو ينظر إلى طارق يسأله المشورة قبل أن تصرخ (زوشا) صرخةً هائلةً ثم تَهْمَد حركتها تمامًا، اندفع طارق إليها محاولاً إسعافها ولكن دون فائدة، أدار بصره في أصدقائه الثلاثة ليرى سامحًا على حالته السابقة نفسها، أما عبد العزيز فأخذ يتحرك في المكان بتوتر ويقول:

- يا دي المصيبة، هنعمل إيه دلوقتي؟!!

أشار إليه طارق بالصمت، ثم عقد حاجبيه مفكرًا لثوانٍ قبل أن يقول:

- لازم نخلص منها، يلا ساعدوني.

تعاونوا على وضعها في كيسٍ قماشٍ كبير ثم حملوها إلى خارج المنزل منتهزين فرصة انشغال الناس بالعيد القومي وألقَوْها في أقرب مكان لتجميع القمامة، قبل أن يعودوا مرة أخرى إلى المنزل ليجدوا سامحًا

قد انهار تمامًا فأخذوه إلى الحمام ووضعوه أسفل الدش بعد أن جَرّدوه من ملابسه، وذهب عبد العزيز إلى المطبخ لإعداد فنجان من القهوة السادة لسامح كي يعود إلى اتزانه مرة أخرى، أما طارقٌ فقد رفع سماعة الهاتف واستعلم عن مواعيد إقلاع الطائرات المتجهة إلى القاهرة ومن حسن الطالع أنه وجد طائرةً ستقلع بعد ساعتين وعلى متنها عدة مقاعد شاغرة، فقام بحجز أربعة تذاكر وأكد على حجزها ثم أخرج هاتفه المحمول وطلب والده الذي يُعَدُّ من أقوى رجال الاقتصاد في مصر وحكى له الواقعة سريعًا ليسأله المشورة فأجابه بأنه سَيُسَهِّلُ لهم طريقة الخروج من مطار موسكو وأنّ عليهم أن ينتظروا منه تليفونًا خلال ساعة كي يُجْمِعَ رأيه مع آباء سامح وعبد العزيز ومهند.

أما مهندٌ فقد ظل مع سامح في الحمام حتى اطمأن عليه ثم أخذه إلى غرفته وألبسه ملابسَ نظيفةً، وجاءه عبد العزيز بالقهوة فأخذ يرتشفها ببطء في اللحظة نفسها التي دخل فيها طارق إلى الحجرة واستند على بابها وقال:

"جهزوا نفسكم هنسافر دلوقتي، ومن حسن حظنا إن الباسبورتات أخدناها إمبارح علشان نكمل الأوراق بتاعتنا اللي ناقصة، فأنا اتصلت بالمطار وحجزت طيارة لمصر هتقوم بعد ساعتين وكلمت بابا وهو هيتصرف من مصر مع آبائكم علشان يأمّن لنا الخروج من مطار موسكو."

نظر إليه سامح متسائلا قبل أن يغمغم:

- طب و(زوشا).

اقترب منه طارق ووضع يده على كتفه ونظر في عينيه وقال:

- إنساها، إنساها يا سامح، دي صفحة واتقفلت وعقبال ما يكتشفوا جثتها نكون إحنا وصلنا مصر.

هز سامح رأسه في استسلام وقال:

- اللي تشوفوه، أنا موافق عليه.

وكما أعلن استسلامه من قبل في أمورٍ كثيرةٍ، أعلن استسلامه هذه المرة معلنًا الخسارة، خسارته لنفسه.

****

اغرورقت عينا سامح بالدموع وهو يرى أمامَه تاريخَه يُعادُ مرة أخرى بكل تفاصيله وحذافيره، فالتفتَ إلى (نيرفانا) ودموعُه تنساب ببطء على وجنتيه قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ويقول:

- ياه، من ساعة الموضوع ده وعيني ما شافت النوم.

اقتربت منه (نيرفانا) وقالت:

- ولسه، اللي جاى أكتر، لكن خليني أوريك اللي إنت مشفتوش وما تعرفش حاجة عنه، بس اسمح لي أستضيف معاك واحد له دخل كبير في الموضوع ده.

نظر إليها متسائلاً فابتسمت بسخرية وهي تغمض عينيها لثوانٍ ثم تفتحهما على أقصى اتساعهما ليظهر في المكان فجأة الضابط

(شلينكو) وعلى وجهه إمارات الفزع والخوف، أخذ يتحسس صدره في لهفة قبل أن يرفع رأسه إلى (نيرفانا) ويقول:

- أنا فين؟!! أنا جيت هنا إزاى؟!!

لم تُعِرْه أيّ اهتمام وهي تلتفت إلى سامح وتقول:

- أحب أقدم لك الضابط (شلينكو)، زميلك.

عقد سامح حاجبيه بتساؤل، ولكن (نيرفانا) قطعت تساؤلاتِه وقالت:

- زميلك في رحلة الهلاك.

تمتم (شلينكو) بخفوت:

- رحلة الهلاك.

رفعت (نيرفانا) يدها اليمنى فالتفَتَ إليها سامح و(شلينكو) وهي تقول:

- مش هقول أيّ تفاصيل إلا بعد ما تعرف يا سامح إيه اللي حصل في روسيا بعد ما هربت إنت وزمايلك.

والتفتت إلى (شلينكو) وقالت:

- وكمان علشان (شلينكو) يعرف إيه دخله في الموضوع ده.

قالت كلمتها ثم نظرت إلى الفتاة الصغيرة، وتبادلت معها عدة كلمات بلغة غير معروفة على وجه الأرض فابتسمت الفتاة لـ (نيرفانا)، ثم نظرت إلى سامح و(شلينكو) وابتسمت في غموض قبل أن تتجه إلى حائط ثلجيّ وتخرجَ من جيبها ريشة رسم صغيرة وتبدأ في الرسم على الحائط ببطء قبل أن تزداد سرعة يدها على الحائط وتتحول إلى ما يشبه

المروحة التي تدار بأقصى سرعة، لقد كانت ترسم نفس الأحداث التي حدثت في روسيا بعد هروب سامح وأصدقائه وكذلك الأحداث التي حدثت هناك... في مصر.

****

ظلام كثيف أحاط بـ(زوشا) من كل جانب مع ضيق في التنفس وألم رهيب في كل عظمة من عظامها، جاهدت حتى استطاعت أن تخرج يدها من الكيس القماشيّ الذي وُضِعَتْ فيه، أزاحت بيدها الكيس عن وجهها كي تتنفس، اعتدلت في مكانها لتغمرها رائحة العطن والعفن التي تحيط بها من كل جانب، تحاملت على نفسها حتى خرجت من مكان تجمع القمامة وهي تترنح، التقطت أنفاسها بصعوبة واستندت على جدار أحد المنازل قبل أن تسير ببطء إلى أول الشارع الذي غمرته أضواء الاحتفالات، ووقفت وسط حشد من الناس قبل أن تسقط مرة أخرى، اندفعوا إليها يحاولون إنقاذها فألقت إليهم بعنوان أختها (نيرفانا)، وعلى الفور أوقف أحدهم سيارة أجرة وألقى إليه بالعنوان الذي سمعه من (زوشا) وعلى الفور تحرك السائق إلى العنوان وخلفَه (زوشا) في حالة يُرثى لها، زائغةً العينين، رثّةَ الملابس، ألمٌ وتعبٌ في كل خليةٍ من خلاياها.

انزعجت (نيرفانا) عند رؤيتها لأختها على هذه الحال، أخذتها إلى الحمام وفتحت المياه عليها بعد أن جردتها من ملابسها وأخذت تغمر

جسدها بأكمله بالماء، وجدت آثار دماء على فخذيها فأخذت تضمدها وتعتني بالجرح الغائر بين فخذي (زوشا) حتى تَوّقف النزيف، ثم أخرجتها من الحمام إلى حجرتها وأعدت لها كوبًا من الشاي الأخضر حتى هدأت تمامًا وبدأت في الحديث، حكت لأختها عما حدث لها من أصدقائها المصريين وعن حبها لسامح وصَدْمَتَها فيه عندما لم يتحرك لإنقاذها عندما رآها بين أيدي أصدقائه، انتفضت (نيرفانا) واقفة والغضب يكسو ملامحها وهي تأخذ بيد (زوشا) لتوقفها أمامها وتقول:

- لازم تاخدي حقك منهم، أوعي تسيبيهم.

هزت (زوشا) رأسها بوهن وهي تقول:

- هنعمل إيه؟!! أنا وأنتي لوحدنا ومفيش حد معانا علشان يحمينا.

نهرتها أختها قائلة:

- الحكومة موجودة وهي اللي هتجيب لنا حقنا.

هزت (زوشا) رأسها مرة أخرى وهي تقول:

- خلاص، اللي إنتي عايزة تعمليه، اعمليه.

أخذتها (نيرفانا) إلى أقرب قسم شرطة وقام الضابط الموجود هناك بتحرير محضر للواقعة قبل أن يتراجع في مقعده ويقول وهو يشعل سيجارًا روسيًّا له رائحة نفاذة:

- تفتكري أصدقائك اللي عملوا كده نلاقيهم فين دلوقتي؟!!

التقطت (زوشا) أنفاسها وقبل أن تتفوه بأيّة كلمة دخل إلى الغرفة رجلٌ متينُ

البنيان، حادُّ القسمات يرتدي زيًّا رسميًّا كاملاً، لم يكد الضابط "النوباتشي" يراه حتى قام على الفور من مكانه مرحبا به فبادره الرجل قائلاً:

- في إيه يا (دميتري)؟!!

أخبره الضابط بما حدث لـ(زوشا) في كلماتٍ وجيزةٍ، فالتفت إليها الرجل قائلاً:

- إهدئي يا آنسة، ممكن تحكي لي اللي حصل واحدة واحدة، من غير إهمال لأي تفصيلة حتى لو كانت صغيرة، أولاً أحب أقدم لك نفسي، أنا العقيد (دوروف) من الأمن العام.

ابتسمت (زوشا) باطمئنان، وبدأت تحكي الواقعة بالتفصيل و(دوروف) يستمع إليها بهدوء حتى انتهت من روايتها، فساد الصمت لثوانٍ قبل أن يقوم العقيد من مكانه ويلتقط سماعة الهاتف ليطلب إدارة الهجرة في الوقت نفسه الذي كان طارقٌ وأصدقاؤه في طريقهم إلى مطار موسكو، لتصبح عقاربُ الساعةِ هي الفيصلُ الوحيدُ في هذا السباق، سباق القصاص.

****

قبل هذه الأحداثِ القليلةِ الماضيةِ، وفي قلب القاهرة الكبرى داخل إحدى شركات "خالد مدكور" والد طارق، كان هذا الاجتماعُ المغلقُ الذي ضمّ والد سامح "الحاج إبراهيم السيد" و"الحاج حنفي الإسناوي" والد عبد العزيز، وأخيرًا والد مهند الأستاذ "حسن علوان".

كان عبارة عن اجتماعٍ إنقاذٍ؛ إنقاذٍ لأولادهـم من براثن القوات الروسية، استمر الاجتماعُ لساعةٍ كاملةٍ وفي النهاية اتفق الجميع على سرعة ترحيل أبنائهم من موسكو بأي حال من الأحوال، فأخرج خالد مدكور هاتفه المحمول واتصل بابنه طارق ليبلغه بأوامرِه بالذهاب إلى المطار فورًا وأنه سيقوم بكل ما يمكنه مع السلطات هناك، أطاع طارقٌ أوامرَ والدِه على الفور وتوَجّه إلى المطار هو وأصدقاؤه، وهناك أبرز كلٌّ واحدٍ منهم جواز سفره لضابط الجوازات الذي أطال النظر في جوازات سفرهم بِشَكٍ قبل أن يختمها بختم المرور، وعلى الفور توجه أربعتهم إلى صالة المرور لركوب الطائرة ولكنهم توقفوا في أماكنهم ولم يتحركوا خطوةً واحدةً إلى الأمام عندما سمعوا من ينادي عليهم بصوت صارم وبلغة روسية تمامًا.

لقد كان العقيد (دوروف) الذي وصل في اللحظة المناسبة ليلقي القبض عليهم قبل مغادرتهم موسكو بعدةِ دقائق، لقد كان العقيد (دوروف) رجلاً صارمًا في كل ما يتعلق بأمن روسيا، ولكن على الرغم من ذلك، فقد كان يمقت الأوضاع الاقتصادية التي آلت اليها روسيا في الفترة الأخيرة. كان يأمل أن يعيش هو وابنه الوحيد الذي أنعم الله عليه به بعد وفاة زوجته في أفضل حال، وأن يتذوقوا معًا رغد العيش، ابنه الوحيد (شلينكو). أخذ (دوروف) يتأمل الأصدقاء الأربعة في مكتبه وهو يحرك سلسلةَ مفاتيحَ أنيقةٍ في يده اليمنى برتابة قبل أن يميلَ إلى الأمام ويستندَ

إلى حافة مكتبه قبل أن يقول ببرود وهو يشير إلى (زوشا) قائلاً:

- الآنسة بتتهمكم بالاعتداء عليها واغتصابها، إيه ردكم؟!!

تكلم طارق قائلاً:

- ممكن أستعمل التليفون؟

أشار إليه (دوروف) بعجرفةٍ قائلاً:

- إتفضل لو ده في مصلحتك.

أخرج طارق هاتفه المحمول وطلب رقمًا طويلاً ثم انتظر قليلاً قبل أن يقول بلغة عربية خالصة:

- بابا، إحنا اتقبض علينا في المطار.

صمت قليلاً ليستمعَ إلى والده، ثم التفت إلى (دوروف) وهو يناوله الهاتف قائلاً:

- إتفضل.

أشار (دوروف) إلى الهاتف قائلاً بغطرسة:

- مين؟!!

ابتسم طارق بهدوء وقال:

- كلم حضرتك، وإنت تعرف مين؟!!

التقط (دوروف) الهاتف من طارق وقال:

- ألو.

صمت قليلاً ليستمعَ إلى والد طارق قبل أن يجيب بالإنجليزية ومشددًا

على حرف الراء على عادة الروس :

- ابنك وأصحابه متهمين في قضية اغتصاب، ولازم نحجزهم لغاية ما نأخذ أقوالهم وبعد كده نستدعي مندوب من السفارة و...

صمت فجأةً قبل أن يعقد حاجبيه مفكرًا ويقول:

- مش ممكن! إيه اللي بتقوله ده، أنا...

صمتَ مرةً أخرى وهو يتراجع في مقعده ويستمع لمحدّثِه بتركيزٍ قبل أن يطلق زفرة حارّة ويقول:

- لازم يدخلوا الحجز النهاردة لغاية ما نستكمل التحقيق وبعد كده...

وللمرةِ الثالثةِ يقاطعه والد طارق، وللمرةِ الثالثة أيضًا يصمت (دوروف) ولكن هذه المرة لفترة أطول، استمرت لخمسِ دقائقَ كاملةٍ قبل أن يقول بنفاذ صبر:

- خلاص هكلمك بعدين.

قال عبارته ثم أغلق الهاتف وأعطاه إلى طارقٍ الذي التقطه منه وهو يبتسم بهدوء ويلتفت إلى أصدقائه مُطَمئِنًا، ولكن ابتسامته راحت أدراج الرياح مع صوت (دوروف) وهو ينادي على العسكري الواقف بجوار الباب فدخل على الفور رافعًا يده بالتحية العسكرية بقوة، فبادره (دوروف) قائلاً بصرامةٍ مشيرًا إلى طارق وأصدقائه الثلاثة:

- خدهم على الحجز.

حدّق أربعتُهم في (دوروف) بذهولٍ غير مصدقين أن النهاية ستكون في

الحجز، أدار (دوروف) وجهه عنهم وهو ينظر إلى (زوشا) و(نيرفانا) التوأم قائلاً:

- إتفضلوا دلوقتي وبكرة هنتصل بيكم علشان ناخد أقوالكم. مع السلامة.

تكلمت (نيرفانا) قائلة:

- إحنا جينا هنا على طول من غير ما نروح المستشفى، كده هنروح على المستشفى دلوقتي ونجيب منهم تقرير بحالة (زوشا).

أشار (دوروف) بيده بصرامة وقال:

- مفيش داعي، أنا شايف أن (زوشا) بقت كويسة، إتفضلوا دلوقتي وهستدعيكم الصبح.

أطاعته الفتاتان وانصرفتا على الفور، أما هو فقد تراجع في مقعده وهو يفكر في العرض الذي قدّمه والد طارق، العرض الذي سيغيّر حياته ١٨٠ درجة نحو المستقبل، مستقبله المالي، لقد عرض عليه والد طارق عشرة ملايين دولارٍ أمريكيّ مقابل إغلاق القضية ومساعدة طارق وأصدقائه على مغادرة البلاد. مبلغٌ لم يكن يحلم به ولا حتى في أجمل أحلامه أو تخيلاته وهو الذي وصل إلى درجة "عقيد" وما يزال راتبه لا يكفيه هو وابنه الوحيد (شلينكو) الذي يأمل أن يؤمّن له مستقبله ويدخله كلية الشرطة حتى يراه ضابطًا يشار له بالبنان، لقد كان كلام والد طارق محددًا وقاطعًا وكأنّه يُلقي أمرًا واجبَ النفاذ ـ

كلام والد طارق أثار موجاتٍ من التفكير في رأس (دوروف) وخاصة عندما أخبره مُحدِّثُه أنه سَيُخرِج طارقًا وأصدقاءه من هذه الورطة بنفوذه واتصالاته سواء وافق هو أو رفض، كان يتكلم بثقة جعلت (دوروف) يعيد ترتيب أوراقه مرةً أخرى، فأمر بوضع الشباب في الحجز وأمر (زوشا) و(نيرفانا) بالذهاب إلى منزلهما حتى يُعطِي نفسه فرصةً للتفكير مرة أخرى، ولقد استمر في التفكير وإدارة الموضوع بأكمله في رأسه حتى انبلج الفجر وهو لا يشعر بمرور الوقت، ومع شروق الشمس حسم موقفه وأخرج هاتفه المحمول وطلب رقم والد طارق الذي أعطاه له أثناء حديثهما معًا، انتظر قليلاً حتى أتاه صوت خالد مدكور فقال (دوروف) على الفور:

- عشرين مليون، ويفتح بهم حساب خاص في سويسرا باسم (شلينكو دوروف).

كان خالد يستمع إليه وهو يكتب البيانات التي يمليها عليه (دوروف) ثم قال:

- والأولاد هيسافروا إمتى؟!!

أجابه (دوروف) قائلاً:

- أول ما أتطمّن إن الحساب إتفتح والفلوس إتحولت هيكونوا في المطار.

تكلم خالد قائلاً:

- إنت عارف طبعًا إن في فرق توقيت بين القاهرة وروسيا وكمان فرق

توقيت بين القاهرة وسويسرا...

قاطعه (دوروف) ببرود يفوق ثلوج روسيا قائلاً:

- خد وقتك كله، أنا مش مستعجل.

قال خالد على الفور:

- إتفقنا، إستنى مني تليفون قريب.

تكلم (دوروف) قائلاً بهدوء:

- إتفقنا.

قالها ثم أغلق الهاتف على الفور، ورجع بظهره إلى الوراء وهو يحلم بالثراء القادم، الثراء الفاحش.

****

انتصف النهارُ وألقَت الشمسُ الذّهبية أشعتها في كل مكان لتذيب الكثير من الثلوج التي تغطي المنازل في موسكو في ظاهرة قلما تتكرر في هذه البلد الباردة التي تصل فيها درجة الحرارة في فصل الشتاء إلى العشرة تحت الصفر، في ذلك الوقت، دخلت (زوشا) ببطء من باب القسم وهي تستند على كتف أختها (نيرفانا)، كان من الواضح أنها لم تذق طعم النوم طوال الليل وأنها قضت ليلةً مليئة بالتعب والإرهاق والسهر أيضًا هي وأختها، سارتا في الطرقة المؤدية لمكتب (دوروف) ليجدوه قادمًا باتجاههم وعلى وجهه ابتسامةٌ هادئةٌ ليقول:

- صباح الخير.

رَدّتْ (زوشا) قائلة:

- صباح الخير، إيه الأخبار؟!!

رسم (دوروف) مشاعر الأسف على وجهه وهو يقول:

- مع الأسف مالقيناش أي دليل ضدهم فاضطرينا نخرجهم على السفارة المصرية والسفير أمر بعقابهم وترحيلهم على مصر فورًا.

اتسعت عينا (نيرفانا) بذعر وهي تنظر إلى أختها التي حدّقت في وجه (دوروف) غير مصدقة لكلامه قبل أن تتهاوى في مكانها فاقدةً للوعي، تلقفتها أختها بلوعة تحاول إسعافها أما (دوروف) فقد تركهما وتوجه إلى مكتبه فدخله وأغلق الباب خلفه بعنف لينهي هذا الفصل من الأحداث تتابعه نظرات (نيرفانا) الغاضبة المملوءة بالوعيد والانتقام.

****

- طب أنا ذنبي إيه؟!!

نطق (شلينكو) بهذه العبارة وهو يتراجع بخوفٍ ورهبةٍ أمام نظرات (نيرفانا) الغاضبة، ولكنها أجابته على الفور قائلةً:

- الأبناء لازم يدفعوا ثمن غلطة الآباء، مع الأسف والدك مريض دلوقتي ومش هستفيد منه بأي حاجة وهو بالشكل ده.

وفجأة فرقعت بسبابتها وإبهامها ليظهر على الفور العقيد (دوروف) أمام ابنه وهو مقيدٌ بسلاسلَ من الجليد تحيط بكاحليه وذراعيه ورقبته، كان يبدو عليه الإعياءُ والمرضُ والشقاءُ والعناءُ فاندفع (شلينكو) نحوه

وهو ينطق اسمه بإشفاقٍ وخوفٍ ولكنه اصطدم بحاجزٍ خفيٍّ حال بينه وبين الوصول إليه، فنظر إلى (نيرفانا) برجاء أن تفك قيد والده ولكنها ابتسمت باستهتار ولم تعره أيَّ اهتمام وهي تنظر إلى سامح الذي جلس أرضًا وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا بقلة حيلة، فقالت بهدوء:

- طبعًا إنت بتسأل دلوقتي عن منال حبيبة القلب.

لم يكد سامح يسمع اسم زوجته حتى التفت إلى (نيرفانا) وقال بلهفة:

- هي فين؟!! عايز أتطمن عليها.

أشارت (نيرفانا) إلى الطفلة الصغيرة (ميلا) إشارةً ذاتَ مغزى فتوقفت عن الرسم والتفتت إلى خالتها ثم رفعت دميتها أمام وجهها وضغطت على رأسها برفق لتظهر منال فجأة في قلب المكان وهي مُقيّدةٌ مثلُ العقيد (دوروف) فاندفع سامح إليها يحاول فكّ قُيودها، ولكن ما إن لمس يدها حتى سرت في جسده شحنةٌ كهربيّةٌ قويّةٌ ألقت به مترين للخلف على الأقل، فأطلقت (نيرفانا) ضحكةً عاليةً ساخرةً جلجلتْ في أرجاء المكان قبل أن تقول:

- ما تحاولش، هي دلوقتى تحت رحمتي أنا و(ميلا)، وهي كمان لازم تدفع التمن.

صرخ سامح قائلاً:

- إنتي عايزة إيه؟

صرخت (نيرفانا) بدورها وهي تقول:

- عايزة حق أختي، أختي اللي حبّتك وإنت ضيعتها، أختي اللي اكتشفت إنها حامل بعد ما هربت إنت وأصحابك، أختي اللي مرضيتش تنزّل البنت وأصرت يكون لها مولود منك، أختي اللي زهقت من حياتها وانتحرت بعد ما ولدت وإنت عايش متهني في مصر، أنا عارفة إنك رجعت مصر بعد اللي حصل ومسكت شركات أبوك زي ما أصحابك عملوا، لكن مع الأسف الموت كان أسرع مني وأبوك مات زي آبائهم ما ماتوا، وبقيتوا إنتم وأصحابكم أصحاب الملايين، لكن أنا وعدت أختي إني هنتقم لها منكم، كل واحد كان السبب في اللي حصل لها لازم يدفع التمن وأولهم أصحابك.

ثم اقتربت بوجهها من وجهه حتى اصطدمت أنفاسها به وقالت تكِزُّ على أسنانها:

- أصحابك اللي مفيش في قلوبهم أي رحمة.

ابتعدت قليلاً عنه وأدارت ظهرها إليه وقالت:

- بس هما لازم يشوفوا العذاب ألوان قبل ما يأخذهم الموت لعالمه الرهيب.

نظرت فجأة إلى (ميلا) الصغيرة نظرة ذات معنى ، فتحركت الصغيرة لتقفَ في منتصف المكان ثم تطلقَ صرخةً هائلةً انهار على إثْرها جبلٌ صغيرٌ من الجليد على بعد خمسينَ مترًا من الجميع ليظهر من خلفه الأفق الواسع أمامهم، قبل أن تلوح بيدها الصغيرة وتنفخ في الأفق نفخةً قويةً ظهرت على أثرها فيلا أنيقة يقف على بابها عددٌ لا بأس به

من الحراس المُدجّجين بأحدثِ الأسلحةِ، والعجيبُ أن (ميلا) عبرت من البوابة الرئيسية دون أن يشعر بها الحراس الذين يحيطون بالفيلا أحاطة السُوار بالمعصم، الفيلا التي تحمل على بوابتها الحديديةِ الضخمةِ لافتةً أنيقةً مكتوبٌ عليها اسم صاحبها:

اسم "طارق خالد مدكور"؛ أول القتلة وأخطرهم.

- إيه اللي بيحصل بالضبط؟!!

نطق سامح بهذا السؤال وهو يبحث عن إجابة له عند (نيرفانا) التي ابتسمت بشراسة وقالت:

- السحر!

ردد سامح كلمتها وهو ينظر إلى (شلينكو) لعله يجد عنده تفسيرًا لما يحدث، فوجده معقودَ الحاجبين في تساؤل هو الآخر، ولكن (نيرفانا) أطفأت لهيب الأسئلة في عقليهما عندما قالت:

- سحر الفودو.

ابتلع سامح ريقه بصعوبة وارتجف جانب فمه في توتر وهو يتخيل ما الذى سيحدث لإصدقائه وكيف سيكون انتقام (ميلا) منهم... كيف؟!!

****

تحرك طارق بخطوات رشيقة داخل فيلته الأنيقة التي اشتراها مؤخرًا كي تكون وكرًا لملذّاتِه، فعلى الرغم من مركزه الاجتماعي المرموق الذي وصل إليه، لم يستطع أن يترك معاشرة الغواني من كل صنف وكل

نوع؛ نساءِ الطبقاتِ الراقية أو الطبقاتِ الدونيّة، حتى البناتِ الصغارِ لم يرحمهن، كان ينتقي البنات الفقيرات اللاتي يَحْتَجْنَ إلى المال بشدة وبعد أن ينتهي منهن يغدق عليهن الأموال كي لا يَراهُنَّ مرة أخرى، وكان المسئول عن اصطياد النساء والفتيات الصغار هو رجله الأول "خليل" ذو الباع الطويل في هذا المجال، كان قَوّادًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

وفي هذا اليوم كان اللقاء مع مدام "إحسان"؛ امرأة أرستقراطية من بقايا عائلة كان لها صيتٌ كبيرٌ بين طبقة العائلاتِ الراقيةِ، ولقد بذل خليلٌ مجهودًا غيرَ عاديٍّ كي يكون الجسر الذي يربط بين الإحتاجات العاطفية لهذه المرأة وشهوات سَيّدِه ووليِّ نعمته "طارق بيه" ابن الراحل "خالد مدكور" أحد أشهر رجال الأعمال في مصر، ولقد نجح خليل في مهمته وأخذ موعدًا من السيدة "إحسان" لملاقاة طارق، تلقّى طارق اتصالاً هاتفيًّا من خليل يخبره أنّ إحسانَ في طريقها إليه، وأعدّ العُدّة لهذا اللقاء المرتقب الذي وافقت عليه بعد محاولات عديدة من خليل ، استعد "طارق" لهذا اللقاء أتم إستعداد ، كانت شهوته هي التي تحكمه ، هي التي تتحكم فيه لا هو!

ومع دَقّاتِ السابعةِ مساءً، دخل طارقٌ إلى الحمام كي يستعد لهذه الليلة الحمراء فخلع ملابسه تمامًا ثم استقر في الجاكوزي الصغير الذي أصرّ على تصميمه وتواجُدِه في الحمام، ومع الماء الدافئ استرخى جسدُه

تمامًا قبل أن يلتقط أنفُه رائحة عطرٍ نسائيٍّ مثيرٍ ففتح عينيه ليجد أمامه إحسانَ عاريةً تمامًا وعلى ثغرها ابتسامةٌ ماجنةٌ، لا يدري كيف دخلت إلى المكان دون أن ينتبه ولكنّ شهوتَه طَغَتْ على كلّ أفكارِه فجذبها إليه حتى استقرت معه داخل الماء الدافئ الذي غمر جسديهما تمامًا، ثم بدأت إحسانُ في تدليك جسد طارق بالكامل بِحِرْفِيّةٍ تدّل على خبرتها في هذا المجال فاستكان جسدُه تمامًا وأغلق عينيه وهو يرتعش وينتفض انتفاضاتٍ خفيفةً ثم انتفاضةً قويةً قبل أن يستكين جسدُه تمامًا داخل الماء الدافئ.

ثم فتح عينيه ببطءٍ ليجد إحسانَ أمامه تأخذ بكفها الأيمن ماءه الذكريّ الذي طفا فوق ماء الجاكوزي الدافئ وتبتلعه باستمتاعٍ، فاتسعت ابتسامته برضا ولكنها تحولت إلى الذهول والفزع في أشد آياتهما عندما تحولت السيدة إحسان إلى أنثى ضفدع (السيليوس) التي تلتقم السائل المنويّ للضفدع الذكر بفمها إلى معدتها التي توجد بها البويضات وتخصب داخل معدتها ثم تلد من فمها[1] ولم تمضِ ثوانٍ حتى فتحت إحسانُ فمها ليخرج منه العشراتُ والعشراتُ من الضفادعِ السامّة ذاتِ اللونين الأبيض والرمادي[2] وكلها تنظر بعينيها الصغيرتين إلى جسد الفريسة، إلى طارق. وانقضّتْ عليه بألسنتها في كل مكان من جسده

---

(١) حقيقة علمية

(٢) أخطر أنواع الضفادع السامة

العاري فانتفض بعنفٍ ولم يستطع حتى أن يصرخ مستنجدًا قبل أن يغوص جسده تمامًا في ماء الجاكوزي، وعيناه ثابتتان في الفراغ تتابعان روحه التي فارقت جسده إلى بارئها لتلقى عقابها في نيران الجحيم.

أما السيدة إحسان فقد أشارت إلى الضفادع الصغيرة وهي تفتح فمها فاندفعت بأكملها إلى فم إحسان تجاهد كي تستقر مرة أخرى في معدتها، ومع آخر ضفدع دخل فمها، اعتدلت ثم ارتدت ملابسها كلها وغادرت المكان بهدوء ثم خرجت من باب الفيلا ثم البوابة الحديدية لتمر من بين رجال الحراسة وتختفي في أقرب منعطف.

لم تمضِ دقائقُ على مغادرة إحسان للفيلا، حتى انبعثت أضواءُ سيارة حديثة من آخر الشارع إلى الفيلا قبل أن تتوقف أما بوابتها الحديدية لتهبط منها سيدة في أوائل الأربعينات من عمرها، جميلةً رقيقةً تُعرَف في الأوساط الراقية باسم السيدة إحسان... الحقيقية!

****

توقفت سيارة من نوع " رولز رويس " أمام إحدى شركات حسن علوان للحديد والصلب وأسرعَ سائقُها بفتح بابها الخلفي وهو ينحني أمام راكبها الوحيد الذي يجلس في مقعدها الخلفي وفي يده سيجارٌ كوبيٌّ فاخرٌ، هبط من السيارة وهو يضع على عينيه نظارة شمس من نوع (Ray-Ban)، كان يرتدي حُلّة بيضاءَ كاملةً ورباطَ عنقٍ أحمرَ اللون وحذاءً أبيضَ اللون مصقولاً، أما شعره فكان أسودَ فاحمًا مصففًا بعناية، وقامَتْ وسامَتُه بإضفاء مظهرٍ رائعٍ للفخامة والهيبة في الوقت نفسه.

عَبَرَ باب الشركة وهو يلقي تحيّة الصباح على العاملين في الشركة من رجالٍ ونساءٍ حين قاموا عن مكاتبهم ليصطفّوا في صفين على اليمين واليسار ولينحنوا نصف انحناءةِ تحيةٍ لوليِّ نعمتهم الأستاذ (مهند) الذي ورث كل شركات والده بعد وفاته باعتباره وريثه الوحيد.

كانت أوامر مهندٍ صارمةً لكل العاملين في جميع شركاته بضرورة الترحيب بقدومه بهذا المنظر الذي يُرضي غروره.

صعد إلى الطابق الأخير من الشركة حيث مكتبه الذي يحتل الطابق بأكمله، استقر خلف مكتبه المصنوع من خشب الأبانوس الرائع، التقط سمّاعة هاتفه الخاص وطلب رقمًا قصيرًا ثم ألقى أوامره مباشرة قبل أن يضع السماعة، وما هي إلا دقائق حتى طرق أحدهم باب الحجرة فأمره مهند بالدخول، دخل الحجرة رجل متينُ البنيان ألقى تحية الصباح على مهند الذي أجابه بغطرسة، فوضع الرجل ملفًا ضخمًا أمام مهند وفتحه وهو يقول:

- البوسطة يا أفندم.

أشار إليه مهند بيده قائلاً:

- بعدين مش دلوقتي، إبعت لي سعد حالاً.

أغلق الشاب الملف على الفور وهو يقول:

- تحت أمرك يا أفندم.

غادر المكتب على الفور ولم تمض خمسُ دقائق حتى كان سعدٌ، الذراعُ الأيمنُ لـ(مهند) يقف أمامه وعلى وجهه ابتسامةٌ منافقةٌ ويقول:

- صباح الخير يا باشا.

تراجع مهند في مقعده وهو يبتسم قائلاً:

- صباح الخير يا سعد، ها إيه الأخبار؟!! عملت إيه؟!!

أخرج سعدٌ من جيبه ورقةً صغيرةً، وأخذ يقرأ ما فيها ببطء قائلاً:

- ماساندرا شيري ١٧٧٥، بـ ٤٣,٥٠٠ دولار.

شاتولا فيت ١٧٨٧ بـ ١٦٠,٠٠٠ دولار.

شاتودويوكيم ١٧٨٧ بـ ٥٦,٥٨٨ دولار.

شاتومانونروتشيلد ١٩٤٥ بـ ١١٤,٤١٦ دولار.

دي أفضل وأغلى الخمور في العالم[1] أنا اتفقت عليهم وهيكونوا موجودين في القصر بعد ساعة من دلوقتي.

قال مهندٌ وهو يهز رأسه برضا:

- جميل جميل، إنت عارف إني ما بشربش أي خمور يا سعد، دي أمزجة.

ضحك سعد وقال:

- طبعًا يا باشا ومزاجك عالي زي مقام حضرتك بالضبط.

بادله مهندٌ الضحكَ قبل أن يقوم من مكانه ويضع يده على كتف سعد ويقول:

- أنا هروح على القصر دلوقتي أستنى المجموعة الجميلة دي، إنت عارف إني لازم أبدأ يومي بالخمر علشان اليوم يبقى جميل.

قال سعد بنفاق:

- ربنا يجعل كل أيامك سعيدة يا باشا، أنا هجيبهم لحضرتك بنفسي لغاية القصر.

ربّتَ مهندٌ على كتف سعد وقال:

- ومكافأتك جاهزة كمان يا سعد.

انحنى سعد وقال:

---

(١) حقيقة

- مكافأتي، إني أشوفك سعيد يا باشا.

شكره مهندٌ وغادر الشركة إلى قصره لينتظر الهدية، كانت هذه هي حياته؛ لا يأتي الشركة إلا نادرًا ولا يتكلم إلا عن آخر أخبار الخمور حول العالم، الخمرُ على رأس أولوياته، الخمر أهم من الشركات والقصور، الخمر في المقام الأول، لذلك كان ينتقي الخمر قبل أن يتناوله، وعلى الرغم من الأضرار التي تسببها الخمور إلا أن مهندًا كان يمارس الرياضة ويتناول غذاءً سليمًا كي يحافظ على صحته وكيلا يتأثر بكثرة تناوله للخمور.

لم يتزوج على الرغم من تجاوزه لسن الثلاثون، ولم يفكر حتى في أن تكون له زوجةٌ وأسرةٌ، فعندما يشتاق للنساء كان يطلب من طارق أن يرشح له امرأة بمواصفات معينة كي يقضي معها شهوته قبل أن يعود إلى حبيبة قلبه، إلى الخمر، التي يجد فيها ملاذه وراحته، فهي التي تخرجه من عالمه الذي يعيش فيه إلى عالم من السحر والخيال.

ذهب إلى القصر الذي يعيش فيه وحيدًا بعد وفاة والده ووالدته ودخل إلى غرفة نومه فخلع ملابسه ثم استلقى على السرير ليغفوَ قليلاً قبل قدومِ سعدٍ، ولكنه لم يكدْ يضع رأسه على المِخدّة حتى سمع صوتَ طرقاتٍ على باب الحجرة وصوت خادمه يخبره بقدوم رجله الأول سعد، فَعَقَدَ حاجبيه وهو يتساءل كيف وصل سعد سريعًا إلى القصر؟!! لكنه قرر أن يستمع إلى الإجابة من سعدٍ نفسه، فارتدى رُوبَه المنزلي

الأنيق وهبط درجات سلم القصر ليجد أمامه سعدًا وعلى وجهه نفس الابتسامة المنافقة التي أصبحت ملتصقةً وثابتةً على شفتيه، فبادره مهند قائلاً باستغراب:

- لحقت تجيب الحاجة وتيجي؟!!

أجابه سعد قائلاً:

- بمجرد ما حضرتك مشيت الناس كلموني وقالوا لي إن الحاجة جاهزة، رحت جبتها وجيت على هنا على طول علشان أفاجئ حضرتك بيها.

ابتسم مهندٌ وهو ينظر إلى الصندوق الصغير الموضوع بجانب سعد، وقال وهو يشير إليه:

- هي دي؟!!

أومأ سعدٌ برأسه موافقًا وهو يلتقط زجاجةً من الزجاجات الأربعة ويناولها لمهند قائلاً:

- شوف بنفسك يا باشا.

التقط منه الزجاجة وتأملها بإعجابٍ وهو يقرأ تاريخ صناعتها قبل أن يبتسم لسعد في رضا ويشير له فأعطاه زجاجةً أخرى ليتأكد من الأربع زجاجات ثم وضع يده في جيب روبه وأخرج رزمةَ نقودٍ كبيرةٍ أعطاها لسعد الذي تناولها بلهفة، ثم أخرج مهند من الجيب الثاني للروب شيكًا مصرفيًّا أعطاه أيضا لسعد وهو يقول:

- الفلوس دي ليك، والشيك ده حساب الهدية الجميلة دي.

رفع سعد يده فوق رأسه لتحية مهند وهو يقول بأنفاسٍ لاهثةٍ:
- ربنا يخليك يا باشا، وما يحرمنا من كرمك.
أشار إليه مهند بالانصراف كي ينفرد بزجاجاته التي لا يحيا إلا بها، أما سعدٌ فقد انصرف على الفور، ولم يكد يخرج من القصر حتى حدث أمرٌ يشيب له الولدان، لقد انفصل عن سعد طيفٌ خفيفٌ اتجه عائدا إلى بوابة القصر أما سعدٌ فقد تجمّد في مكانه لثوانٍ وهو يَتَلَفّتُ حوله بعد أن شعر ببرودةٍ مباغتةٍ تسري في أوصاله على الرغم من حرارة الجو في هذا اليوم الصيفيّ ولكنه لوح بيده في ضجر وانطلق إلى وجهته، أما الطيف فقد تحول إلى طفلةٍ صغيرةٍ رقيقةٍ، طفلة تدعى (ميلا).

****

نادى مهندٌ على خادمه النوبيّ وأمره بحمل صندوق الخمر إلى حجرة المكتب، فحمله الخادم على الفور يتبعه سيده الذي أمره بالإسراع لإحضار كوبٍ وثلجٍ، فانطلق الخادم لتنفيذ الأمر في الوقت نفسه الذي جلس فيه مهندٌ خلف مكتبه وأخرج الزجاجاتِ الأربعة ليفتح أولها ويتذوقها بطرف شفتيه كأنه يقبّلها قبل أن يرفع حاجبيه بإعجابٍ ثم فعل الفعل نفسه مع الزجاجات الثلاثة الأخرى، في ذلك الوقت دخل الخادم ووضع الكوب والثلج أمام سيده قبل أن ينصرف، أما مهند فقد صنع كوكتيلاً من الزجاجات الأربعة في كأس واحدة وأضاف إليها مكعبين من الثلج ثم تراجع بظهره إلى الخلف وهو يرتشف كأسه ببطء وتلذذ.

ومع آخر قطرة من الخمر نزلت جوفه، شعر بارتفاع شديد في درجة حرارته ولقد نسب ذلك إلى حرارة الجو وتأثير الخمر ولكن في هذه المرة كانت الحرارة غير محتملة فاتسعت عيناه عن آخرهما ليرى أمامه (ميلا) الصغيرة وهي تنظر إليه وتبتسم بشراسةٍ غيرِ عادية ثم رفعت ذراعها الأيمن أمامها ليستطيلَ ويتحولَ إلى سوطٍ قويٍّ ضربته في الهواء ليحدث فرقعةً قويةً قبل أن تضرب به رأس مهندٍ بقوة، فصرخ عاليًا مع الضربة المباغتة ثم عاودت (ميلا) الكَرّةَ مرّةً أخرى ولكن على شقّ مهند الأيمن وبالتحديد على منطقة الكبد ثم كانت الضربةُ الأخيرةُ على صدره قبل أن تتوقف تمامًا وتتراجع إلى الخلف لترى نتيجة عملها.

أما مهند فقد زاغت عيناه من شدة الألم والرعب؛ فمع الضربة الأولى على رأسه أطلق المخ المئات من الشحنات الكهربية التي انطلقت على الفور في كل خلية من خلاياه، ثم مع الضربة الثانية انتفخ الكبد عن آخره قبل أن ينفجر داخل جسده ليندفع دمٌ أسودُ اللونِ من فمه، فعلى الرغم من أن الكبد من الأعضاء التي تستطيع بناء نفسها مرة أخرى ويعيد هيكلة خلاياه مرة أخرى[1] إلا أن ضربة (ميلا) لم تمهله القدرة على بناء نفسه فقد كانت ضربتها أسرع منه، ثم كانت الضربة الثالثة والقاضية على صدره وبالذات على القلب الذي ارتفعت دقّاتُه لتصل

(١) حقيقة علمية

إلى ١٠٠٠ ضربة في عدة ثوانٍ[١] قبل أن يتوقف فجأة ليُحدِثَ أمرًا في منتهى الغرابة؛ لقد انطلقت الشحنات الكهربية من المخ لتمتزج مع الدماء المندفعة من كبد مهند وكذلك الباقي منها في الشرايين والأوردة التي كانت دائمًا ما يجرى فيها الخمر بدلاً من الدماء لتشتعل دماء مهند كلها دفعة واحدة ويشتعل معها جسده بالكامل في لحظة واحدة حتى إنه لم يجد فرصة واحدة كي يصرخَ أو يستنجدَ بأيّ أحد في القصر، وعندما جاء الخادم النوبيّ كي يطمئنّ على سيده كما يفعلُ كلّ مرةٍ، ويَحملُه إلى حجرته بعد تناوله للخمر وجد أمامه وليّ نعمته وقد تحول إلى هيكل عظميّ يكسوه لحمٌ محترقٌ وانتشرت في المكان رائحة شواءٍ مقززة، شواءِ لحمٍ من لحوم الأغنياء.

****

(١) متوسط ضربات قلب الإنسان فى الحالة العادية ٧٠ ضربة فى الدقيقة وتزداد أثناء ممارسة الرياضة أو الخوف الشديد أو الفرح الشديد

انطلق قطارُ الولايات المتحدة الأمريكية السريعُ الذي تصل سرعتُه القصوى إلى ١٢٠٠ كم/ س ليصير أسرع قطارٍ في العالم في نسخته الأولى التجريبية للجمهور[١] وتراجع عبد العزيز في مقعده بهدوء وسكينة، كان دائمًا يبحث عن الرفاهية والمتعة فقرر الذهاب إلى أمريكا على متن أحدث قطاراتها لإتمام بعض الصفقات مع إحدى الشركات الهامة هناك، كانت الشركة الأولى في تصدير الملابس والأقمشة إلى مصر، وباعتبار شركات عبد العزيز ذات صدارة في عملية الاستيراد من أمريكا، كان يُصرّ على إتمام هذه الصفقات بنفسه دون غيره من كبار رجال الأعمال في شركاته، ولقد ذاع صيته في نيويورك نظرًا لطلاقته باللغة الإنجليزية ولحلاوة لسانه وللباقته في الحديث، فأصبح الرجل الأول عند الأمريكان.

وفي طريقه لإتمام أهم الصفقات في حياته لم ينسَ عبد العزيز مزاجه

(١) حقيقة، حيث تجري التجارب الفعلية على هذا القطار في أمريكا في هذه الأيام.

فأخرج تذكرة "هيروين" صغيرة من جيب سترته الداخلي ونظر إليها بشوقٍ ولهفةٍ قبل أن يضعَها مرةً أخرى في جيب سترته، كان يحرص دائمًا على وجودها في أيّة مواصلات يرتادها. وقف في مقصورته الخاصة، خلع سترته وألقاها بإهمال على المقعد الذي أمامه ثم جلس بهدوء وأغلق عينيه وسرح بأفكاره إلى زمان بعيد، يوم أن عاد من روسيا بعد أن ارتكب جريمته هو وأصدقاءه هناك، ثم رجع إلى مصر هاربًا مِمّا اقترفت يداه من آثام أدّت إلى حسرة والدِه عليه قبل أن يتوفاه المولى عز وجل ويترك له كل ثروته وشركاته وعقاراته بهدف إعطائه فرصة أخيرة كي يعود إلى رشده ويستعيد حياته مرة أخرى، ولقد أخطأ الأب مرة أخرى بإعطاء هذه الفرصة لعبد العزيز، فعبد العزيز قد باع نفسه للشيطان منذ فترة طويلة، عقد عهدًا مع الشيطان على اقتراف كل الآثام والشرور فباتت نفسُه كالبيتِ الخَرِبِ، لا يصلح معها أي إصلاح.

سنواتٌ ليست بالقليلة مرت عليه منذ عاد من روسيا، تولى من بعدها زمام الأمور بعد وفاة والده، حاول أن يدير شركات والده كما كان يديرها هو ولكنه فشل، لولا صديق والده "الحاج فرغلي أبو شامة" الذي وقف بجانب عبد العزيز وقفة الرجال في الشدائد بجانب أصدقائهم، فأخبر عبد العزيز بكل أسرار الشركة التي ائتَمَنَهُ عليها صديقُ عمره "الحاج حنفي الإسناوي"، ذلك لأن الحاج حنفي لم يكن له إخوةٌ أشقاءُ ولا غيرُ أشقاءِ، كان كما يقول المثل القديم "مقطوع من شجرة" لذلك عدّ الحاج فرغلي أخاه الذي لم تلده أمه.

ولكنّ عبد العزيز كان قد عزم على إضاعة أموال والده على ملذاته وشهواته، فبات يبعثرها يمينًا ويسارًا بلا مبالاة، ولكن الحاج فرغلي أخذ يبني مرة أخرى كل ما هدمه عبد العزيز حتى عاد إلى رشده وترك كل ما كان يفعله من شرور وآثام، إلا شيئًا واحدًا لم يستطع تركه أو التنازل عنه؛ مزاجه!

كان لا يستطيع العيش دون مِزاج، ومِزاجُه كان المخدرات بجميع أنواعها؛ بدايةً من الحشيش والأفيون الخام والماريجونا والبانجو ونهاية بالهيروين الخام (البودرة)[1] الذي كان لا يغادر جيبه أبدًا سواءً في سفره أو في إقامته .

وعندما تذكر الهيروين في غفوته، فتح عينيه ثم تثاءب بعمق، وفَرَدَ ذراعيه أمامه بكسلٍ قبل أن يلتقط سترته مرةً أخرى ويخرجَ تذكرةَ الهيروين ثم يضعَها أمامه ويفتحَها ويخرجَ محتوياتِها على المنضدة الصغيرة أمامه ثم يلملمها بإصبعه بنظام حتى أخذت شكل سطر صغير، وضع أنفه على أوّل السطر ثم سحب السطر بأكمله حتى اختفى من أمامه ليسكن في خلايا مخه الذي انتفض بعنف مع هذه الجرعة الصباحية المباغتة فأخذ يرسل نبضاتٍ عصبيةٍ إلى باقي أجزاء وخلايا جسم عبد العزيز الذي انتفض بعنفٍ هو الآخر فزاغت عيناه قبل أن يبتلع ريقه ويبتسم بنشوةٍ وسعادةٍ وهو يغمض عينيه باستمتاع، ثم يفتحَهُما ببطء ليجد

(١) يعتبر الهيروين والأفيون الخام والماريجونا من أخطر أنواع المخدرات على الجهاز العصبى

أمامه تمامًا وعلى بعد مترين فقط فتاةً صغيرةً جميلةً رقيقةً تبتسم بحنان فعقد حاجبيه وهو يتساءل: "من أتى بهذه الطفلة إلى هنا؟"

ولكن حالة الاضطراب الذهني التي كان يعيشها في هذه اللحظات حالت دون إجابة لهذا السؤال، فاعتدل في مكانه ومد يده يحاول لمس الفتاة كي يتأكد هل هي حقيقةٌ أم وهمٌ يعيش فيه بسبب جرعة الهيروين التي أخذها منذ دقائق، لامست أنامله كتف الفتاة التي تحولت في لحظاتٍ إلى تلٍّ صغيرٍ من النمل، بل من أخطر أنواع النمل في العالم على الإطلاق، النمل المعروف علميًا باسم (الموتوموريوم) أو النمل السفاح[1].

وذلك لأن كل خليةٍ من خلاياه تحمل أشد أنواع السموم على وجه الأرض حيث إن كميةً قليلةً من هذا السم كفيلةٌ بإبادة قبيلةٍ كاملة من حشرة القرضة والحشرات الأخرى في ثوانٍ معدودة[2]، تراجع عبد العزيز برعبٍ وهو يرى جحافل النمل التي ملأت الكابينة بسرعة البرق قبل أنْ تنقض عليه بأكملها وتنشب مخالبها الصغيرة في جسده ثم تدفع بِسُمِّها القلوي الكاوي في كل سنتيمترٍ من جسد عبد العزيز، ولأن الإنسان له جلدان[3] أعلاهما حمضي التأثير فقد تفاعل مع المادة القلوية المكوّنة لِسُمّ النمل ولم يؤثر في عبد العزيز، ولكن كان للسُمّ

(١) حقيقة علمية

(٢) اكتشف الباحث الفرنسي (جان لوك كليمنت) أنه يكفي واحد من المائة جرام من سم الموتوموريوم لقتل ست حشرات من نوع القرضة وتقوم النملة بمهمتها بسرعة بالغة.

(٣) كل إنسان له جلدان: الجلد الأول هو الخارجي وهو حمض التأثير ليحمي الجسم من تكون الخلايا البكتيرية الضارة أما الجلد الآخر فيحمى المكونات الداخلية من جسم الإنسان.

تأثيرٌ آخرُ كتأثير المورفين والهيروين لذلك فقد تسللت هذه المخدرات ببطء إلى كل خلية من خلايا عبد العزيز لتتضاعف المادة المخدرة في دمه إلى أعلى معدلاتها، ومع إفرازات المخ الطبيعية للمخدر[1] أصبح جسد عبد العزيز مصنعًا هائلاً للمُخدِّرات بجميع أنواعها فانطلق يصرخ وهو يهرش جميع أجزاء جسده محاولاً قتل جيوش النمل التي تفتك به بلا هوادة، فتح باب الكابينة وانطلق يصرخ في القطار بهستيريا رهيبة وهو يمسك بهذا ويتشبث بذاك، حتى اندفع نحو أبواب القطار يحاول فتحها ولكنها كانت مغلقة بأكملها برتاج إلكتروني لا يفتح إلا في حالات الطوارئ القُصوى، فاندفع نحوه اثنان من حراس أمن القطار يحاولان تهدئته ولكنه أخذ يدفعهما بيده وهو يصرخ بملء فيه بلغة أمريكية خالصة:

- النمل، النمل هيموتني.

تلفت الحارسان حولهما في حيرة وانحنى أحدهما عليه ليفحصه ويقول:

- اهدأ، مفيش نمل ولا حاجة.

لم يلتفت إليه وهو يواصل الصراخ بأعلى صوته فاندفع أحد الحارسين إلى زر الطوارئ وضغطه بقوة ليبدأ القطار بالتهدئة من سرعته قبل أن يتوقف تمامًا وتُفتَح أبوابُه كلُّها دفعة واحدة، ليندفع عبد العزيز عبر أحدها بسرعة ليقفز من القطار، مع لحظة مرورِ قطارٍ آخر من الاتجاه

(١) يقوم المخ بإفراز مادة مخدرة تسمى الأندروفينات تشبه المورفين كي تقوم بتخفيف الآلام عن الإنسان المريض.

المعاكس بسرعته القصوى ليصدم جسد عبد العزيز ويحوله في لحظات إلى كومة من اللحم المفروم والعظام المهشمة، تجمهر الناس عند كل أبواب القطار المفتوحة يقتلهم الفضول لرؤية هذا الحادث الشنيع، ومن بين الركاب وقفت طفلةٌ صغيرةٌ تتطلع إلى ما تبقى من جثة عبد العزيز بشماتة قبل أن تستدير لتغادر القطار بهدوء قبل أن تختفي تمامًا لتظهر هناك... في روسيا.

****

وقفت (ميلا) بجانب خالتها بهدوء وفي عينيها نظرةٌ ظافرةٌ بعد أن أتمّتْ مُهمتها التي أسندتها إليها (نيرفانا) على أكمل وجه، لقد انتقمت لوالدتها من الشياطين الثلاثة الذين هتكوا عِرْض أمها وفروا هاربين إلى مصر، مصر التي تبرأت منهم ومن فعلتهم.

نظرت (ميلا) إلى (نيرفانا) ولسان حالها يقول:

- انتقمت!

ابتسمت خالتها ثم التفتت إلى سامح و(شلينكو) وقالت:

- الدور عليكم.

أطلّ الخوف بكل معانيه من عيون سامح و(شلينكو) بعد أن شاهدا نهاية الأشقياء الثلاثة الدامية وارتجف قلب سامح بين ضلوعه وارتعدت فرائص (شلينكو) وهو يتخيل طريقة موته فالتفت إلى والده

لعله يجد عنده الخلاص مما هو فيه فوجده في حالة يُرثى لها من التعب والإرهاق، أما سامح فنظر إلى منال ليجدها فاقدة الوعي، فالتقط نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى (نيرفانا) مرة أخرى وقال بثبات:

- أنا تحت أمرك، بس أهم حاجة منال تكون بخير.

أطلقت (نيرفانا) ضحكةً عاليةً ساخرةً، وهي تتحرك في المكان بخيلاء قبل أن تلتفت فجأة إلى سامح وتقول بشراسة:

- إنت فاكر الموضوع سهل كده، إنت هتشوف العذاب ألوان.

شَدّ سامح قامته وقال بثبات:

- أنا روحي فداء لمنال.

عقدت (نيرفانا) حاجبيها بغضبٍ هادرٍ وقالت من بين أسنانها:

- أفهم من كده إنها أغلى حاجة عندك في الدنيا.

أجاب سامح على الفور:

- أكيد.

صمتت قليلاً ثم قالت:

- وأنا كمان أختي اللي ماتت كانت أغلى حاجة عندي في الدنيا ومع الأسف إنت كنت سبب في إنها ما تِتْمَتّعش بحياتها، علشان كده لازم (زوشا) ترجع وتكمل حياتها.

اندفع سامح قائلاً:

- ترجع إزاي؟ إنتي مجنونة، (زوشا) ماتت، ماتت ومستحيل ترجع تاني.
انقضّتْ عليه (نيرفانا) ولطمته بكفها لطمة قوية ألقت به مترين إلى الخلف ثم أطلقت صرخة غضب هائلة ارتجف لها كل من في المكان حتى إن سامح و(شلينكو) قد وضعا أيديهما على أذنيهما لحمايتهما من هذه الصرخة الرهيبة التي أطلقتها (نيرفانا) لتخرج بها كل ما فى صدرها من غضب ولوعة وحزن على أختها الوحيدة التي فقدتها وهي في ريعان شبابها.

صمتت (نيرفانا) فجأة، فتهاوى (شلينكو) أرضًا في إعياءٍ شديدٍ وحاول سامح أن يقوم من مكانه بصعوبة وهو ينظر إلى (نيرفانا) بغضب شديد ولكنها التَفَتَتْ إليه وقالت:

- أختي هترجع تاني، وإنت اللي هترجعها.

قال سامح باستنكار:

- أرجعها أزاي؟!! ممكن تقولي لي.

أشارت إليه وإلى (شلينكو) فانتفض كلاهما واقفيْن وكأنّ يدًا عملاقة قد دفعتهما للوقوف أمامها قبل أن تقول:

- هتغير التاريخ.

مد سامح رقبته إلى الأمام وقال بدهشة:

- أغير التاريخ !! إزاي؟!! ده مستحيل !!"

لوّحتْ (نيرفانا) بيدها بعصبية وقالت:

- مفيش مستحيل، هتغير التاريخ علشان التاريخ اللي ماتت فيه هو كمان يتغير.

هز سامح رأسه وهو غير مصدق لكلام (نيرفانا) وحاول أن يتكلم ولكن (نيرفانا) قاطعته قائلة:

- هَنْقُلَكْ عبر الأزمان وهتبذل كل جهدك علشان تغير التاريخ وهتصلح الأخطاء اللي الناس وقعوا فيها واتغيّر بسببهم تاريخ العالم كله.

ابتسم (شلينكو) في فرح وقال:

- أخيرًا، عرفتي إني ماليش ذنب في كل اللي بيحصل هنا.

بادلته الابتسام وهي تقول:

- مين اللي قال كده، إنت هتدفع تمن اللي أبوك عمله.

تكلم سامح في هذه اللحظة قائلاً:

- طب ممكن أعرف هتنقلينا لأماكن مختلفة وأزمان مختلفة إزاي.

أشارت إليه (نيرفانا) وقالت بلهجة آمرة:

- مش شغلك، كل اللي هتعمله إنت والأخ العزيز (شلينكو) هو حل المشكلة اللي هتلاقوها في الزمن اللي هتروحوا فيه، وكمان عدم الوقوع في الخطأ اللي غَيّر التاريخ للأسوأ، وخلي بالك! لو قدرت تحل كل مشكلة هتواجهك من المشاكل الخمسة اللي عذبت كتير جدًا

من الناس. في التوقيت ده هتنقذ جزء من جسد منال مراتك وحبيبتك.
(ثم أشارت بإصبعها إلى (شلينكو)) وقالت:
- وإنت كمان لو ساعدته ونجحت معاه هتنقذ جزء من والدك.
سألها (شلينكو) بلهفة:
- والمفروض إننا نعالج كام خطأ وكام مشكلة؟!!
تحركت (نيرفانا) في المكان بعظمة وقالت بلهجة الواثقة من نفسها:
- في خمس أخطاء غيرت مجرى التاريخ، الأخطاء دي حصلت في خمس حقب زمنية مختلفة، خمس أخطاء بخمس أجزاء من الجسم.
(ثم أشارت إلى (ميلا) بكفها دون أن تتكلم فتحركت بآلية نحو منال ثم أخرجت دمية صغيرة من القش ثم أخرجت من جيبها قلبًا صغير الحجم ما إن أمسكته بيدها حتى بدأ ينبض بقوة فوضعته في منتصف صدر الدمية ثم ضغطت عليه ببطء فشهقت منال بعنف وأخذت تلهث بقوة قبل أن ينتصب جسدها بخمسة أغلال قوية من الجليد تقيد يديها وقدميها والأخير يضغط على رقبتها من الخلف ثم استدارت إلى (دوروف) والد (شلينكو) وفعلت معه مثلما فعلت مع منال ثم استدارت ووقفت بهدوء تنتظر أوامر (نيرفانا) التي ابتسمت برضا وقالت:
- مع كل خطأ هتعالجوه وكل مشكلة هتحلوها ينفك قيد من أعز الناس عندكم، منال و(دوروف)، لكن لو ما عرفتوش تعملوا حاجة وفشلتم،

مع كل فشل منال هتفقد جزء من جسمها المقيد و(دوروف) هيفقد نفس الجزء لغاية ما تنتهي حياتهم كلها.

أطلّ العزم والتصميم من عيني (سامح) و(شلينكو) فقام كل واحد من مكانه وتكلم سامح أولاً قائلاً:

- روحي فداءٌ لمنال.

ثم تكلم (شلينكو) بحماس وقال:

- وأنا عمري ما أسيب والدي في موقف زي ده.

ابتسمت (نيرفانا) بسخرية وقالت:

- أتمنى إن روح التصميم والعزيمة دي تفضل للنهاية.

ثم ضمّت قبضتها اليمنى وفردت سبابتها وهي تقول بقوة:

- المهمة الأولى والخطأ الأول كان السبب في انتشار مرض من أخطر الأمراض قديمًا، مرض الطاعون اللي كان السبب في هلاك ثلث سكان أوروبا ومن قبلهم قضى على نصف سكان الصين.

تراقصت ابتسامة خبيثة على شفتيها وهي تقول:

- المطلوب منكم منع الخطأ قبل وقوعه ولو فشلتم يبقى تحاولوا تدوروا على حل للمشكلة، ولو فشلتم في حل المشكلة هتواجهوا نفس المصير اللي واجهته الشعوب في الصين وأوروبا كلها.

ثم اقتربت منهما وقالت:

- الموت!

استدارت فجأة وأَوْلَتْهُما ظهرها وهي تقول:

- أو الموت البطيء لأعز الناس بالنسبة لكم.

قال سامح و(شلينكو) بصوت واحد:

- إحنا جاهزين.

وكانت هذه هي البداية...

بداية الرحلة...

رحلة الهلاك.

****

الجزء الثاني

عَقَدَ الرائدُ "حسام شاكر" ذراعيه أمام صدره وهو يتابع رجالَ المباحث الجنائية وهم ينقلون جثة طارق من الحمام إلى الكيس الجلديّ الكبير المخصص لنقل الموتى، لقد كان في طريقه لقضاء سهرة جميلة مع خطيبته التي قلما كانت تخرج معه، إما بسبب انشغاله الدائم أو بسبب دراستها التي تأخذ أغلب وقتها، لذلك فقد شعر بضيق شديد عندما تلقى اتصالاً من رئيسه المباشر يأمره بالذهاب إلى فيلا طارق لوجود جريمة قتل فيها.

لبّى حسام النداء بعد أن تحدث هاتفيًّا إلى خطيبته واعتذر لها، فثارت عليه قبل أن تغلق الهاتف معلنةً الخصام لمدة لا تقل عن أسبوعين، أو أكثر. لذلك فقد وقف يتطلع إلى الجثة بنصفِ عقل حتى جاءه خبير الطب الشرعي وبدأ يسرد عليه التقرير الأوّليّ للجريمة قائلاً إن الجثة لذكر، في الخامسة والثلاثين من عمره، لا آثارَ مقاومة على الجثة،

سبب الوفاة: الغرق.

التفت إليه حسام وقال بحدة:

- يعنى إيه مفيش مقاومة؟؟

جَفَلَ الخبير من أسلوب حسام الحادّ وقال بصوت خافت:

- مفيش أيّ أثر للمقاومة، ممكن القتيل كان بيستحم وبعد كده إتزحلق ووقع ومقدرش يتمالك نفسه فغرق، وبعدين ده التقرير الأوّليّ، لسه في تشريح للجثة، وده هيغير كتير من الكلام أو يأكده.

تركه حسام يكمل كلامه ثم تحرك في أرجاء الحمام وهو ما يزال عاقدًا ذراعيه قبل أن يفردهما ويستند على حافة البانيو ثم يتطلع إلى المياه بتركيز شديد قبل أن يعقد حاجبيه ويشير إلى أحد أفراد المعمل الجنائيّ الذي أتاه على الفور فأشار بسبابته إلى سطح الماء وقال:

- إيه ده؟

تطلع الرجل إلى الخيوط الرفيعة جدًا التي تحيط ببقعةٍ صغيرةٍ على سطح الماء، فالتقطها في أنبوبة اختبار صغيرة واتّجه إلى (ميكروسكوب) صغيرٍ في أحد الأركان وتطلع إليها لثوانٍ ثم التفت إلى حسام وقال:

- سائل منويّ.

ردّدَ حسام الكلمة ببطءٍ وهو يفكر في أول خيوط القضية:

"وجود سائلٍ منويٍّ في البانيو ليس له إلا تفسيران لا ثالث لهما: إما

إن القتيل كان إنسانًا شاذًّا، وإما أنّه كان بصحبةِ امرأة، وهي التي قتلته، ومن المُؤَكّد أن تكون هي المرأة نفسها التي أَدْلى بأوصافها الحارسُ الخاصّ للقتيل بعد أن خرجت مسرعةً من الفيلا بعد دخولها بعدة دقائق لتستقل سيارةً كانت بانتظارها أمام الفيلا، وعندما شك الحارس بها، دخل إلى الفيلا ينادي على سيِّده فوجده قتيلاً في البانيو، فأجرى اتصاله على الفور برجال المباحث الذين لبّوا النداء على الفور."

ابتسم حسام ابتسامة الواثق من نفسه وقال لرجال البحث والمعمل الجنائي الذين يملأون المكان:

- خدوا كل اللي يلزمكم من المكان، علشان هنكمل شغلنا في الإدارة.

ألقى أوامره ثم ترك المكان وذهب إلى الحارس الخاص للقتيل وقال:

- قلت لي اسمك إيه؟

أجابه الرجل على الفور قائلاً:

- ماهر يا أفندم.

هزّ حسام رأسه وقال:

- إنت فاكر أوصاف الست اللي شفتها يوم الحادثة؟

أجابه الرجل قائلاً:

- هي كانت لابسة طرحة كبيرة وشال، وكانت مغطية وشّها علشان محدش يتعرف عليها لما كانت داخله للبيه -الله يرحمه-، لكن وهي

خارجة كانت بتجري فالطرحة نزلت من على وشها وقدرت أشوفها.

وضع حسام يده على كتف ماهرٍ وسار معه لخطواتٍ قليلةٍ، ثم قال:

-إلّا قول لي يا ماهر، هو البيه كان ليه علاقات نسائية قبل الست دي؟

تكلم ماهر قائلاً بصوتٍ خافتٍ وهو يقترب من حسام:

- أيوه يا باشا، البيه كان كل أسبوع ليه واحدة شكل، كانت تيجي لُهْ ويدّينا أوامر بإننا ندخلها على طول، بكلمة سر معينة.

أفتَرّ ثَغْرُ حسام عن ابتسامةٍ ساخرةٍ وهو يردد قائلاً:

-كلمة سرّ معينة.

أكمل ماهر حديثه قائلاً:

- أيوه يا باشا، البيه كان حريص جدًا، لكن أَجَلُه انتهى لحد كده.

نظر إليه حسام وقال بصرامة:

- وكلمة السر المرّة دي كانت إيه؟!!

أجابه ماهر بجدية:

- آيس كريم بالكراميل.

صمت حسام وهو يتطلع إلى ماهر، ثم قال:

- طب إحنا هنستدعيك علشان ناخد أقوالك وكمان علشان تقول لنا أوصاف الست اللي شفتها للرسام علشان نقدر نعرف هي مين.

رفع ماهر يده بالتحية العسكرية، ثم قال:

- تحت أمرك يا باشا.

أشار إليه حسام بالانصراف، فانصرف على الفور قبل أن ينظر إلى الفيلا من الخارج ويقول في قرارة نفسه:

"يا ترى إيه الدافع للقتل؟!!"

ولو أنّه سأل نفسه هذا السؤال ملايين المرات فلن يحصل على إجابة، لأن إجابة هذا السؤال توجد هناك...

في روسيا.

****

الصين عام ١٣٤٧م

ميناء (شنغهاي)

أوشكت الشمس على المغيب، وألقت بما تَبَقّى من أشعتها الذهبية على ميناء (شنغهاي) الدوليّ قبل أن تنعكس على إحدى السفن الثلاث الإيطالية التي رَسَتْ على الميناء لمدة أسبوعٍ كاملٍ استمرَّ خلالها نقلُ البضائع على قدمٍ وساقٍ من أشهر محلاّت العِطارة والعطور في (شنغهاي) إلى هذه السفن التي تستعد للإبحار إلى ديارها في قلب أوروبا، وقف سامح بجوار (شلينكو) يتابعان عملية نقل البضائع باهتمام وهما يرتديان زيَّ البحّارة الإيطاليين، كان سامح قائدًا للسفينة الأولى والمعروفة باسم (صوفيا)، أما (شلينكو) فكان مساعده الأول.

ارتفع صوت (شلينكو) ليَحُثّ العمال على إنهاء نقل البضائع قائلاً:

"الهمة شويَة يا رجالة، عايزين نلحق نتحرك قبل نص الليل."

ارتفعت بعضُ همهماتٍ من العمال تدُلّ على رغبتهم في الرحيل واشتياقهم إلى ديارهم وأهليهم.

ابتسم (شلينكو) الذي تغيّرت ملامحه تمامًا فأصبح يشبه سكانَ مدينة (نابولي) الإيطالية ببشرته القمحية اللون وشعره الأسود الفاحم وقامته

متوسطة الطول، قال وهو ينظر بطرف عينه إلى سامح ويقول:

- كله تمام يا ريّس.

بادله سامح الابتسام، بملامحه التي تحوّلت إلى الإيطالية الخالصة هو الآخر ثم قال له:

- لغاية دلوقتي كله تمام، مفيش أي حاجة حصلت. (نيرفانا) قالت إن مرض الطاعون هيتنقل في أوروبا كلها عن طريق الفئران اللي المفروض دلوقتي تكون نشرت المرض في أغلب المدن الصينية ولازم نمنعها من إنها تنشر المرض في أوروبا، أنا خليت البحّارة يخدوا بالهم من كل المنافذ التي تقدر تدخل منها الفئران للسفينة بتاعتنا، وكمان نبهت القبطان (أميليو) قبطان السفينة (بالينا)، والقبطان (كارلو) قبطان السفينة (كونستانزي) على اللي ممكن يحصل عن طريق الفئران.[1]

هز (شلينكو) رأسه موافقًا وهو يقول:

- تمام، لو قدرنا نمشي من غير الفئران ما تدخل السفينة يبقى بمجرد ما نوصل إيطاليا تكون مهمتنا الأولى انتهت بنجاح وقدرنا ننقذ أبويا ومنال.

لم يَكَدْ (شلينكو) يذكر اسم منال حتى ابتسم سامح قبل أن تتحول

---

(١) في عام ١٣٤٧م دخلت بعض الفئران إلى ثلاث سفن إيطالية كانت راسية في ميناء (شنغهاي) الصيني، وحين وصلت إلى ميناء (مسينا) الإيطالي خرجت منها ونشرت الطاعون في المدينة ثم في كامل إيطاليا، وكان الطاعون قد قضى أصلاً على نصف سكان الصين في ذلك الوقت ثم من إيطاليا انتشر إلى كامل أوروبا، فقتل ثلث سكانها خلال عشر سنوات فقط.

ابتسامتُه إلى حزن عميقٍ لأنه كان السبب فيما يحدث لحبيبة قلبه وزوجته منال، التي سيضحّي بكلّ شيءٍ من أجل سلامتها ونجاتها مما هي فيه، لقد وافق على العرض الذي عرضته عليه (نيرفانا) على الرغم من غرابته واستحالته في الوقت نفسه من أجل منال، لقد قَبِلَ أن ينتقل عبر الأزمان والأماكن كي يحاول تغيير التاريخ من أجلها، من أجل قلبه الذي تركه هناك في قلب ثلوج روسيا، كان يؤمن بأن الحب يصنع المعجزات ويقهر المستحيل، ويشعر أنّه لا يوجد حب في الدنيا بحجم الحب الذي يحبه لمنال، تلك الزهرة البرية التي تفتحت في ثنايا قلبه فبعثت بالنور والأمل في كيانه بأكمله.

ابتسم مرةً أخرى وارتجفت شفتاه عندما تذكر حديثه معها قبل أن ينتقل إلى هذا العصر عندما احتضن كفّها المقيّد بالأغلال وقَبّلَه وهو يهمس لها بحنان:

- ما تخافيش هرجع تاني، علشانك، علشان حبنا.

ابتسمت في وهن وإعياء وقالت بخفوت:

- خلّي بالك من نفسك.

سالت دموعه على وجنتيه مع كلماتها الرقيقة وقال:

- إنتي أهم عندي من الدنيا كلها.

لم يكد ينطق بهذه الجملة حتى أحاطت به وبـ(شلينكو) مجموعة من الأضواء المختلفة التي تدور حوله بسرعةٍ بطيئةٍ نسبيًا قبل أن تزداد

سرعتها لتصل إلى سرعة الضوء[1]، شعر بالغثيان وعندما بدأ يشعر بوعيه يغادر رأسه، خفتتْ سرعةُ الأضواء مرة أخرى وعاد له وعيه تدريجيًّا ليجد نفسه هو و(شلينكو) على متن السفينة (صوفيا) الإيطالية المتجهة إلى ميناء (شنغهاي) حيث يُعدُّ من أكبر الموانئ هناك[2]، فاعتدل في مكانه وتلفت حوله ثم التَقَتْ نظراته مع (شلينكو) بتساؤلٍ ولكنّه لم يجد عنده أيّة إجابة لهذا الأتون المشتعل من الأسئلة، يُحرِق خلايا مخه الرمادية، ولكنه وجد من ينادي عليه من آخر السفينة باسم (ألبا) وينادي على (شلينكو) باسم (بيانكا) فعلم أن هذه هي الأسماء التي اختارتها لهما (نيرفانا) في هذا العصر، فالتفت إلى صاحب الصوت ليجد أمامه رجلاً في العقد الرابع من العمر يخبره أنهم على مشارف مدينة (شنغهاي) الصينية فشكره ثم التفت إلى (بيانكا) بعد انصراف الرجل وقال:

– من دلوقتي لازم ننادي على بعض بالأسماء الجديدة، مش عايز أيّ أخطاء لغاية ما نوصل ونحمّل البضائع وبعد كده نمشي قبل انتشار العدوى.

هز (بيانكا) رأسه موافقًا وقال:

– حاضر. بس هندخل البلد إزاي؟؟ وإحنا المفروض عارفين إن المرض منتشر هناك من فترة.

ابتسم (ألبا) وقال:

(١) سرعة الضوء تساوى ٣٠٠٠٠٠ كم/ ث.

(٢) حقيقة

– مش هنلمس أي حاجة أو حتى نسلّم على أي حد من التجار، وكمان هنلبس كمامات لغاية ما نخلص مهمتنا ونتفق على البضائع ونحملها ونمشي من هنا.

بادله (بيانكا) الابتسام بتوتّرٍ قبل أن يبتلع ريقه ويقول:

– ربنا يستر.

وضع (ألبا) يده على كتف (بيانكا) وضغطه بقوة وهو يقول:

– ما تخافش، إن شاء الله هننجح.

نظر إليه (بيانكا) بنظرة رجاءٍ وأملٍ قبل أن يُشيحَ بوجهه ويبتعد عنه قليلاً وهو ينظر إلى السماء، والتوترُ يكاد يعصف بكيانه، وهو يتساءل هل ستُكتبُ له النجاة في زمن غير زمنه وعلى أرض غير أرضه؟!!

أفاق (ألبا) من ذكرياته على صوت أحد الرجال وهو يقول بصوت جَهْوَريّ: "كله تمام يا ريس، البضاعة إتحمّلت، مش فاضل غير صندوقين جايين دلوقتي مع (كاميليو) و(مايكل)."

ابتسم (ألبا) بارتياح وهو ينظر إلى (بيانكا) الذي اتسعت ابتسامته بدوره قبل أن تتحول إلى ضحكةٍ عاليةٍ مجلجلةٍ، لقد أصبح النصر قابَ قوسين أو أدنى بعد أن ذاق هو و(ألبا) الخوف والرعب لمدة أسبوعين في مدينة (شنغهاي).

أسبوعان من الحذر في التعامل مع أيّ شخص في هذه المدينة الموبوءة حيث كان سكانها يتساقطون كالذباب عندما كان يصاب الواحد منهم

بأخطر أمراض العصر في ذلك الوقت "مرض الطاعون"، الذي لم يكتشف له أيّ علاج أو مَصْلٍ في تلك الفترة من الزمن، كان الإنسانُ المصابُ تظهر عليه الأعراض دفعة واحدة؛ فترتفعُ درجة حرارته ويرتعش ويشعر كأن رأسه ستنفجر من الألم الرهيب الذي يغزو خلاياها ثم يشعر بعد ذلك إنه سيفرغ ما في معدته ثم يحدث له قصور في التنفس وعدم انتظام في ضربات القلب وتشنجاتٍ قبل أن يسقط المريض أرضًا بلا حراك، فيتمّ عزله عن الناس حتى تنتهي أيامه في هذه الدنيا[1]، لقد شاهد (بيانكا) العشرات والعشرات تَحْدُثُ لهم هذه الأعراض قبل أن يلقوا حتفهم، ومع كل حالة يشاهدها يتخيل نفسه في هذا الوضع، لقد كان يتذوّق الموت يوميًا بعينيه فترتجفُ نفسه وتهتزّ روحُه ويدعو الله -عزّ وجل- أن ينجيه من هذه الميتة البشعة، ولقد استجاب الله لدعائه وها هو ينجو من الموت في (شنغهاي)، وما هي إلا ساعاتٌ ويغادرها تاركًا الموت خلفه وكلُّه أمل في الغد، لعله يحمل له خير النجاة من الشرورِ، من كلِّ الشرور.

****

لم يعتدْ (كاميليو) ترك أخيه (مايكل) منذ أن كان صغيرًا، لقد عهد إليه والده قبل وفاته برعاية (مايكل) الصغير الذي ماتت والدته وهي تلده قبل أن يَلْحَق بها والده بعدها بثلاثة أعوام، فنفّذ (كاميليو) وصية والده

(١) كل ما ذكر في هذا الجزء من أعراض مرض الطاعون.

وأسبغ رعايته واهتمامه على أخيه الذي لم يعُدْ يملك من هذه الدنيا إلا حنان أخيه بعد أن تركه والداه في غياهب ودروب الدنيا القاسية كطاحونة لا تُبقي ولا تذرْ كلَّ ضعيفٍ يحاول أن يقف أمامها، مما حدا بـ(كاميليو) تحريم كل متع الدنيا على نفسه حتى يتفرغ لأخيه الصغير، خاصة بعد أن اكتشف أن (مايكل) يَحمِلُ نِصْفَ عقلٍ، نصفَ عقلٍ فقط! أما النصفُ الآخر فمظلمٌ لم يرَ بَريقَ الحياة بعد، لقد كان محدودَ الذكاء، جسدُ رجلٍ وعقلُ طفلٍ صغيرٍ لا يتعدّى الثلاثَ سنواتٍ، لا يستطيع تمييز الخَطِر من الآمِن، لا يرى من الدنيا إلا ما يُرضِي عقله الصغير؛ الطعامَ والشرابَ واللعبَ.

لذلك فقد أحاطه أخوه بحنانه ورعايته وخوفه من أيّ ضررٍ قد يصيبه ولو عن طريق الخطأ، فكان يجهّز له طعامه وشرابه يوميًا ثم يتركه ويذهب لعمله في الميناء حيث يعمل حمّالاً للحقائب والصناديق، عملٌ مرهقٌ لكنّه يوفّر حياةً كريمةً له ولأخيه الذي أصبح هو حياته بأكملها. حتى جاء اليوم الذي عاد فيه إلى المنزل ليجد أخاه (مايكل) قد فتح النافذة ثم ألقى بكل ما في البيت منها وضحكاته تعلو وتعلو، كان يلعب ويلهو بعد أن ملّ من انتظار أخيه الذي لا يعود إلى البيت إلا في المساء فقرر أن يُسلّيَ وقته، وعندما دخل (كاميليو) من باب المنزل لم يجد أخاه فأخذ ينادي عليه وهو يبحث عنه في كل مكان، حتى وجده واقفًا على حافة النافذة يريد أن يَتْبَعَ ألعابه ويقفز من النافذة، أسرع إليه والتقطه

بينما كان (مايكل) يصرخ ويركل أخاه بيديه ورجليه، كان كبيرَ الحجم ضخمَ الجثة فارعَ الطول.

لم يستطع (كاميليو) تفادي ضرباته فتحمّلها حتى هدأ أخوه تمامًا ثم فجأة أُجهِش بالبكاء وهو يحتضن أخاه الذي سالت الدماء من جانب شفتيه، يومها قرر (كاميليو) أن يأخذ أخاه معه إلى الميناء حتى يكون تحت عينيه ورعايته. ثم نصحه أصدقاؤه بأن يعمل (مايكل) معه في الميناء، في البداية رفض (كاميليو) ثم وافق بعد ذلك إثْرِ إلحاح من صاحب العمل، فقد خطر له أن يستغل القوّة الجثمانيّة الهائلة لدى (مايكل) في العمل الشاقّ الذي يتميز به ميناء (نابولي) الإيطاليّ، حتى جاء اليوم الذي زفّ فيه رئيس العمال لكل عمال الميناء خبر إبحار أكبر ثلاثة سفن في إيطاليا إلى الصين لجلب العديد من البضائع الصينية الجيدة في هذه الفترة، فَرِحَ العمال بهذا الخبر وخاصة (كاميليو) إذ وجد في هذه الرحلة فرصةً جيدةً ليحظى وأخاه الصغير بالاستمتاع بأجواء جديدة وزيارة أماكن بعيدة، خاصة أنّ أخاه لم يتجاوز بصره حدود الميناء والمنزل. سافر الأخوان إلى الصين، ولكن لسوء الحظ كان التوقيتُ قاتلاً ومميتًا، لقد انتشر مرض الطاعون في الصين بأكملها وقضى على ثلث سكانها بغير سابق إنذار فأتى على الأخضر واليابس واستشرى المرض اللعين.

وكم فوجئ البحارة بهذا الوباء! فمات منهم الكثير والكثير حتى

تَوَصّل قادة السفن إلى وسيلة للوقاية من المرض بوضع كماماتٍ على الوجه من الخِرَقِ البالية للوقاية على متن السفن، ثم الإسراع في إنجاز المطلوب حتى تنتهي أيام العمل والعودة سريعًا إلى أرض الوطن، ولقد شدّد قبطانُ كلِّ سفينةٍ على هذه الأوامر التي لا رجعة فيها، حيث إنها كانت تعني الحياة أو الموت للجميع، وبلا رحمة.

أخذ (كاميليو) يحثّ الخُطى وهو يحمل آخر الصناديق المسافرة إلى إيطاليا وعيناه تدوران في كل مكان بحثًا عن (مايكل) حتى وجده يسير الهُوَيْنى وهو يحمل صندوقًا كبيرَ الحجم، فأشار إليه بالإسراع ثم انتظره حتى سار بجانبه فَرَبّت على كتفه ليطمئنه أنه بجواره يحميه ويرعاه فابتسم (مايكل) ببلاهة وسارا حتى وصلا إلى السفينة فابتسم (ألبا) و(بيانكا) بعد أن صعد الأخوان إلى السفينة وعلى الفور ارتفع صوت رئيس العمال مناديًا على (ألبا) ويقول:

- جاهزين يا ريس، نقدر نمشي دلوقتي؟!!

أجابه (ألبا) قائلاً:

- توكل على الله.

ثم وضع يده على كتف (بيانكا) وقال:

- كله تمام، بمجرد ما تتحرك السفن يبقى الخطر زال ومهمتنا تكون انتهت بنجاح.

قال هذه العبارة وهو يسير بجوار (بيانكا) إلى داخل قُمْرته الخاصة في

حين بدأت السفن بالتحَرُّك نحو النجاة.

انطلقت السفن الإيطالية الثلاثة تمخُر عِباب بحر الصين العظيم إلى مدينة (نابولي) عروس المدن الإيطالية، وقد أسدل الليل أستاره على ركاب السفن من قادةٍ وبحارةٍ وعمالٍ فناموا جميعًا من فرط التعب والإرهاق الذي حل بهم طوال الأيام الماضية على رصيف الميناء في (شنغهاي).

استسلم الجميع للنوم ما عدا (مايكل) الذي ارتكن على أحد جدران السفينة وأخذ يتطلع إلى أخيه (كاميليو) الغارق في سباتٍ عميقٍ أمامه على أرضيةِ القُمرة الواسعة بجانب جميع العمال والبحّارة.

التقط (مايكل) قطعة خبزٍ من صَفْحةٍ بجانبه ثم وضع يده في جيبه وأخرج فأرًا صغير الحجم وأمسك فمه ووضع قطعة الخبز فيه عُنْوة وهو يبتسم، تملص الفأر من يد (مايكل) ثم أطبق بفكيّه على إصبع (مايكل) السبابة ، فصرخ بأعلى صوته قبل أن يلقي بالفأر عبر شُبّاك القمرة الصغير ليغوص في البحر العميق ثم تتلقفه الأمواج ويلقى حتفه غرقًا، انتفض (كاميليو) من نومه على صوت صراخ أخيه المتواصل فاحتضنه بقوة وقال:

- مالك !! إيه اللي حصل؟!!

أخفى (مايكل) وجهه في صدر أخيه الوحيد وقال من بين دموعه:

- الفأر، الفأر عضّني.

اتسعت عينا (كاميليو) عندما سمع أخاه الصغير وقال:

- فأر إيه ؟!! إحكي لي.

شهق (مايكل) عدة شهقاتٍ قوية وقال:

- الفار اللي جبته من محل العطار اللي كنا بناخد منه البضاعة، كان بيلعب هناك في المخزن فأخذته علشان يلعب معايا، علشان إنت ما بقتش تحب تلعب معايا، فشيلته في جيبي لغاية ما اخلص شغل ولما حسيت إنه جعان خرجته من جيبي علشان أأكله ما كنش راضي، رُحت فاتح بقه وحطيت له لقمة عيش صغيرة فمرضيش برضه وعضني جامد. (ثم قام واقفًا فجأة وأكمل قائلاً وهو يحرك ذراعه في الهواء ليصف لأخيه الحدث) رُحت أنا أتغظت منه ورميته في البحر علشان ما يعضنيش تاني.

ابتسم (كاميليو) على الرغم منه وارتفع حاجباه بحنانٍ وهو يشاهد وصف أخيه البريء لما حدث، فأمسكه من ذراعه وأجلسه بجانبه ثم أخذ يفحص الجرح الذي تركه الفأر على إصبع أخيه فوجده ينزف دمًا، فَتَلَفّت حوله كي يتأكد أنّ أحدًا لا يتابعه فوجد الجميع نيامًا، مزّق قطعةَ قماشٍ صغيرةٍ من ملابسه وضمّد بها جرح أخيه قبل أن يضع يده على جبينه ليرى حرارة جسده فوجدها طبيعية، فتنفس الصعداء وقال:

- إسمع يا (مايكل) إنت خلاص إنتقمت من الفأر ومَوِّتُّه كمان، دلوقتي هتنام مش عايز أي حد يعرف حاجة عن الفأر واللي حصل خالص، ولو حد سألك عن الجرح اللي في صباعك قول لهم وإنت بتفتح علبة

الأكل إتعورت، فاهم؟!!

هز (مايكل) رأسه ببراءة وقال:

- حاضر يا (كاميليو) بس ما تزعلش مني.

احتضنه (كاميليو) بحنان وقال:

- أنا عمري ما أزعل منك يا (مايكل)، أنا ماليش في الدنيا غيرك.

قال هذه العبارة ودموعه تسيل على وجنتيه بصمت. لقد استشعر الخطر الذي أحاط بأخيه وما هي إلا أيام وتنتهي حياته نتيجة الإصابة بهذا المرض اللعين، المرض الذي أصبح مجرد ذكر اسمه في أيّ مكان، يُصيب الناس بحالة من الهلع والخوف والرعب، ولكنه لن يترك أخاه، سيظل بجانبه حتى لحظاته الأخيرة، سيظل بجانبه حتى لو حارب العالم كله من أجله، من أجل (مايكل)... الصغير.

***

مرّ على هذه الحادثة عشرة أيام، أطاع فيها (مايكل) كلام وأوامر أخيه الأكبر (كاميليو) بالحرف الواحد فلم يختلط بأيّ أحد من البحارة طوال الرحلة، وعندما كانوا يسألون عن غيابه كان أخوه يتكفلّ بالرد متصنعًا أي سبب من الأسباب حتى بدأت أعراض المرض بالظهور، ففي إحدى الليالي وقبل وصول السفن الثلاث إلى إيطاليا بعدة أيام، ارتفعت درجة حرارة (مايكل) وأصابته رعشةٌ قويةٌ وازدادت ضربات قلبه مما ألقى الرعب والخوف في قلب أخيه الذي وقف عاجزًا عن

إسعافه، فانطلق يعدو على سطح السفينة يطلب المساعدة من أيّ بحّار، حتى أوقفه (ألبا) مستفسرًا منه عن حالة أخيه فأخبره بكلمات وجيزة ما حدث له فغابت الدماء الحارّة من وجه (ألبا) عندما شعر أن خطته باءت بالفشل وأن الموت لا بد قادمٌ ولكنْ ليس في إيطاليا بل على سفينته، سفينته التي بذل كل حرصه كي يصل بها سليمة إلى إيطاليا حتى لا ينتشر المرض في أوروبا بأكملها، فأمسك بكتف (كاميليو) بقوة ونادى على (بيانكا) الذي أتى إليه مسرعًا وهو يتساءل عن هذه الجلبة والضوضاء التي عمّت السفينة فأجابه (ألبا) قائلاً:

- مصيبة! اللي كنا خايفين منه حصل.

اتسعت عينا (بيانكا) رعبًا وانتصبت الشعيرات القصيرة في مؤخرة رأسه وقال وشفتاه ترتعشان:

- مش ممكن! مستحيل!!

التفت (ألبا) إلى (كاميليو) أمسك به وقال بحزم:

- إسمع الكلام اللي هقوله، ومش عايز مناقشة.

هز (كاميليو) رأسه موافقًا بخوف، فاستطرد (ألبا) قائلاً:

- لازم تسيب السفينة إنت وأخوك دلوقتي حالاً.

تَمَلّص (كاميليو) من يدي (ألبا) وابتعد عدة خطوات وقال:

- مش ممكن! هروح فين أنا وأخويا دلوقتي؟!! الدنيا ليل، ومفيش حد هيرضي يأخدنا معاه.

اندفع نحوه (ألبا) وأمسكه من كتفه مرة أخرى بقوة وقال:
- إسمع اللي بقول لك عليه، هتودينا كلنا في داهية
دفعه (كاميليو) دفعة قوية في صدره فتراجع إلى الخلف فاندفع (بيانكا) نحوه محاولاً الإمساك به ولكنه تفاداه ثم أطلق قبضته في وجهه فسقط على ظهره وقبل أن يقوم من مكانه، وقف أمامهما (كاميليو) منتصبًا وقال بصرامة:
- من دلوقتي أوامري هي اللي هتمشي، لا أنا ولا أخويا هنمشي من السفينة، كل اللي أقدر أعمله إني هحبس نفسي مع أخويا في أي قمرة تختاروها لغاية ما نوصل وأوعدكم إن مفيش حد هيتأذى من أي حاجة، بس أهم حاجة دلوقتي إننا ننقل (مايكل) للقمرة اللي هنتعزل فيها وبسرعة.
أطاعه الاثنان على الفور وانطلقوا معًا إلى حيث ترك أخاه الصغير، ولكن ما إن دخل ثلاثتهم عند (مايكل) حتى حدث ما لم يخطر على بال أيٍّ أحد منهم... أبدًا.

****

- تفتكري هينجحوا؟!!
همس (دوروف) بهذه العبارة بضَعفٍ وهو يرفع وجهه ويتأمل ملامح منال المنهكة فابتسمت بثقة وقالت:
- إطمئن، على الرغم من أن مهتهم خطيرة جدًا، لكن أنا عندي ثقة في

المولى عز وجل."

أطرق (دوروف) رأسه أرضًا وقال بيأس:

- ياريت عندي ربع الأمل اللي عندك، أنا خايف على (شلينكو) أوي، أنا السبب في كل اللي بيحصل له ده، ليه يدفع ثمن غلطة أبوه، ليه؟!!

وَدّتْ منال لو تُرَبّت على كتفه لتطمئنه ولكنّ قيودها المحكمة حالت دون ذلك فقالت:

- عندنا في القرآن آية صغيرة بتقول:

"ولا تزر وازرة وزر أخرى"[1]

عقد حاجبيه بتساؤل وقال:

- يعني إيه؟!!

ابتسمت وقالت:

- يعني محدش بيشيل ذنب حد، أيًّا كانت درجة القرابة بينهم، علشان كده ربنا هينجيه.

رفع رأسه إلى السماء وقال بتضرع:

- يارب!

ابتسمت (نيرفانا) التي كانت تسترق السمع إلى هذا الحوار الدائر على بُعْدِ عدةِ أمتارٍ منها ثم التفتت إلى (ميلا) الصغيرة لتنبهها إلى الحوار الدائر بين منال و(دوروف)، فوجدتها تمسك في يدها اليمنى دميتها الصغيرة التي كانت تستخدمها في تعذيب منال و(دوروف)، أما يدُها

(١) الزمر:٧

اليسرى فكانت تمسك بها بللورة صغيرة تنقل كل ما يحدث لسامح و(شلينكو) هناك في عُرض البحر، ضغطت على الكرة بيدها عدةَ ضغطاتٍ متتاليةٍ ليتضّخم حجمُها عشرات المرات ثم تختفي أبعادها، لتظهر السفينة الإيطالية وعلى متنها البحارة، ظَهَرَ من بينهم سامح و(شلينكو) ورجلٌ آخر يقاتلهم بشراسةٍ قبل أن يقف ثلاثتهم قليلاً ليندفعوا معًا نحو أحد أركان السفينة ليتسمّروا في أماكنهم، ليثبت المشهد لثوانٍ قبل أن يختفي ويظهر مرةً أخرى ولكن من داخل غرفة (مايكل)، لتتسع عينا منال وترتجف أوصال (دوروف) برعبٍ وفزعٍ، لقد قررت (ميلا) نقل ما يحدث من قلب الموقف نفسه، لتزيد من خوفِ ورهبةِ كلا الضحيتين وتبدد سُحُبَ الأمل التي ظلَّلت قلبيهما، ولقد نجحت (ميلا) في ذلك تمامًا فقد انهارت منال باكيةً على ما أصاب زوجها، أما (دوروف) فقد حاول جاهدًا فكّ قيوده بعصبية كي ينقضّ على (ميلا) وخالتِها ويفْتِك بهما لعل هذا يطفئ النيران التي اشتعلت في قلبه حزنًا على ابنه الوحيد (شلينكو).

فلقد أعدّ القدر عُدّتَه وارتكن مَلَك الموت على حافة السفينة منتظرًا دوره، فما هي إلا دقائق وينطلق لينفذ ما جاء من أجله.

قبض الأرواح... أرواح كل من في السفينة.

بلا استثناء.

****

اندفع (ألبا) و(بيانكا) و(كاميليو) إلى القمرة التي تضم حجرة (مايكل) ليجدوه يصرخ بأعلى صوته ويضرب الحائطَ برأسه قبل أن يمسك معدته بقوة ويضغط عليها لتتسع عيناه في ألمٍ شديدٍ قبل أن يُفرِغ ما في جوفه في وجه أخيه ورفيقيه.

تجمهر البحارة داخل وخارج الغرفة لمعرفة ما يحدث، والأسئلة تدور في رؤوسهم كما تدور الرحايا ولكن بلا أجوبة، أما داخل الغرفة فقد همدت حركة (مايكل) تمامًا وسقط مغشيًّا عليه، أمّا مَنْ في الحجرة فقد أصابتهم حالةٌ من الفزع والهلع بعد أن أخذ كلٌّ منهم نصيبه من العدوى فاندفعوا إلى الخارج ليزداد الطين بِلّة عندما أخذ كل واحد من المصابين يسعل في وجوه البحارة خارج الغرفة لتنتشر العدوى في جميع أرجاء السفينة، ما عدا (كاميليو) الذي احتضن أخاه وأخذ يبكي ويولول في هيستيريا. كان يعلم أن أخاه قد فارق الحياة بعد أن حدث له هبوطٌ حادٌّ في الدورة الدموية وازدادت ضربات قلبه قبل أن يحدث له ارتخاءٌ مفاجئٌ ويتوقف تمامًا عن النبض، ولكنه على الرغم من ذلك ظل متشبّثًا به بقوة خوفًا من أن يختطفه أحدٌ منهم، أما خارج الغرفة فكان الجنون يبسط يديه على كل من في السفينة، فتدافعوا يمينًا ويسارًا للنجاة من عدوٍّ وهميٍّ قادرٍ على أن يَفْتِكَ بهم في أيّة لحظة، أما (ألبا) و(بيانكا) فقد تغيرت ملامحهما لتعود إلى أصلها ملامح سامح و(شلينكو) اللذين جلسا أرضًا بيأسٍ والدموعُ تترقرق من أعينهما بعد

أن فشلا في أُولى المهام ودنا أجلهما قبل أن يصلا إلى بر الأمان.

اندفع أحد البحارة إلى حاجز السفينة وهو يشير إلى أقرب السفن الثلاث إليه بإشاراتِ (السيمافور)[1] طلبًا للنجاة ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه، كانت سفينة القبطان (كارلو) والمعروفة باسم (كونستانزي)، ولقد فهم القبطان الرسالة على الفور فعقد حاجبيه، ثم أطلق صيحة قوية نحو أقرب البحارة إليه يأمره بِعِدّةِ أوامرَ صارمةٍ، هُرِعَ على الفور لتنفيذها، وفي الوقت نفسه عقد القبطان (كارلو) كفيه خلف ظهره، في تَأَهّبٍ حتى جاءه البَحّار ومعه أكثرُ من عشرين بَحّارًا آخرين وقفوا في صفٍ واحد في مواجهة سفينة سامح و(شلينكو)، وفي يد كلٍّ واحدٍ منهم قوسٌ ونَشّابٌ مغموسة في البترول قبل أن يشعلوها ويصوبوها إلى السفينة الموبوءة، ثم صاح القبطان بأعلى صوته ليقذف البحارة بالسهام المشتعلة إلى السفينة لتشتعل تدريجيًا ثم تشتعلَ براميلُ الوقود الموجودة في كل مكانٍ على السفينة، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى انفجرت السفينة التي كانت يومًا تحمل اسم (صوفيا) بعد أن كانت من أفضل السفن في ذلك الوقت، انفجرت لتوديَ بحياة كلٍّ من فيها إمّا حرقًا أو غرقًا.

ابتسم (كارلو) في ظفر، وانطلق يقهقه بمرحٍ مفاجئٍ! لقد تخلص من الوباء ومن المنافسين في الوقت نفسه، فأشارَ إلى البحارة بالعودة إلى

(١) إشارات خاصة بالبحارة، كانت تستخدم قديمًا للتخاطب بين السفن ويرجع أصلها إلى حركة الكشافة البحرية.

غرفهم كي يرتاحوا بعد عناءِ يوم طويلٍ وفوزٍ ساحقٍ في المساء، على المرض اللعين الذي أثار رعبَ وفزعَ الآلاف من البشر في ذلك الوقت.
ولكن ما إن انتصف الليل واستسلم البحارة وقبطان السفينة (كونستانزي) للنوم حتى حدثت حركة خافتة وراء أحدِ الصناديقِ المحمّلة بالبضائع في داخل أحد المخازن، ليقفز فأرٌ صغيرٌ قرر أن يغادر مَكْمَنه بحثًا عن طعام العشاء.
فأرٌ يحمِل بداخله أخطر أمراض العصر؛ مرضَ الطاعون.

****

انهارت منال تمامًا وهي ترى نهاية سامح أمامها محترقًا وشاركها (دوروف) البكاء والنحيب وهو يرى ابنه الوحيد يحترقُ أمامه على ظهر السفينة (صوفيا)، ورفع رأسه لمواجهة (نيرفانا) والشرَرُ يتطاير من عينيه، فلم تعره أي اهتمام وهي تنظر إلى سامح و(شلينكو) اللذين يحترقان أمامها وصراخهما يصل إلى منتهاه، قبل أن تبتسم وتشير إلى (ميلا) الصغيرة التي اقتربت من الجسدين المشتعلين المتجسدين أمامها ثم زفرت زفرةً باردةً قويةً لتنطفئ نيرانُ سامح و(شلينكو) في لحظة واحدة، واختفت الآلام وحل محلّها الذهول والدهشة مما يحدث، لقد كان كلٌّ منهما يشعر بألم الاحتراق، بل كان يتقلّب في الجحيم ويصطلي بنيرانه، كل هذا اختفى في ثوانٍ حتّى إنّ كلَّ مَن في المكان أنزل الصمت أستاره على ألسنتهم، هل كان هذا حلمًا؟!!

هل كان هذا وهمًا؟!!

وهمًا عاشوا فيه جميعهم في الوقت نفسه.

لم تتوصل عقولهم إلى إجابةٍ لهذه الأسئلة المحيرة، فأدارت (نيرفانا) عينيها في وجوه الأربعة ثم قالت بشماتة:

"المهمة الأولى فشلت."

اندفع إليها سامح و(شلينكو) يريدان الفتك بها، ولكنها لم تتحرك قَيْدَ أُنْمُلة من مكانها ولم تختفِ ابتسامتها، وعندما أصبحا على بعد مترٍ واحدٍ منها تحركت (ميلا) بسرعة البرق ووقفت بينهما وبين خالتها ثم ضربت دميتها بقوة في منطقة الرأس وهي تنظر إلى منال التي اتسعت عيناها ودارت في محجريهما، وشعرت كأن مُخّها يغلي داخل رأسها لدرجة أنّ شفتيها ارتجفتا من فرط الألم، فتوقف سامح وقال في غضب كاسح وهو ينظر إلى (نيرفانا) و(ميلا):

"سيبوها، عملتم فيها إيه يا مجرمين؟!!"

استغل (شلينكو) فرصة انشغال (نيرفانا) بمنال، فاندفع نحوها وقبضتُه مضمومة وطوّح بها في الهواء قاصدًا رأس (ميلا)، ولكنّ قبضتَه توقفت في الهواء عندما نظرت إليه (ميلا) فجأة ثم نظرت إلى (دوروف)، فاندفع جسد (شلينكو) نحو جسد والده بسرعة البرق ليرتطم به عنيفًا قبل أن يسقط تحت قدميه، وكلُّ عظمة في جسده تئن من فرط الآلام التي عصفت بكيانه وقاربت على إزهاق روحه.

تكلمت (نيرفانا) قائلةً بصرامةٍ:

- نفسي تعرفوا قيمتكم، إنتم ولا حاجة، مالكوش أي قيمة، ومهما عملتم مش هتنتصروا، ولا هتخرجوا من هنا إلا بعد ما أنتقم منكم، وخلوا بالكم هيكون انتقامي رهيب، انتقام يشفي غليلي ويريح أختي في قبرها.

تكلم سامح قائلاً وهو ينظر إلى (نيرفانا) بتضرع:

- إعملي اللي عايزاه فيا أنا، لكن سيبي منال، إرحميها.

قالت (نيرفانا) بشراسة:

- أَرْحَمْها؟ هو إنت وأصحابك كنتم رحمتم (زوشا)؟ بالعكس ده إنتوا رميتوها في الشارع كأنها مرض بتتخلصوا منه، يبقى إزاي تطلب الرحمة؟

نظر سامح إلى منال فوجدها تئنّ بتعبٍ وتطلق آهاتِ ألمٍ خافتةٍ لتمزقَ نِياطَ قلبه، أما (شلينكو) فَقَدْ فَقَدَ الوعي من أثر ارتطامه بوالده الذي غامت الدنيا أمام عينيه ولكنه لم يفقد الوعي بل كان يتابع ما يحدث محاولاً التنبؤ بما ينتظره هو وابنه في المرحلة القادمة، ولكنّ سامحًا قطع أفكاره وهو يقول لـ(نيرفانا):

- إنتي خدعتينا، فهمتينا إن مهمتنا تنتهي بمجرد ما نمشي بالسفن من الصين، لكن كنتي مجهزة لنا الموت على السفينة، يا ريتك كنتي انتقمتي مني زي ما عملتي مع أصحابي.

تكلمت (نيرفانا) على الفور قائلة:

- لا طبعا، أصحابك ماتوا بسهولة، لكن إنت هتموت أكتر من مرة في

كل مكان هتروح فيه، هتشوف العذاب ألوان.

(ثم أشارت إلى منال وقالت بغيظ):

- وهي كمان لازم تتعذب زيك بالظبط، لكن الأول لازم نحتفل بالهزيمة الأولى ليك إنت و(شلينكو).

قالت عبارتها ثم أشارت إلى (ميلا)، فرفعت دميتها الصغيرة ثم غرست إبرة حادة طويلة في ذراعها الأيمن حتى اختفت في داخله تمامًا فصرخت منال صرخةً هائلةً وهي ترى الإبرة الحادة نفسها تغوص في ذراعها كما حدث مع الدمية فأحست بأوردتها وشرايينها تتمزق كلما زاد توغل الإبرة في ذراعها حتى أصابت الأعصاب الحسية في الذراع فانتفضت منال انتفاضةً قويةً قبل أن يتراخى ذراعها تمامًا بعد أن فقد قدرته على الحركة وتفقد هي الوعي تمامًا، مثلما حدث لـ (دوروف) وذراعه؛ إذ فقدَ القدرة على الحركة ولكن (دوروف) لم يفقد الوعي بل أطلق صرخةً هائلةً من فرط الآلام أيقظت (شلينكو) من سباته فأسرع إلى والده يفحصه بلوعة وحزن عميقين، أما سامح فقد أمسك برأس زوجته واحتضنها وهو يبكي ويقول بخفوت:

- أنا السبب، أنا السبب.

ارتفع صوت (نيرفانا) في هذه اللحظة قائلة:

- لسه الأمل موجود.

التفت إليها سامح و(شلينكو) وكيانهما يحترق خوفًا على من يُحبّان، ثم تكلم سامح قائلاً:

- أنا جاهز للمهمة الثانية.

تبعه (شلينكو) هو الآخر قائلاً:

- وأنا كمان جاهز.

لوّحت (نيرفانا) بكفها ضَجِرَةً وقالت:

- المهمة الثانية بتنطبق عليك يا سامح لأنها بتحمل معنى في منتهى الأهمية، لما الإنسان ما يعرفش قيمة النعمة اللي هو فيها، فيضيعها من غير أي اهتمام.

أشار سامح إلى صدره وقال بدهشة:

- أنا عملت كده!!

أومأت (نيرفانا) برأسها بالإيجاب وقالت:

- أيوه إنت عملت كده، لما ما عرفتش وما قدرتش قيمة الحب اللي حبّته لك (زوشا) وضيعته بجبنك وخوفك وإهمالك، نفس اللي عمله (جورج هاريشن) في جنوب أفريقيا.

تكلم سامح وقال متسائلاً:

- (جورج هاريشن)، عمل إيه؟!!

ابتسمت (نيرفانا) بغموض وقالت:

- هتعرف إنت و(شلينكو) هناك، في جنوب أفريقيا.

وكانت هذه العبارة هي فصل الختام ونهاية الكلام في روسيا، وبداية مهمة جديدة في بلاد الألماس[1] الرائعة.

---

(١) تُعدّ جنوب أفريقيا من أكثر البلاد احتواء على مناجم الألماس والذهب في العالم.

جنوب أفريقيا

جنوب أفريقيا ١٩٥٥م:

ارتفع صهيلُ حصانٍ أبيضَ، كثيفِ الشعر، قويِّ البُنية، يعدو بسرعةٍ متوسطةٍ داخلَ أرضٍ جدباءَ ممتدةٍ لمساحةٍ شاسعةٍ تحيط بمنزل صغير من طابقين، انخفضت سرعة الحصان تدريجيًّا عندما وصل إلى المنزل ليهبط عن صهوته رجلٌ أسودُ اللون ممشوقُ القوام يرتدي قميصًا أبيضَ اللون وبنطالاً من الجينز. ترك الرجلُ الحصانَ يتمهّل في مشيته قبل أن يدخل إلى المنزل وهو ينادي مَنْ في البيت بصوتٍ عالٍ قائلاً:

- صباح الخير، (جاسمين)، إنتي فين يا حبيبتي؟

اندفعت امرأةٌ سمراءُ جميلةُ الملامحِ من المطبخ لتعانقه بقوة وتقول بسعادة بالغة:

- صباح الخير يا حبيبي، كنت فين؟!!

- أنا قمت من النوم مالقيتكش جنبي.

ابتسم (جورج هاريشن) ابتسامةً حزينةً وقال:

- كنت في الأرض بتاعتنا.

تجمّدت ابتسامتُها على شفتيها عندما رأت مسحة الحزن التي كست

وجهه وقالت بإشفاق:

- لسه الموضوع شاغلك؟

أبعدها عنه قليلاً ثم أولاها ظهره وقال بأسف:

- أكيد طبعًا، يعنى إيه أرض زراعية بالحجم ده كله وما ينفعش تتزرع؟!!

وضعت (جاسمين) يدها على كتفه وقالت بهدوء:

- حبيبي إهدأ، وحاول تاني.

فتح فمه ليجيبها قبل أن تعلوَ شفتيه ابتسامة حنونة وهو يرى طفلاً صغيرًا في الخامسة من عمره يهبط من أعلى الدرج وهو يفرك عينيه ويتثاءب بقوةٍ قبل أن يصل إلى الرجل ويحتضنه وهو يقول بصوت ناعس:

- صباح الخير يا بابا.

احتضنه والده بقوة وقال:

- صباح الخير يا (مارك).

التفت إلى زوجته وقال:

حضّري الفطار يا (جاسمين)، هنفطر كلنا في الأرض بتاعتنا.

أطاعته على الفور قائلة:

- دقائق ويكون الأكل جاهز.

اصطحب (جورج) ابنه إلى خارج المنزل ووقف على بابه وهو ينظر إلى أرضه التي ورثها عن والده الذي ورثها هو الآخر عن والده، كان يعشق هذه الأرض، بل يذوب في كل حَبّة تراب فيها، لا يدري لماذا

يعشقُها هكذا كما أنّه لا يدري لماذا ورثها والدُه ولم يفرّط فيها على الرغم من عدم صلاحيتها للزراعة، ولكنه كان لا يصدق كلَّ ما قيل من الخبراء عن عدم صلاحية هذه الأرض للزراعة، كان لديه اعتقادٌ دائمٌ بأن أيّ أرضٍ زراعيةٍ لابد من أن تُزرّع وتَجودَ بثمارها، ما دمت ترعاها وتحافظ عليها، لم يكن يعتمد في حياته على هذه الأرض فقط كموردٍ للرزق، فهو يتاجر بنوعٍ معيّنٍ من التجارة كما أنّ له أرضًا زراعيةً أخرى غير هذه الأرض ومنزلاً آخرَ غيرَ هذا، أكبرَ حجمًا ولكنّه كان لا يشعر بالراحة إلا في هذا المنزل الذي ورثه مع الأرض عن والده، لم يكن له أخوة أو أخوات يشاركونه هذا الميراث، كلُّ ما يملكه هو قطعتا أرضٍ ومنزلان وتجارته التي يرعاها ويحبها؛ تجارة الماشية، التي يديرها بمهارةٍ واقتدارٍ في أرضه الزراعية الأخرى، وقد أراد أن يوسع تجارته بزراعته الأرض الأخرى، ولكن مع الأسف، فالأرض الأخرى لا تصلح للزراعة.

قاطع أفكارَه صوتُ زوجته (جاسمين) وهي تقول بصوت عالٍ:

- حبيبي الأكل جاهز.

كانت قد وضعت منضدة متوسطة أمام المنزل ووضعت عليها إفطارًا خفيفًا يكفي لثلاثتهم، ووقفت بجواره تنتظر قدوم زوجها وابنها الصغير، لبّى (جورج) نداءها وهو يمسك بيد (مارك) ويجلس مع زوجته لتناول الطعام وأرضُه تحيط بهم بحنانٍ ورعايةٍ، لقد كانت هذه

الأرض جافةً، ولكنها تحمل الكثير والكثير من الأسرار الرهيبة.

- تفتكر هيبيع؟!!

نطق (شلينكو) الذي أخذ هيئة سكان مدينة (جوهانسبرج) عاصمة جنوب أفريقيا فأصبحت له بشرةٌ سمراءُ اللون، وعينان بلون الزرع بل وحمل هنا اسم (جاستين) أحد أصدقاء (جورج) الذي نطق عبارته وهو يتطلع إلى رجلٍ طويلِ القامة مفتولِ العضلات له ملامحُ قويةٌ صارمةٌ لم تَخْلُ من وسامةٍ ظاهرة، كان هذا سامحًا في هيئة سكان العاصمة، كان يُعرَف وسط أقرانه باسم (باولوس) الذي أجاب (جاستين) قائلاً بصرامة:

- لازم نمنعه، مفيش أمل.

هز (جاستين) رأسه مؤيدًا وقال:

- عندك حق، مفيش أمل.

تكلم (باولوس) قائلاً وهو يعقد يديه خلف ظهره:

- إنت عارف إن مهمتنا محصورة في حاجة واحدة، وهي منع (جورج) من بيع مزرعته بأي شكل، وأنا شايف إن دي تعتبر مهمة سهلة شويّة لإنها محصورة في شخص واحد بس، وبما إننا أصدقاؤه من زمان هنحاول نقنعه بأنه ما يبيعش المزرعة بكل الطرق السلمية.

عقد (جاستين) حاجبيه قائلاً بتساؤل:

- ولو صمم على البيع، هنعمل إيه؟!!

ابتسم (باولوس) بدهاءٍ، وقال وهو يهز كتفيه:

- وقتها مفيش قدامنا غير حاجة واحدة.

وازدادت ابتسامته دهاءً وشراسةً وهو يقول:

- هنقتله.

ردّدَ (جاستين) قائلاً بخوف:

- نقتله؟!!

اقترب منه (باولوس) وقال وهو ينظر في عينيه:

- عندك حل تاني؟!!

ابتلع (جاستين) ريقه وهو يقول:

- اللي تشوفه يا (باولوس).

تراجع (باولوس) ببطءٍ وهو ينظر إلى (جاستين) نظرة صارمة، كان يتمتع بشخصية قويّةٍ تَفرِضُ سيطرتها على أصدقائه وعلى كل المحيطين به، لقد تغيّر سامحٌ في هذا الزمن وهذا التوقيت فأصبح ذا باعٍ وسطوةٍ بين أقرانه وهو في هيئة (باولوس)، أما (شلينكو) فكان ضعيفَ الشخصية، لقد غيّرت (نيرفانا) العادات والأشخاص أيضًا.

اعتدل (باولوس) في وقفته وقال بلهجة آمرة:

- يلا علشان نلحق ميعاد العشا مع (جورج).

أطاعه (جاستين) باستسلام إلى منزل (جورج هاريشن) لتنفيذ خطتهم لمنع (جورج) من بيع أرضه.

توقّفتْ سيارةٌ حديثةٌ أمام منزل (جورج هاريشن) في تمام الساعة الثامنة

مساءً وهبط منها (جاستين) و(باولوس) ليجدا في استقبالهما أمام باب المنزل (جورج) وزوجته، صافحهما بحرارة قبل أن يصطحبهما إلى داخل المنزل، تبادل الجميع أحاديثَ عامةً حول أحوال البلد وسياستها العامة، ثم دعاهم (جورج) إلى مائدة الطعام العامرة بكل ما لذّ وطاب من أشهر المأكولات والمشروبات، وبعد أن امتلأت البطون واستقرّت العقول اعتدل (باولوس) في مقعده والتقط نفسًا عميقًا وقال:

- أخبار الأرض إيه يا (جورج)؟!! هتبدأ في زراعتها إمتى؟!!"

ما إن ذكر (باولوس) المزرعة، حتى اكتسى وجه (جورج) بالحزن وهو ينظر إلى زوجته ويقول:

- الأرض غير صالحة للزراعة، أنا مش عارف أعمل إيه؟!!

تكلم (جاستين) قائلاً:

- حاول تاني، وأنا هكلم لك الجهات المسئولة عن استصلاح الأراضي وأكيد هلاقي عندهم حل لمشكلتك.

ابتسم (جورج) وقال:

- شكرًا لك يا صديقي العزيز، أنا فعلاً كلمت ناس كتير من المسئولين في البلد، وبكرا هيبعتوا مجموعة من الخبراء الزراعيين علشان يعرفوا السبب في عدم صلاحية الأرض للزراعة.

تبادل (باولوس) و(جاستين) نظرةً صامتةً حَمَلتْ كلَّ ما يَعْتَمِلُ في نفسيهما، قبل أن يتحدث (باولوس) قائلاً:

- جميل! لو محتاج أي حاجة يا (جورج)، ياريت ما تتأخرش في طلبها.
هزّ (جورج) رأسه بامتنان وقال:
- شكرًا يا (باولوس)، شكرًا يا (جاستين)، أنا بعتبركم إخواتي مش أصدقائي.
رَبّتْ (باولوس) على يد (جورج) بهدوء وقال:
- إحنا كمان بنعتبرك أخ لينا يا (جورج).
ثم التفت إلى (جاستين) وقال:
- مش كده يا (جاستين).
أومأ (جاستين) برأسه موافقًا وعلى شفتيه ابتسامةٌ مرتبكةٌ وعقلُه يتساءل هل سينجح هو و(باولوس) في هذه البلدة أو في هذا الزمن... هل؟؟

****

"غير صالحة للزراعة!"
نطق الخبير الزراعيّ (نيلسون) بهذه العبارة وهو يعتدل في وِقفته وسط مهندسيْه الزراعيَّيْن ثم التفت إلى (جورج) الواقف أمامه بجوار (باولوس) و(جاستين) أعزّ الأصدقاء قبل أن يحرك رأسه بأسًى ويقول:
"يعني مفيش فايدة."
قال هذه العبارة ثم أطرق رأسه آسِفًا، كلامُ الخبير الزراعي قضى على آخرِ أملٍ في قلبه، لقد أيقن أنّ هذهِ الأرضَ نذيرُ شُؤمٍ عليه، لقد كان يريد أن يزرع هذه الأرض ويجني محصولها حتى يكونَ زيادة في رزقه ورزق أولاده من بعده، ولكن القدر أصرّ على عناده له، فابتسم ابتسامةً

حزينةً قبل أن يشكرَ الجميع ويستأذنَهم في أن يبقى وحيدًا، استجاب الجميع لرغبته وتركوه وحيدًا في أرضه فنظر إليها بعد انصراف الجميع ودموعُه تسيل على وجنتيه، ثم التقط نفسًا عميقًا وابتسم بارتياحٍ؛ لقد اتّخذ قراره بشأن هذه الأرض، القرار الذي سيريحه ويريح ضميرَه.

****

مرّت على هذه الأحداث ثلاثةٌ أيام قبل أن يتّصل بصديقيه (باولوس) و(جاستين) ويطلب مقابلتهما في أمرٍ هام، وبالفعل اجتمع الثلاثة مرةً أخرى في أرض (جورج) الذي بادرهما قائلاً:

- إنتم عارفين إني بعتبركم إخواتي مش أصدقائي وخاصة إني ماليش إخوة.

تكلم (باولوس) قائلاً:

- أكيد طبعًا يا (جورج)، إحنا كمان بنعتبرك أخ أكبر لينا.

ابتسم (جورج) وهو يتراجع في مقعده ويقول:

- أنا أخدت قرار بخصوص الأرض بتاعتي وعايز آخد رأيكم فيه.

تبادل (جاستين) و(باولوس) نظرةً متوترةً انتقلت إلى ابتسامة (جاستين) وهو يقول:

- قرار إيه؟!!

أشار إليه (جورج) أن يصمت عندما أتت (جاسمين) بثلاثةِ أكوابٍ من شراب الليمون المنعش الذي أعدته بنفسها لزوجها وضيفيه ثم ابتسمت في وجهيهما مرحبةً قبل أن تُرَبّت على كتف زوجها برفق

وحنان وتتركهم ليكملوا حديثهم، تابعها (جورج) حتى اختفت تمامًا في المنزل، فأدار وجهه إلى صديقيه وقال:

- أنا قررت أبيع المزرعة، بس مش عايز (جاسمين) تعرف أي حاجة عن الموضوع ده.

اقترب منه (باولوس) وقال:

- هتبيع الأرض لمين؟؟ وبكام؟

ابتسم (جورج) مرةً أخرى وقال:

- مش مهم لمين ولا بكام، المهم المبدأ نفسه.

تكلم (جاستين) قائلاً:

- أنا من رأيي إنك ما تبيعش الأرض دي، خليها محدش عارف بكرا فيه إيه.

هزّ (جورج) رأسه بغير رضًا وقال:

- أنا مش هستنى لبكرا ولا بعده، الواحد ممكن يموت في أي لحظة.

ابتسم (باولوس) بشراسة وهو يُخرِج من جيب سترته مسدسًا ضخمًا مزودًا بكاتم للصوتِ صوّبَه نحو (جورج) وهو يقول:

- إنت فعلاً مش هتستنى لبكرا، لإنك هتموت دلوقتي.

اتسعت عينا (جورج) فزعًا ودهشةً وارتجفت شفته السفلى خوفًا وهو ينظر إلى ابتسامة (باولوس) الشرسة ويقول:

- ليه؟!!

حرك (باولوس) كفّه اليسرى بلا مبالاة وقال:

- لأن حياتك مرتبطة بحياة أعز الناس ليا أنا يا صديقي العزيز، لو إنت بعت الأرض دي.

تكلم (جورج) وهو يلوح بيده في عصبية ويقول:

- لكن أنا مش هبيع الأرض دي لأي حد، أنا هبيعها لـ...

قاطعه (باولوس) قائلاً وهو يصوب إليه مسدسه بإحكام:

- أنا عارف إنت هتبيعها لمين، لكن صدقني أنا هزعل جدًا على موتك، لكن أنا آسف، مفيش بديل.

فتح (جورج) فمه ليتكلم ولكنه لم يستطع أن يتحدث في هذه اللحظة، ولا حتى بعد ذلك، لقد سال خيطٌ رفيعٌ من الدم القاني من جانب فمه وتشابه مع الخيط الآخر الذي تدفق بشدةٍ من موضع القلب إثر انطلاق رصاصة (باولوس) الصامتة حيث استقرت داخل قلب (جورج هاريشن) فسقط أرضًا بلا حراك، وهنا ابتسم (باولوس) وهو ينظر إلى (جاستين) ويقول:

- أخيرًا انتصرنا، أخيرًا غيرنا التاريخ.

وعندما أتت (جاسمين) بقطع الكيك لضيوف زوجها، لم تجد أيًّا منهم، لقد وجدت فقط جسد زوجها ولكن... بلا روح.

****

ابتسم سامح بثقةٍ وهدوءٍ وهو يقف أمام (نيرفانا) في ذلك القبر الثلجيّ

الذي أعدته كي يكون مسرحًا للأحداث الدامية التي بدأتها منذ عدة أيام لتأخذ بثأر أختها الراحلة (زوشا) من الشخص الماثل أمامها ورفيقه الروسي (شلينكو) فتطلعت إلى ابتسامته الباردة وقالت:

- برافو.

اتسعت ابتسامة سامح وهو ينظر إلى (شلينكو) بِزَهْوٍ، فبادله بدوره الابتسام وقال بارتياح:

- أخيرًا.

ثم نظر إلى والده فوجده يبتسم بوهن ويغمغم قائلاً:

- الحمد لله.

التفت إلى رفيقته في العذاب؛ إلى منال فوجدها تنظر إلى سامح وتقول بضعف:

- حبيبي.

تقدم سامح نحوها وأمسك بيدها المقيدة وقبّلَها ثم قال بحنان:

- إتطمني، قريب أوي هنخرج من هنا.

تطلّعت إلى ملامحه الوسيمة وقالت:

- سامح، إنت فعلاً كنت السبب في موت (زوشا)؟!!

أجابها قائلاً:

- أبدًا يا حبيبتي، أنا مستحيل أعمل حاجة تغضب ربنا.

ثم أشار إلى (نيرفانا) وتابع قائلاً:

- (نيرفانا) كدّابة، أنا صحيح غلطت معاها لكن ما موتهاش ومفيش

حد ما بيغلطش.

كانت (نيرفانا) تستمع إلى هذا الحديث بصمتٍ وتَرَقُّبٍ حتى وصل سامح إلى هذه النقطة مع منال فقاطعته قائلة بهدوء صارمٍ:

- إنت السبب في كل اللي حصل لأختي لإنها حبِّتك ووثقت فيك علشان كده لازم تدفع الثمن.

أطلق سامح ضحكةً ساخرةً عاليةً وقال:

- تمن إيه اللي هدفعه؟ إنتي خسرتي الجولة دي بموت (جورج) لإنه بكل ببساطة مش هيقدر يبيع المزرعة لشركة التنقيب، وإن شاء الله هقدر أصلح باقي الأخطاء وهنخرج كلنا من هنا وهتفضلي هنا لوحدك علشان تدوقي طعم الهزيمة.

أطبق الصمت على المكان والجميع يتطلع إلى وجه (نيرفانا) الجامد تمامًا، كان من الواضح أنّ سامحًا أفحمها بحديثه المنطقي، الحديث الذي يدل على أنّه انتصر في هذه الجولة... القاتلة.

****

"المزرعة اتباعت فعلاً لشركة التنقيب."

دَوّت عبارة (نيرفانا) في المكان كرصاصةٍ قويةٍ في سكون الليل، فعقد سامحٌ حاجبيه بتساؤلٍ وتجمدت الابتسامة على شفتي (شلينكو) ورفع كلٌّ من (دوروف) ومنال رأسيهما إلى (نيرفانا)، التي ابتسمت بسخرية وهي تتحرك في المكان ببطء، مما دعا سامح إلى أن يقول:

- إزاي؟!!

أجابته (نيرفانا) قائلة بِزَهْوٍ:

- لو كنت إستنيت شوية، كنت عرفت الحكاية كلها من الشخص اللي قتلته.

ثم اقتربت من سامح ونظرت في عينيه وأكملت قائلة:

- من (جورج)، (جورج هاريشن.)

ابتلع سامح ريقه بصعوبة وهو يكرر قائلاً:

- إزاي؟!!!

ابتعدت عنه (نيرفانا) قليلاً وقالت بصوت عالٍ:

(جورج) لما كلّمك وقال لك هيبيع الأرض بتاعته، كان فعلاً كتبها باسم زوجته (جاسمين)، وكان شرطه إنها ما تتصرفش فيها إلا بعد موته، ولما إنت قتلته خرجت (جاسمين) ولقت جوزها ميت، انهارت وتعبت جدًا يوم دفنه، وبعد كده جت شركة تنقيب عن مناجم الذهب وعرضت عليها شراء المزرعة، ولأن (جاسمين) كانت متابعة كل محاولات (جورج) لزراعة الأرض وكمان شافته حزين أد إيه بسبب الأرض دي فقررت إنها تتخلص من أي حاجة كانت بتزعل جوزها ووافقت على بيع الأرض، في الأول قررت إنها تتبرع بها لشركة التنقيب لكن رئيس الشركة أصر إنه يشتريها من (جاسمين) ولو بتمن رمزي وفي الآخر وافقت وباعت الأرض للشركة بعشرة جنيه لكن بعد كده شركة التنقيب إكتشفت وجود أكبر منجم للذهب في العالم وبقى

المسئول عن ٧٠٪ من إنتاج الدهب في العالم."[1]

صمتت (نيرفانا) لترى تأثير كلماتها على الجميع، وكم كان اليأس يحلق بجناحيه فوقهم! فأطرق سامح و(شلينكو) رأسيهما ومرارة الهزيمة في حلقيهما، أما منال فسالت دموعها على وجنتيها وارتجفت شفتا (دوروف) بغضب، الوحيدة التي لم تتحرك من مكانها ولم تتغير ملامحها هي (ميلا) التي وقفت ساكنةً كأنها تمثالٌ من المَرْمَر، فأشارت إليها (نيرفانا) بطرف عينيها فرفعت دميتها الصغيرة ثم غرست إبرتها الحادة في قدم الدمية اليسرى حتى نهايتها فأطلقت منال صرخةَ ألمٍ هائلة وقدمها ترتجف قبل أن تلتوي بشكل بشعٍ وتفقدَ الوعي مباشرةً في الوقت نفسه الذي شعر فيه (دوروف) بنفسٍ الآلام قبل أن يفقد الوعي بدروه.

تهاوى سامح أرضًا وهو يصرخ بغضبٍ عندما شاهد ما حدث لزوجته وهو لا يستطيع إنقاذها وتفجرت دموعُ الحزن واليأس من مقلتيه، أما (شلينكو) فاتسعت عيناه برعب عندما وجد والده يفقد الوعي أمامه، كان يشعر وكأنّ أغلالاً قوية تقيده وتعيق حركته، أغلالاً تمنعه من إنقاذ والده وإنقاذ نفسه.

رفع سامح رأسه إلى (نيرفانا) ودموع الهزيمة في عينيه كان يشعر وكأن هذه الأغلال تقيد مُخّه وتمنع عقله من التفكير السليم للخروج من هذا

(١) كل الحديث الذي ذكر على لسان (نيرفانا) صحيح تمامًا من الوجهة التاريخية.

الموقف المعقد الذي وضع نفسه فيه بسبب ذنبٍ لم يضع عواقبه في الحسبان، كأن يشعر بأن الغُمّة قد انزاحت عن صدره عندما عاد إلى مصر مع أصدقائه بعد أن ألقوا بـ (زوشا) في صندوق القمامة الكبير بجانب منزلهم في (موسكو)، نفوذ والده وسلطات آباء أصدقائه طمأنه وأثلج صدره ولكنه لم يكن يتوقع أبدًا أن الماضي سيطرق أبواب حاضره ويسعى لتدمير مستقبله، ولكن ما ذنب زوجته، ما ذنب منال؟!! وما ذنب (دوروف) كي يذوقا العذاب بذنب لم تقترفه أيديهما، لماذا؟!!

وهل هناك سبيل للخروج من هذا الجحيم؟!!

لقد أخذ عهدًا على نفسه بإخراج منال من هذا المكان وهو لن يتراجع عن هذا، أبدًا. سيجد طريقة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حتى ولو ترك روحه فداءً لمنال، زوجته الحنون، التي كُتِبَ عليها البقاء في هذا الجحيم الثلجيّ القاتل.

الخطأ الثالث..

عبارة من كلمتين، تعني الكثير والكثير لسامح و(شلينكو) عبارة تعني إما الفوز أو الهزيمة، في معركة طويلة ورهيبة عبر الأزمان والأماكن مع مختلف أنواع البشر.

عبارة أطلقتها (نيرفانا) بصرامة وهي تتطلع إلى الفريق الصغير باستهتار، فنظر إليها الاثنان بثبات وهي تقول:

"المرة دي هتكون الرحلة في المملكة التي لا تغيب عنها الشمس، لكن الخطأ ده حصل سنة ١٦٩٦ م، وكان نتيجته حريق نصف مدينة (لندن) والسبب في الحريق ده هو الإهمال، إهمال الخباز البريطانيّ (جوفينز)[١]."

استمع إليها سامح و(شلينكو) بكل اهتمام، كانا يحاولان الحصول على أيِّ معلومةٍ إضافيةٍ تساعدهما في فكّ أَسْرِ منال و(دوروف)، أنهت (نيرفانا) حديثها ثم ابتسمت بهدوء وهي تفرقع بإصبعيها السبابة والوسطى لتختفي هي ومن حولها، ليجد سامح و(شلينكو) نفسيهما فجأة في قلب المدينة... مدينة الضباب... (لندن).

****

انطلق رنينُ الهاتف داخل فيلا السيدة " ليلى نعمان " والدة سامح فأسرعت خادمتها الفلبينية لتلبي نداء الهاتف فرفعت سماعته وقالت بلغة عربية سليمة تمامًا:

- ألو.

أجابها صوتُ هاني سكرتيرِ سامح الشخصيّ يقول بهدوء:

- صباح الخير، المدام موجودة؟

---

(١) في إحدى ليالى ١٦٩٦ م، أوى الخباز البريطاني (جوفينز) إلى فراشه ولكنه نسي إطفاء شعلة صغيرة بقيت في فرنه، وقد أدى هذا الخطأ إلى إشتعال منزله ثم منازل جيرانه حتى احترقت نصف (لندن) ومات الآلاف من سكانها فيما أصبح معروفًا بالحريق الكبير أما (جوفينز) فلم يصب بأي أذى.

أجابته الخادمة قائلة:

- صباح الخير، نقول لها مين؟!!

قال لها بسرعة:

- هاني محفوظ، سكرتير الأستاذ سامح.

تركت الخادمة السماعة، وأسرعت إلى الطابق الثاني لتبلغ سيّدتها، فطرقت باب حجرتها ثم انتظرت حتى فتحت لها السيدة ليلى الباب وعلى وجهها ابتسامة هادئة، فبادرتها الخادمة قائلة:

- صباح الخير مدام، الأستاذ هاني على التليفون.

عقدت ليلى حاجبيها وهي تُرَدِّدُ في تساؤل:

- هاني!! يا ترى في حاجة حصلت؟

أشارت إلى الخادمة بالانصراف ثم رفعت سماعة التليفون من حجرتها وقالت:

- صباح الخير يا هاني، أخبار الشركة إيه؟!!

أجابها هاني على الفور قائلاً:

- صباح النور يا ست هانم، والله غياب الأستاذ سامح مقصر جدًا في أحوال الشركة، عندنا أكتر من صفقة مهمة ولازم الأستاذ يؤشر عليهم بالموافقة.

قالت ليلى هانم على الفور:

- خلاص أنا هتصرف، أنا هتصل بيه.

غمغم هاني قائلاً بحرج:

- أنا بصراحة إتصلت بيه، لكن مع الأسف ما ردش عليا خالص.

توترت أعصاب السيدة ليلى مع كلمات هاني ودَبَّ القلق في قلبها ولكنها تماسكت وقالت:

- خلاص يا هاني، أنا هعرف أوصل له.

شكرها هاني ثم أغلق الخط وتركها تضرب أخماسًا في أسداس خوفًا على فلذة كبدها، فرفعت سماعة الهاتف مرة أخرى وطلبت منزل والدة منال فأجابتها قائلة:

- صباح الهنا، أهلا بالست ليلى، إزيك يا أختي أخبارك إيه؟!!

ابتسمت والدة سامح على الرغم منها، لبساطة حديث والدة منال الذي يدل على الطيبة وسلامة النية قبل أن تقول:

- إزيك يا حاجة؟!! أخبارك إيه؟ مفيش أخبار عن سامح ومنال؟

أجابتها والدة منال قائلة:

- أنا كنت لسه هسألك عليهم.

تنهّدت السيدة ليلى والقلقُ يعاودها مرةً أخرى وقالت:

- سامح من أول ما سافر ما كلمنيش، فقلت ممكن يكون انشغل مع عروسته لكن السكرتير بتاعه كلمني دلوقتي وقال لي إنه اتصل بيه أكثر من مرة لكن محدش كان بيرد عليه، علشان كدة اتصلت بيكي قلت يمكن تكون منال كلمتك.

تكلمت والدة منال قائلةً على الفور:

- إنتي قلقتيني يا ست ليلى، تفتكري يكون حصل لهم حاجة أنا خايفة

أوي عليهم.

أجابتها ليلى بلهجة متماسكة قائلة:

- أنا هتصل بيهم تاني ولو محدش رد، هكلم إدارة الفندق، سامح ساب لي العنوان بتاع الفندق وكمان رقم التليفون بتاعه وأتطمّن عليهم وأطمئنك.

شكرتها والدة منال وأغلقت الخط. مباشرةً بعدها، اتصلت ليلى بابنها ولكن بلا مجيب، فطلبت رقم الفندق وسألت عن ابنها وزوجته، وعندما استمعت إلى إجابة موظف الاستقبال الروسيّ، شعرت بالأرض تدور بها قبل أن تسقط فاقدة الوعي وما تزال سماعة الهاتف في يدها، فما أجابها به موظف الاستقبال كان عبارة عن صاعقة مدويّة، وغير متوقعة.

****

مِمّا لا شك فيه أن وفاةَ ثلاثةٍ من أقوى رجال الاقتصاد في مصر في توقيتٍ واحدٍ لَهُو طامةٌ كبرى على ميزانية الدولة وذلك لأن الثلاثة يملكون ثُلُثَ اقتصاد مصر بلا منازع، دارت هذه الكلمات في عقل الرائد حسام وأرهقت خلايا مُخّه الرمادية بعد أن تلقى خبر وفاة مهند قبل أن يقرأ في تترات الأخبار خبر وفاة عبد العزيز تحت عجلات قطار أمريكا السريع، كان الرعب الشديد هو القاسم المشترك في الحوادث الثلاثة، كان يجلس في مكتبه بعد رجوعه من معاينة جثة طارق عندما جاءه خبر وفاة مهند فتوجه إلى هناك وعايَنَ الجُثّة التي احترقت عن بكرة أبيها.

وكما حدث مع جثة طارق لم يتوصل إلى ملابسات الحادث، ولكنه ما أن جلس في مكتبه واحتسى فنجان القهوة الخالية من السكر كعادته؛ إذ يحرص على تناوله بعد معاينة أيّ حادث، اهتدى إلى أنّ السر وراء هذه الحوادث الثلاثة يكمن في طرف الخيط الوحيد بين يديه؛ السيدة التي كانت مع طارق قبل وفاته، لذلك ما إن وطأتْ قدماه إدارة المباحث العامة حتى أرسل في طلب الحارس الخاص لطارق الذي أتى إليه على الفور وأدلى بالوصف التفصيليّ لملامح السيدة التي رآها وقت الحادث إلى أحد رسامي الإدارة المحترفين فقام برسم ملامح السيدة كما وصفها الحارس ماهر تمامًا.

وعندما رأى حسام الصورة أرسلها إلى التحريات التي توصلت في النهاية إلى أن هذه السيدة تدعى إحسان شوكت، أرملة رجل الأعمال المعروف جودت عبد الغفار الذي تُوفّي منذ فترة طويلة، تاركًا لزوجته ثروة طائلة بالإضافة إلى ساعات طويلة من الملل، كانت تقضيها بين النادي والحفلات اليومية مع صديقاتها من وسطها نفسه الذي تعيش فيه، كانت تملك كل شيء إلا الحب، الحب الذي ظلت تبحث عنه طوال حياتها ولكن مع الأسف لم تعثر عليه حتى مع زوجها الذي تزوجته كي تعيش عيشة رغدة ناعمة، ولكنها اكشفت بعد ذلك أن المال لا يصنع الحب، فبدأت تبحث عنه خارج الأسوار التي أحاطها بها زوجها خوفًا عليها من أعين الحاقدين والحاسدين، فالتقت بطارق

في إحدى الحفلات التي أقامها زوجها في فيلته وأسَرَها كلامُه الرقيق وأسلوبه في التعامل، فوقعت في حبائله وأحبته. دعاها للخروج معه أكثر من مرة فتمنّعت بحُجّة أنها امرأة متزوجة فأطلق عليها ذراعه الأيمن (خليل) الذي أخذ يتودّدُ إليها في الوقت نفسه الذي تُوُفي فيه زوجها وأزيلت الأسوار والقيود من حولها فانطلقت ترفرف بجناحيها كطيرٍ ظلّ طوال حياته محبوسًا في قفصٍ من الذهب الخالص حتى جاءت اللحظة التي أزيلت جدران القفص وانطلق الطير وأتى إلى صيّاده بنفسه، إلى طارق، ولكن مع الأسف لم تجده من أهل الدنيا، اعتدل الرائد حسام في مقعده والتقط منديلاً ورقيًّا من علبةٍ صغيرةٍ موضوعةٍ على مكتبه وناوله إلى إحسان كي تمسح دموعها التي سالت بغزارة بعد أن انتهت من حديثها عن حياتها وعن علاقتها بطارق، أطرق حسام برأسه ثم قال بحزم:

– مدام إحسان إنتي متهمة بقتل الأستاذ طارق، إيه ردك على الإتهام ده؟

انهارت إحسان تمامًا عندما سمعت هذا الاتهام وقالت من بين دموعها:

– والله العظيم ما قتلته، أنا جيت لقيته مقتول.

مال حسام إلى الأمام وهو يحدّق في عينيها مباشرة ويقول بصرامة:

– تعرفي إيه عن مهند وعبد العزيز؟

صمتت قليلاً لتتذكر الاسمين قبل أن تتهلل أساريرُها وكأنها وجدت النجاة في هذين الاسمين:

- دول أعز أصحاب لطارق كان حكى لي عنهم قبل كده، واتقابلت معاهم في حفلة عشاء مع جوزي في أول معرفتي بطارق. ممكن حضرتك تستدعيهم وتسألهم عني وهُمّ هيأكدوا كلامي ويقولوا لك إني عمري ما أرتكب جريمة زي دي.

قام حسام من مقعده ودار حول مكتبه قبل أن يجلس على الكرسيّ المواجِه لإحسان ويقول بهدوء قاتل:

- مستحيل نقدر نستجوبهم يا مدام.

رفعت رأسها إليه بتساؤل وقالت:

- ليه؟

أجابها وهو يضع ساقًا على ساقٍ قائلاً بهدوء:

- لأنهم ماتوا في أماكن مختلفة وتقريبًا في نفس التوقيت اللي مات فيه طارق، وبطرق مختلفة.

حدّقَت إحسان في وجهه وهي تحاول أن تستوعب هذه المفاجأة الجديدة قبل أن تقول بصوت مبحوح:

- ماتوا؟! إزاي ومين اللي قتلهم؟"

أجابها قائلاً:

- لسه التحريات شغّالة ولغاية ما نعرف كل حاجة حضرتك هتشرفينا شوية لغاية ما تِتْعرضي بكرا على النيابة.

قال عبارته ثم ضغط على زرٍّ صغيرٍ بجانبه فجاء على أثره العسكريّ الواقف أمام باب الحجرة ليؤديَ التحيةً العسكرية بقوة لحسام وهو يقول:

- تمام يا أفندم.

أشار إليها حسام وقال:

- خد المدام على الحجز.

أمسك العسكريّ ذراعَها بقوة ثم اقتادها إلى خارج الغرفة فتبعته بانكسارٍ وذلٍّ إلى خارج الغرفة تاركة حسام الذي أشعل سيجارةً وهو يقوم من مكانه ويتّجه نحو النافذة الكبيرة في الغرفة المُطلّة على الساحة الداخلية لإدارة المباحث الجنائية ليزيح ستائرها السميكة وهو يتمنى أن يزيح معها الستائر التي تغطي جميع أركان هذه القضية التي أصبحت حديث الساعة وكلِّ ساعة.

(لندن) ١٦٩٦م:

يعتبر خبز(جوفينز) من أفضل أنواع الخبزِ في (لندن) بأسرها؛ الجودةُ والمذاقُ الرائعُ والرائحةُ التي تَخلِبُ العقول هي العوامل التي تميز خبز (جوفينز) عن غيره من الخبّازين في العاصمة، حتى إن الملكَ (ويليام الثالث)[1] ملكَ بريطانيا كان لا يتناول إفطاره إلا وخبز (جوفينز) على المائدة، وَرِث (جوفينز) عن والده فرنًا صغيرًا في قلب المملكة أسفلَ منزلِ عائلته حيث تزوج بعد وفاة والده، الذي كتب الفرن باسم (جوفينز) أكبر أبنائه شريطة أن يرعى أخويْه الصغيرين (ألفريد) و(إدوارد)، وكان عند (جوفينز) مبدأ يطبّقه في حياته: "إذا أردت طعامًا فعليك بالعمل، أما إذا أردت حياةً فعليك أن تفنى من أجل عملك."

لذلك أصرّ على أن يعمل (إدوارد) و(ألفريد) معه في المخبز على أن يعطيَهم قوتَ يومِهم ويدّخِر لهم باقي النقود للمستقبل. ولقد وافق

(١) حكم الملك ويليام الثالث في الفترة من (١٦٨٩-١٧٠٢ م) ولقد كان صاحب الفضل في إدخال الكثير من التحسينات على الحكومة والمؤسسات الإنجليزية، فتمّ تأسيس بنك إنجلترا وأصلح نظام صك العملة وتحررت الصحافة من الرقابة إلا أنه كان شخصيًّا أفضل في ميدان الدبلوماسية والحرب، يحاول دائمًا اعتماد الدبلوماسية قبل اللجوء للحرب.

الصغيران على هذا حتى اشتد عودهما وأصبحا رجليْن يُعتَمد عليهما، أدار كلٌّ منهما المخبز بكل إخلاص ووفاء ولكن (جوفينز) أصرّ على أن يباشرَ ويشرفَ على كل أحوال المخبز بنفسه لا لعدم ثقته في أخويه ولكن لأنه كان دائمًا يقول إنّ صغيرَ السنّ معدومُ الخبرة، وهو دائمًا يرى الاثنين صغارًا في السن، ولكن هذا لم يكن يزعج الأخوين لأنهما لم يعملا تحت إمرة أخيهم الكبير من أجل المال فقط بل حبًا فيه وإشفاقًا عليه: حُبًّا فيه، لأنهم وجدوا فيه حنان الأب الذي افتقدوه منذ الصغر عندما رحل أبوهم عن هذه الدنيا بهدوء دون أن يسبب أيّ مشاكلٍ أو قلقٍ لأحد، عندما اكتشف إصابته بأخطر الأمراض، مرض السرطان، فأخذ يعمل ليلَ نهارَ بلا كللٍ أو مللٍ حتى يُؤَمّنَ لأولاده الثلاثة مستقبلهم، فابتاع لهم هذا المخبز الذي أصبح أحد أشهر المخابز في المملكة. وإشفاقًا عليه – أي (جوفينز)– مِن مرض النسيان، لقد كان (جوفينز) كثير النسيان بسبب كِبَرِ سِنّه بجانب المجهود غير العادي الذي يبذله يوميًا بلا شكوى، حتى وصل به الأمر إلى نسيانه لوجبات طعامه فلا يدري هل تناولها أم لا، ثم تدهور به الحال فأصبح ينسى كثيرًا من الأحداث اليوميّة والطرق الواصلة بين المدينة، لذلك أحاطه إخوته بكل الحب والرعاية حتى جاء اليوم الموعود، اليوم الذي غيّر حياة (جوفينز) تمامًا عندما استدعاه الملك بنفسه إلى القصر لأمرٍ هامٍّ، يومها فَرِحَ فرحًا شديدًا وأخبر جيرانه وجيرانَ جيرانِه بهذا الحدث

الجَلَلِ، وعندما علم أخواه بهذه الدعوة أخذاه إلى المغطس وأفاضا الماء على رأسه ثم عَطّراه بأفضل العطور والرياحين قبل أن يرتدي حُلّةَ المناسبات التي كان يحتفظ بها في دولابه الصغير لأيّ مناسبة هامة، وليس هناك أهم من مقابلة ملك إنجلترا.

دخل (جوفينز) من البوابة الكبيرة للقصر واستقبله كبيرُ الحُراس بنفسه قبل أن يصحبه إلى الوزير الذى قابله بِتَعالٍ وتحدث إليه بعدم إهتمام قائلاً:

- جاهز؟

أجابه (جوفينز) قائلاً على الفور:

- دايما جاهز.

أشار إليه الوزير بالاقتراب، ثم ألقى أوامره إليه قائلاً بصرامة:

- مولانا ما بيحبش الكلام الكتير، تسمع أوامره وتقول حاضر من غير ما تتكلم وتنفذ بالحرف الواحد، فاهم؟!!

تكلم (جوفينز) قائلاً بكل أدب واحترام:

- حاضر.

أشار إليه الوزير بالانصراف قبل أن يتراجع في مقعده ويعقد حاجبيه في تفكير عميق ويغمغم قائلاً:

- يا ترى الملك عايز الخباز الحقير ده في إيه؟؟

كان استقبال الملك لـ(جوفينز) مختلفًا تمامًا عن استقبال الوزير له فقد استقبله بكل حفاوةٍ وتقديرٍ واحترام وهو يقول:

- أخبارك إيه يا راجل يا عجوز؟؟

أجابه قائلاً:

- عايش في خير ونعمة مولاي والحمد لله.

ابتسم الملك وقال:

- دايمًا في خير ونعمة يا (جوفينز).

أنا جبتك النهارده علشان أنا عازم بكرا ملك فرنسا على العشا وعايزك تشرف على الأكل اللي هيتعمل في المطبخ الملكي، ده هيكون غير المخبوزات بتاعتك طبعًا، ولو العشا عجب ملك فرنسا هيكون ليك عندي مكافأة كبيرة أوي.

اندفع (جوفينز) قائلاً:

- أنا تحت أمر مولاي في أي حاجة يؤمر بيها، بس أنا ليا سؤال لو يسمح مولاي.

ابتسم الملك وقال:

- اسأل يا (جوفينز).

تكلم (جوفينز) قائلاً:

- ليه إخترتني أنا بالذات يا مولاي علشان المهمة دي؟ مولاي عارف إني بقيت عجوز ومجهودي بقى قليل، والمطبخ الملكي فيه طبّاخين على أعلى مستوى ولِيهم خبرات كبيرة أوي في كل أنواع المأكولات من كل بلاد العالم.

أشار إليه الملك بأن يقترب منه، فأطاعه (جوفينز) على الفورِ وأَصْغَى إلى الملك الذي قال بهدوء:

- أنا عندي أخبار إنّ في محاولة لاغتيالى بكرا في حفلة العشا، علشان كده أنا عايزك تشرف على المطعم، لكن مهمتك الأساسية هي مراقبة أي حد غريب يحاول يدخل المطبخ أو تلاحظ أي حاجة مش طبيعية في تصرفاته وتبلغني بيها فورًا أو تبلغ الوزير.

ارتجفت كل خلية في جسد العجوز (جوفينز) عندما علم بالسبب الرئيسيّ وراءَ استدعائه إلى القصر، فابتلعَ رِيقه بصعوبةٍ وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

- برضه، ليه أنا بالذات؟؟

أجابه الملك بجديةٍ:

- لإن محدش هيتوقع أبدًا إنّ (جوفينز) الخبّاز البسيط، بيشتغل لحساب الملك وبيراقب المدعوين.

لم يملكْ (جوفينز) أمامَ هذهِ الإجابة إلّا أن يقول:

- تحت أمرك يا مولاي.

ابتسَم الملكُ وقال:

- أنا كنت واثق إنك هتوافق.

تكلم (جوفينز) قائلاً:

- أنا مقدرش أرفض طلب مولاي أبدًا.

ابتسم الملكُ مرةً أُخرى لبساطةِ وإخلاصِ (جوفينز) وقال:

- أنا واثق من ولاءك وإخلاصك للمملكة علشان كدة أنا صارحتك بالموضوع كله، وزي ما وعدتك لو الموضوع انتهى على خير همنحك لقب (سِير) وهتكون من أهم رجال المطبخ.

تألّقَ وجهُ الخبّاز البسيط وقال بفرح:

- ده كتير عليا يا مولاي.

تكلم الملك قائلاً:

- مش كتير على شهامتك وأخلاقك يا (جوفينز)، يلا روح دلوقتي جهّز نفسَك وجهّز المخبوزات بتاعتك، أنا عايز الشعب كله يتكلم عن الليلة دي، عايزِها تكون من أجمل ليالي العمر.

انحنى (جوفينز) باحترام وتقديرٍ أمام الملكِ وقال:

- اطمئن يا مولاي، هتكون ليلة لا تُنسى، ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة.

قال هذه العبارة ثم انصرف من القصر كي يُعِدّ العُدّة لحفل الغَد، الحفل الذي سيغيّر تاريخ المملكة بأكملها.

****

كان مَوْكِبُ الملكِ (لويس الرابع عشر)[1] ملكِ فرنسا مَهيبًا بحقّ! حيثُ

(١) (لويس الرابع عشر): (١٦٣٨-١٧١٥م) ،حاكم فرنسا في الفترة من (١٦٦١-١٧١٥م) اشتهر بخوضه للكثير من الحروب العسكرية التي عادت على شعبه بالفقر والهوان، فكان يطعم شعبه طعامًا فاسدًا، أمّا هو فكان يرفل في الحياة الرغدة يأكل ويشرب ويمتّع جسده بعلاقاته الغرامية المتعددة وشدّة حبه للنساء ولقد جسد النجم العالمي « ليوناردو دي كابريو » شخصية ملك فرنسا في فيلم من بطولته بعنوان (The Man in the Iron Mask) ١٩٩٨م.

تقدّمَتْ الخيولُ الموكب، واصطفّ جنود الحراسة على جانبيْ الموكب حتى وصل إلى قصر الملك (ويليام) الذي كان في استقبالِ (لويس) قبل أن يصطَحِبه إلى داخل القصر، وبعد تَبادُلِ عباراتِ التّرحيب بين المَلِكَيْن، اعتدل (ويليام) على مقعده داخل قاعة الاجتماعات الكبرى في القصر، ثم ابتسم في وجه (لويس) وقال:

- أهلا بيك في بلدك يا (لويس).

تراجع لويس في مقعده وقال بغرور:

- أشكرك يا عزيزي.

تكلم (ويليام) بِجِدّيّة قائلاً:

- أخبار فرنسا إيه؟!! وأخبار شعبك إيه؟!!

أجابه (لويس) قائلاً:

- فرنسا بتزداد جمال يوم بعد يوم، فعلاً فرنسا أجمل بلاد العالم، ونساءها أجمل نساء الأرض، أمّا الشعب زي ما هو، أهم حاجة عنده الأكل والشرب.

نظر إليه (ويليام) نظرة استخفاف وقال:

- خلّي بالك، بقاء أيّ حاكم على العرش هو رعايته لشعبه، الشعب بس هو الحاكم مش الملك اللي على العرش، اهتمّ بشعبك وشوف احتياجاته ونَفّذها، هتفضل على العرش حتى نهاية حياتك.

صمت (لويس) لثوانٍ ثم قال:

- أكيد طبعًا، كلامك مظبوط.

ابتسم (ويليام) مرةً أخرى وقال:

- وكمان كفاية حروب وفتوحات، الشعب أولى بفلوس الحروب.

انتفض (لويس) واقفًا، وقال بغضب:

- أنا ما بخدش أوامر من حد، حتى ولو كان انتصر في معركة من المعارك على الجيش الفرنسيّ[1] أنا أصغر ملك اعتلى العرش[2].

ثم أشار إلى صدره وقال:

- أنا (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا، الدولة أنا.[3]

ساد الصمت قاعة الاجتماعات الكبرى بعد حديث (لويس) الغاضب فابتسم (ويليام) بهدوء وقال:

- اقعد يا لويس، أنا ما خلصتش كلامي.

جلس (لويس) على مَضَضٍ وهو يَنفُثُ الغضب من بين شفتيه فتكلم (ويليام) متابعًا:

- أنا عمري ما قَلّلْت من شأن أي ملك من ملوك أوروبا، أنا بكلمك بدافع الصداقة اللي بينا، وعلى العموم دي نصيحتي ليك بصرف النظر عن الحرب اللي كانت بينّا، وفي الآخر أهلاً بيك في بلدك الثاني.

---

(١) هزم (لويس الرابع عشر) في معركة (لاهوغ) على يد الإنجليز عام ١٦٩٢م هزيمةً ساحقةً أوقفت فتوحاتِه لفترة طويلة وانتهت المعركة بتوقيع معاهدة (رزويك) الشهيرة.

(٢) اعتلى (لويس الرابع عشر) عرش فرنسا وهو في الخامسة من عمره.

(٣) مقولة شهيرة للملك (لويس)، كان دائما يقولها في كل المناسبات: «الدولة أنا.»

هدأت أنفاس الملك (لويس) مع كلمات (ويليام) الذي تابع قائلاً:
- إنت عارف إنّي نادرًا ما دخلت في حروب مع أيّ مملكة وإنّي دايمًا بطبّق مبدأ السياسة في تعاملاتي مع الجميع، علشان كده بكلمك من الناحية دي، وعلى العموم ما تزعلش مني ويا ريت تتفضل معايا علشان الحفل جاهز.
أومأ (لويس) برأسه موافقًا وقال:
- وأنا تسعدني نصيحتك دايمًا يا (ويليام)، ويسعدني أكتر استضافتك لي في قصرك الرائع."
رَبّتْ (ويليام) على كتف (لويس) بِوُدٍّ وهو يشير بيده قائلاً:
- أهلاً بك في أيّ وقت.
سار المَلِكان جنبًا إلى جنب في رُدُهات القصرِ، يتبعهم الوزراءُ والحراسُ وكبارُ رجالِ الدولة إلى مائدة العشاء التي اصطفّ عليها كل ألوان الطعام والشراب الإنجليزيّ والفرنسيّ، لقد تفوّق (جوفينز) على نفسه في إعداد الطعام والإشراف عليه بجانب الخبز الرائع الذي يحمل بَصْمَته بجودة لا يضاهيه أحد في المملكة عليها.
جلس (لويس) و(ويليام) على المائدة الكبيرة مع الوزراء والمقربين ونساء المملكتين، عندما بدأ الجميع بتناولِ الطعام صمتَت العقول وانتبهت البطون فلم يُسمَعْ إلا أصواتُ الملاعقِ والسكاكينِ واصطدامها بالأطباق. عندما انتهى الجميع من تناول الطعام جلسوا

في بهو القصر يستمعون إلى مقطوعةٍ موسيقيةٍ شهيرةٍ، اقترب رجلان برأسيهما من بعض وقال أحدهما بخفوت:

- ها إيه الأخبار؟!!

تلفّت الرجل الآخر حول نفسِه قبل أن يقول:

- أنا مراقب كل تحركاته، وهننفذ خطتنا في اللحظة المناسبة.

تكلم الرجل الآخر بتوترٍ قائلاً:

- دي آخر فرصة لينا، بعد كده مش هنعرف نعمل حاجة.

طمأنه الآخر قائلاً:

- إتطمّن، لو ما عرفناش نعمل حاجة، مفيش قدامنا غير استخدام القوة.

رَدّدَ الرجلُ الآخر باندهاش:

- استخدام القوة!

هزّ الرّجلُ رأسَه قائلاً ببطء:

- أيوا، هنقتله.

تراجع الرجلُ وعلى شفتيْه ابتسامةُ ارتياحٍ لهذا القرار الصائب بالقتل، قَتْل الرجل الذي سيتغير وجهُ التاريخ باغتياله.

لم يدرِ الرجلان أنّ هناك أذنًا تستمع إليهما باهتمام، أُذُنَ الخبّاز (جوفينز) الذي أوفى بوعده للملك (ويليام) فأخذ يسترق السمع وهو يقدّم العصائر والخمور مع باقي الخدم للسادة الحضور، وبينما هو يقترب من الرجلين انتبه إلى هذا الحديث الدائرِ بينهما فأجفلَ لثوانٍ

ولكنه تماسك حتى أنهى الرجلان حديثهما، ثم توجه إلى الملك وقدم له مشروبَه الخاصّ قبل أن يشير إليه إشارةً ذاتَ مغزًى فانتبه الملك، ثم استأذن من الملك (لويس) وذهب إلى أحد ممرات القصر حيث وجد (جوفينز) في انتظاره فبادره الملك قائلاً:

- في إيه يا (جوفينز)؟؟

اندفع (جوفينز) قائلاً:

- لقيتهم يا مولاي، عرفت اللي بيخططوا لاغتيالك.

أمسكه الملك من ذراعه بقوةٍ، وقال بلهفة:

- مين؟؟ مين يا (جوفينز)؟

أشار (جوفينز) إلى الرجلين اللذين استمع إلى حوارهما منذ قليل فعَقَد الملكُ حاجبيه بغضب وقال:

- (مانو)، و(ماندو) مش معقول! دول من أفضل المقرّبين ليّا وللبلاط الملكي.

صمت الملك مفكرًا لثوانٍ ثم قال:

- إسمع يا (جوفينز) لازم تكمل مهمتك للآخر، هتسمع اللي هقول لك عليه وتنفذه بالحرف الواحد.

أومأ (جوفينز) برأسه موافقًا وهو يستمعُ إلى أوامرِ الملك قبل أن يتحرك لتنفيذها كما أمره بها مولاه، بالحرف الواحد.

****

اندمج (ماندو) و(مانو) في حديثٍ جانبيٍّ، ولم ينتبِها إلى (جوفينز)

الذي اقترب منهما وبصحبته كبيرُ الحراس قبل أن يضع كبيرُ الحراس يده على كتفيهما ويقول بحزم:

"بعد إذنكم، الوزير عايزكم في كلمتين."

ارتجف الرجلان والتفتا إلى كبير الحُرّاس وقبل أن يتفوها بأيّ كلمة، أحاط بهما الجنود من كل اتجاه وأيديهم على أسلحتهم، فلم يملك الرجلان إلا أن يقوما من مكانهما ويتحركا بهدوء بصحبة الحراس إلى حجرةٍ جانبيةٍ. وما هي إلا لحظاتٌ حتى لحق بهم الملك (ويليام) وبصحبته الخبّاز (جوفينز)، وما إن دخل الملك إلى الحجرة حتى أغلق الخبّاز بابها بهدوء ووقف بجانب الملك الذي تطلّع إلى الرجلين وقال:

- ما كنتش أتخيل في يوم من الأيام إن أقرب الناس ليّا في المملكة يخططوا لاغتيالي.

اتسعت عينا (مانو) و(ماندو) بدهشةٍ، ثم نظر كلاهما إلى بعض بتساؤلٍ قبل أن يندفع قائلاً:

- إيه الكلام ده يا مولاي؟ الكلام ده مش صحيح.

أشار الملك إلى (جوفينز) وقال بصرامة:

- (جوفينز) سمع الحوار اللي دار بينكم والخطة بتاعتكم لاغتيالي.

ابتسم (ماندو) بعصبية وقال:

- خطة اغتيالك، مستحيل يا مولاي، ده إحنا كنا بنتكلم عليه هو، على (جوفينز).

تكلم الملك باستنكارٍ قائلاً:

- (جوفينز)؟!! تقتلوا (جوفينز) ليه؟! هو عمل إيه؟؟

قال (مانو) بسرعة:

- (جوفينز) هيكون السبب في أكبر حريق في أوروبا، حريق هيدمر نُصّ (لندن)، ولازم نمنعه بأي شكل.

أشار (جوفينز) إلى صدره قائلاً بدهشة:

- أنا!! أنا أحرق (لندن)!! مش ممكن، مستحيل.

قاطعه الملك قائلاً:

- إيه الكلام اللي مالهوش معنى ده، (جوفينز) من أفضل الرجال في (لندن)، إزاي يحرق البلد اللي عاش فيها هو وأهله وأصحابه؟

اندفع (ماندو) قائلاً:

- صدقني يا مولاي، ده اللي هيحصل بالظبط.

اقترب منه الملك ونظر في عينيه بثبات وقال بهدوء قاتل:

- تقدر تقولي عرفت إزاي بالموضوع ده قبل ما يحصل؟؟ وإيه اللي مخليك متأكد من كلامك للدرجة دي؟؟

تلعثم (ماندو) ثم نظر إلى (مانو) يسأله المساعدة للخروج من هذا الموقف الحرج، فالتقط (مانو) نفسًا عميقًا ثم قال:

- الحقيقة يا مولاي، إننا من زمن تاني غير الزمن ده، يعني ببساطة إحنا من المستقبل، وجايين للزمن ده علشان نمنع الغلطة اللي هيقع فيها (جوفينز) بأيّ طريقة.

نظر الملك إلى (مانو) ثم إلى (ماندو) لثوانٍ قبل أن يبتسم بهدوء ثم تتحول ابتسامته إلى ضحكةٍ ساخرةٍ عاليةٍ حتى دمعت عيناه من شِدّة الضحك ثم قال:

- جميل، جميل، الحكاية دي تنفع نِسَلّي بيها الضيوف بعد العشا.

قال عبارته الأخيرة قبل أن يندفع ويمسك بتلابيب كلٍّ من (مانو) و(ماندو) ويقولَ بصرامة:

- أعتقد إنّ أنسب مكان ممكن تعيشوا فيه بعد الحكاية دي هو السجن، لغاية ما أصدر أوامري بإعدامكم.

ثم صاح على كبيرِ الحُرّاس قائلاً:

- خدهم للسجن عقبال الحفل ما ينتهي، وأعلن إنه تم إحباط مؤامرة كبرى لاغتيال الملك.

أطاعه كبيرُ الحُرّاس على الفور، فأمر جنوده بالقبض على (مانو) و(ماندو) بتهمة التآمر لقتل الملك (ويليام).

(مانو) و(ماندو) اللذان أتيا إلى هذا العصر من أجل مُهمّةٍ محددةٍ، مُهمّةٍ ستُغيّر مستقبلهما، ويحملان فيه اسميْن مخالفيْن لاسميهما، اسم (سامح) و(شلينكو).

نام (جوفينز) في تلك الليلة مِلْءَ جفنيه بعد أن نال جائزته من الملك الذي أنعم عليه بلقب (سِير) وأعطاه من المال ما أسال لعابَه ولعابَ أخويه، لقد أعلن عن إحباطِ محاولةِ اغتيالٍ كاد يقوم بها اثنان من رجال

القصر (مانو) و(ماندو)، لولا مساعدة الخَبّاز (جوفينز)، ابتسم الخَبّاز الفقير عندما تذكر كلمات الملك فأوى إلى فراشه هو وأخواه (ألفريد) و(إدوارد) بعد أن احتفلوا بهذه المناسبة السعيدة، ولكن مع الأسف بعد أن أعدّ (جوفينز) خبز العشاء مع إخوته نسي أن يطفئ شعلةَ الفرنِ الصغيرةِ، وذهب إلى فراشه وراح في سباتٍ عميقٍ فامتدت النيران من الشُّعلة إلى المخبز، ثم إلى منزل (جوفينز)، ومنه إلى المنازل الجاورة، ثم إلى الحيِّ بأكمله قبل أن يكتمل الخطأُ وتحترقَ نِصفُ (لندن) بأكملها، ويعلنَ القدرُ هزيمة سامح و(شلينكو) للمرة الثالثة عبر الأزمان.

****

أطلقت (نيرفانا) ضحكةً ساخرةً وهي تتطلعُ إلى سامحٍ و(شلينكو) في شماتة قبل أن تقول:

- (لندن) تحترق.

رفع (شلينكو) عينيه ودموع الهزيمة تترقرقُ مِن مُقلتيه ليقولَ في يأس:

- إنتي خدعتينا.

نظرت إليه نظرةً ناريةً، وقالت:

- أغبياء.

انتفض سامحٌ من مكانه واندفع إليها يحاول النَيْل منها، ولكنها اختفت في جزءٍ من الثانية لتظهرَ خلفه قبل أن تقول:

- لو حاولت تعمل أي حاجة، هتكون دي نهايتك.

تسمّر في مكانه إثر هذا التهديد الواضح ثم استدار إليها، وقال بعصبية:

- إنتي عارفة إننا مستحيل نِغَيّر التاريخ، وعلى الرغم من كده بترهِقينا بمهمات في منتهى الصعوبة وإنتي متأكدة إننا هنفشل فيها.

تكلمت (نيرفانا) بهدوء وقالت:

- لما إنت عارف إنك مستحيل تغير التاريخ، قبلت المهمة ليه؟

أجابها قائلاً وهو يشير إلى منال فاقدة الوعي:

- علشان منال، علشان أثبت لها إني ممكن أعمل المستحيل في سبيل إنقاذها.

نظرت إليه بمقتٍ، وقالت تعضّ على أسنانها:

- غبي! كلكم أغبياء، هُمّه كمان ضيعوا من إيديهم انتصار كبير بسبب تسرعهم وغباءهم.

نظر إليها سامح و(شلينكو) بتساؤلٍ، قبل أن يقول (شلينكو):

- تقصدي مين بالأغبياء؟

لم تُعِرْهُ أيَّ اهتمام وهي تنظر إلى سامح وتقول باستهتار:

- المسلمين.

تحكّم سامحٌ في أعصابه بإرادةٍ فولاذيةٍ، وقال بهدوءٍ قاتلٍ:

- عُمْر المسلمين ما كانوا أغبياء.

لَوّحت بكفّها وقالت:

- إسأل التاريخ، إسأل عبد الرحمن الغافِقيّ.

رَدّدَ سامح الاسم باستغراب:

- عبد الرحمن الغافِقيّ؟ أنا عمري ما سمعت الاسم ده قبل كده.

تحرّكتْ (نيرفانا) بخطواتٍ بطيئةٍ نحوه، وقالت:

- طبعًا عُمْرك ما سمعت عنه، لأنك غبي وجاهل، عبد الرحمن الغافِقيّ هو قائد جيوش المسلمين في الدولة الأموية واللي طموحاته وأحلامه كانت مالهاش سقف، لكن جيش المسلمين خَزَلُه في أقوى المعارك اللي حارب فيها، معركة بلاط الشهداء، المعركة اللي قضت على جيش المسلمين القوي في الوقت ده، ومن بعدها بدأت الأندلس في السقوط.

تدلّى فكُّ سامح السُفليّ ببلاهة وهو يستمع إلى المعلومات الغزيرة من (نيرفانا) قبل أنْ يقول بخفوت:

- إنتي عرفتي المعلومات دي منين؟!!

أجابته قائلة:

- مش مهم تعرف أنا جبت المعلومات دي إزاي.

تكلَّمَ سامح بِحِدَّةٍ قائلاً:

- لا طبعًا، مُهِم أعرف، لأني مش مصدق أيّ كلمة من اللي بتقوليها دي، عمر المسلمين ما كانوا أغبياء أبدًا.

ابتسمت بغموضٍ، وقالت:

- خلاص إثبتْ إنّ المسلمين مش أغبياء، وحاول تنتصر في معركة بلاط الشهداء، ودي هتكون المهمة الرابعة، اهزمْ (شارل مارتل) القائد

الفرنسيّ العظيم، تنقذ منال من الموت، وخلّي بالك دي هتكون مهمة منفردة، يعني (شلينكو) مش هيكون معاك."

عقد سامح حاجبيه، وقال:

- (شلينكو) مش هيكون معايا؟!! طب هو هيعمل إيه؟؟

أجابته قائلة:

- مش شغلك، المرحلة اللي جاية كل واحد يهتم بنفسه وبس.

شَدَّ سامح جسده وقال:

- أنا جاهز.

ابتسمت (نيرفانا)، وقالت:

- جميل، لكن الأول لازم تشوف بعينك نتيجة الهزيمة الثالثة ليك إنت و(شلينكو).

ثم نظرت إلى (ميلا) الصغيرة، التي كانت تتابع الحديث بعينين خاويتين وقالت:

- نَفّذي!

لثوانٍ، لم تتحرك (ميلا) من مكانها وكأنّها لم تستمع إلى (نيرفانا) قبل أن ترفع إبرتها الطويلة الحادّة وتنظر إلى منال فاقدة الوعي وإلى (دوروف) الذي كان يطلق همهماتٍ خافتةٍ تدل على الوهن والتعب، ثم اتسعت عينا سامح و(شلينكو) بدهشة عندما فردت (ميلا) ذراعها الأيسر وغرست فيه الإبرة الحادة حتى آخرها وهي تبتسم بهدوء،

لتطلقَ منال صرخةَ ألمٍ هائلةٍ امتزجت مع صرخة (دوروف)، وكلاهما ينظر إلى ذراعه الذي انقطعت شرايينه وأوردته واندفعت منه نافورةٌ من الدماء القانية، أما (ميلا) فقد ظلّت تدفع الإبرة في ذراعها حتى نَفَذَتْ من الناحية الأُخرى، فالتقطتها ثم وضعتها في جيبها ووقفت تتطلع إلى (نيرفانا) في انتظار أيّة أوامرَ أخرى، وقد أخذ الجرح الذي أحدثته في ذراعها يلتئم ويختفي تمامًا دون أن ينزف أيّة قطرة دم، اندفع سامح نحو منال يحاول إنقاذها ولكنّ (نيرفانا) نظرت إليه نظرةً ثاقبةً ليختفي تمامًا من المكان، ليجدَ نفسَه هناكَ، في فرنسا ليخوضَ معركته الشخصية هناك لإنقاذ حبِّ عمره.. زوجته.. منال.

أمّا (شلينكو)، فقد تحرّك نحو والدِه بسرعة كي يوقف نزيف الدم الذي يندفع بغزارة من ذراعه، ولكن (نيرفانا) أشارت إليه وقالت:

- قف مكانك.

تسمّر في مكانه وأنفاسُه تتلاحقُ بسرعة، وهو ينظر إليها بِمقْتٍ، فاستطردت قائلة:

- إنت كمان ممكن تنقذ (دوروف).

نظر إليها بيأس وقال:

- إزاي؟؟

ثم أشار إليه وقال:

- ده بيموت.

أجابته قائلة:

- ما تخافش، مش هيموت.

ثم رفعت سبابتها أمام وجهها وقالت:

- بشرط.

سألها (شلينكو) قائلاً:

- شرط إيه؟؟

افْتَرّ ثغرُها عن ابتسامةٍ شرسةٍ، ثم قالت ببطء:

- تقتل عبد الرحمن الغافِقيّ، قائد المسلمين في موقعة بلاط الشهداء، تنقذ أبوك من الموت.

قالت كلماتها ولم تترك لـ (شلينكو) فرصة للاعتراض، فأشارت بيدها نحوه ليختفي من المكان كما حصل لسامح منذ قليل، إلى هناك، إلى أرض المعركة، معركة الحياة أو الموت.

حياته مقابل حياة سامح في سبيل إنقاذ من يحب في أشد المعارك قسوة على مر التاريخ معركة "بلاط الشهداء."

بلاد الغال[1]

جلس خليفةُ المسلمين هشامُ بنُ عبدِ الملك[2] على عرشه وجَالَ بِبَصَرِه في الرجال الواقفين أمامه وعلى جانبيه، حتى استقرّتا على أحد الرّجال الأقوياء الذي وقف بثبات، فابتسم الخليفة وقال:

"جهزت الجيوش يا عبد الرحمن؟"

أجابه عبد الرحمن الغافِقيّ[3]، قائد جيوش المسلمين ووالي الأندلس بصوت قويّ قائلاً:

- كل الجيوش جاهزة يا مولاي.

هزّ الخليفةُ رأسه برضا وقال:

---

(١) كانت تعرف فرنسا قديمًا ببلاد الغال.

(٢) هشام بن عبد الملك الأموي القرشي (١٢٥-٧١هجري) (٧٤٣-٦٩١م) عاشر خلفاء بني أمية، حكم في الفترة من (١٠٥-١٢٥هجري) (٧٤٣-٧٢٤م) بلغت في عهده الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على (ناربونه) وبلغت أبواب (بواتيه) في فرنسا حتى وقعت معركة بلاط الشهداء.

(٣) عبدالرحمن عبدالله الغافِقيّ والى الأندلس أخذ على نفسه عهدا بتحقيق أمنية القائد موسى بن نصير فى الفتح الإسلامى فكان يريد التوغل فى أرض الإفرنج حاملا مدنية الإسلام وحضارته إلى شعوب غرقت فى الظلام والضلال ثم ينعطف من الشرق فينفذ من القسطنطينية إلى دمشق وبذلك يعم الإسلام القارة الأوروبية.

- لسّه عايز تِحَقّق حلمك؟

ظهرَ التّأثر في عينيْ عبد الرحمن، ثم قال:

- أنا أخذت عهد على نفسي بتحقيق أمنية القائد العظيم موسى بن نصير، بأن الإسلام يعم كل دول أوروبا، وعلشان كده أنا حشدت الجيوش ومَدِّتْهم بأقوى العتاد والسلاح.

قام الخليفة من مكانه بهدوءٍ وعظمةٍ ثم وقف أمام قائد الجيوش ووضع يده على كتفه، وقال:

"ربنا معاك."

تردّد صدى هذه الكلمات في عقل الغافِقيّ وهو على صهوة جواده الأبيض الشاهق يقود جيوش المسلمين إلى مدينة (بواتيه) الفرنسية. لقد حشد الغافِقيّ أكبر جيش أمويّ داخِل الأندلس حيث انطلق من سَرَقُسْطة نحو قطونية وهو أقرب أقاليم الأَندلس إلى بلاد الغال، فعمل على تقوية هذا الثَّغْر وقَتَل الثوار فيه، ثم تحرك إلى (سباتامانيا) فعزّز من وجود الحاميات فيه وعاد بعدها إلى (بنبلونة) في شمال (أيبيريا) فانطلق منها وعبر ممر (رونسفال) إلى جبال المعابر، وكان هدفه (أقطانيا)، ومنها سار شمالاً ثم في الاتجاه الجنوبيّ الشرقيّ نحو (آرل) فأعاد فتحها وحَصّنَ المسلمين فيها ثم عاد إلى (أقطانيا) حيث كان (أودو) دُوق (أقطانيا) قد جمع جيشًا قاتل به جيش الغافِقيّ في معركة نهر الجارون، حيث انتصر المسلمون. بعد هذه المعركة فتح

الغافِقيّ (أقطانيا) بالكامل بما في ذلك مدينة (بوردو) عاصمتها[1] ثم ها هو على أعتاب (بواتيه)، رفع يده اليمنى فتوقّف الرَكْبُ قبل أن يهتف مساعدُه قائلاً:

"هنعسكر هنا."

بدأ الجنود في بناء الخِيام وإعداد النّيران للمبيت، في الوقت نفسه سار الغافِقيّ بجوار مساعده الأول زيدٍ ليتفقّد المكان الذي استقر فيه جيشه قبل أن يتوقف ويقول:

- بكرا إن شاء الله، هنبدأ المعركة وهندخل (بواتيه).

تكلم زيدٌ قائلاً:

- إن شاء الله، وبعد كده نتقدم أكثر لغاية ما ندخل فرنسا ودول أوروبا كلها.

تحسّس الغافِقيّ مقبض سيفه في غمده وكأنّه يستمدّ منه القوة، ثم قال:

- بعد ما ندخل (بواتيه)، هناخد هُدنة علشان نحصن المدن اللي فتحناها وكمان علشان تكون ثغرًا للمسلمين، ثم إن عدد الجنود اللي موجودين معانا دلوقتي مش هيكفي أي فتوحات في الوقت الحالي.

هزّ زيدٌ رأسه مؤيّدًا لكلام الغافِقيّ وقال:

- بعد المسيرة الطويلة اللي قطعناها لغاية هنا، الجنود تعبوا جدًا ولازم يرتاحوا.

عَقَدَ الغافِقيّ كفيّه خلف ظهره، وقال بصرامة:

- أهم حاجة عندي هي راحة الجنود يا زيد، علشان يقدروا يحاربوا في سبيل الله ولإعلاء كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

---

(١) حقائق تاريخية.

سَرَتْ قشعريرةٌ سريعةٌ في جسد زيدٍ وهو يستمع لكلمات الغافِقيّ المؤثرة قبل أن يتنفس بعمقٍ ويقول:

- إن شاء الله كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هتلف الكرة الأرضية كلها.

ابتسم الغافِقيّ بهدوء وقال:

- وما هي إلا ساعات قليلة ويَنقضّ المسلمون على أسوار مدينة (بواتيه) بقوةٍ وجَسَارةٍ ليزيلوا الأسوار ويفتحوا الديار أمام جيش المسلمين الباسل، ليُسجّلَ التاريخ أن مدينة (بواتيه) انضمت للخلافة الإسلامية.

****

"أوروبا بتضيع."

نطق قائدُ فرسانِ البلاط الملكيّ بهذه العبارة أمام قائده الأعلى (شارل مارتل) قائد جيوش الغال فأحمرّ وجهُهُ بغضب، وضغط على أسنانه حتى كاد يحطمها، ثم قال:

- المسلمين لازم يدفعوا الثمن.

قال هذه العبارة ثم قام من مكانه، ثمّ قال وهو يفكر فيما آلَ إليه أمرُ (بواتيه) على يد المسلمين:

- لازم نوقف زحف المسلمين لأوروبا.

تكلم قائد الفرسان قائلاً:

- لو دخلوا بلاد الغال، هتضيع أوروبا كلها، بس المشكلة إننا صعب

نواجههم لوحدنا، لازم كل جيوش أوروبا تتحد لمواجهة المسلمين.

لوح (شارل) بكفّه في ضجرٍ، وقال:

- مع الأسف مفيش دُوَل كتير وافقت على الاتحاد، وده هيكون سبب في انهيار أوروبا وكسر الصليب.

صمت قليلاً ثم أكمل قائلاً:

- مفيش غير البرغنديين[1]. همه اللي معانا، وأنا هجازف وهدخل المعركة، من أجل الصليب.

لم يعلّق قائد فرسان البلاط على كلام (شارل) ولكنّه كان على يقينٍ من صدق كلامه، فقد كان يعلم علم اليقين أن (شارل) من الرجال الذين يثقون بقدراتهم لأبعدِ مدًى، وأنّ المرحلة القادمة ستكونُ ناريّة.

****

وقف (شارل مارتل) أمام مائدةٍ كبيرةٍ موضوعٌ عليها خريطةٌ كبيرةٌ لأوروبا، وحوله قائد فرسان البلاط الملكيّ ومن حوله جنوده بانتظار أوامره بشأن الغافِقيّ وجيشِ المسلمين الذي أوشك على اجتياح أوروبا بأكملها، أمسك (شارل) بعصًا صغيرةٍ وأشار بها إلى جزءٍ صغيرٍ على الخريطة وقال بِجدّيّة:

- دلوقتي المسلمين متحصنين في منطقة (تور) ومن الصعب إننا نهاجمهم هناك لإنهم بكامل قوّاتهم وعتادهم وهيكونوا مِتحَفّزين لأي

(١) هم قبيلة شرق جرمانية هاجرت من إسكندنافيا إلى جزيرة بورنهولم والتي تدعى بالنوردية القديمة جزيرة البرغنديين، ومن هناك هاجروا إلى أوروبا.

هجوم من ناحيتنا، فأنا شايف إننا نستدرجهم لِلسّهْلِ ده.
ثم أشار إلى نقطةٍ أخرى على الخريطة، وهو يكمل حديثه قائلاً:
- سهل عند نهر (اللوار).
تكلم قائدُ فرسانِ البلاط قائلاً:
- تفتكر ممكن نستدرجهم إزاي؟!!
وضع (شارل) يديه في وسطه كعادته كلما حسم أمرًا ما[1] وقال:
- هنبعت قوات صغيرة من المرتزقة للضفة الشرقية للنهر، والقوات دي هتعمل مناوشات مع جيوش الغافِقيّ وبعدين ترجع تاني، وبالتالي الأمر ده هيوصل لقائد المسلمين اللي هيخرج بجيشه للمكان ده علشان يقضي على الجيش بتاعنا، لكن الحقيقة إن إحنا اللي هننقَضّ عليه ونسحقه هو وجيوشه.
ابتسم قائد فرسان البلاط لبساطة خطة (شارل) وقال:
- طب باقي الجيش بتاعنا هيكون فين؟
هزّ (شارل) رأسه بوقارٍ وقال وهو يَفْرِد ذراعيه ويشير إلى الخريطة مرةً أخرى ويرسمُ دائرةً وهميةً بِعَصاهُ الصغيرةِ على السَّهلِ الذي أشار إليه منذ قليل:
- قواتنا هتحيط بقوات الغافِقيّ من كل اتجاه بحيث يقع في الفخ اللي نصبته له، وننقضّ عليه مرة واحدة.

(١) حقيقة كانت هذه الحركة من عادات القائد شارل مارتل.

ثُمّ ضمّ قبضَتَه بقوةٍ وعيناه تبرقان بقوةٍ تكفي لإضاءة المكان بأكمله، لقد كان واثقًا من نفسه ومن قدراته إلى أبعد مدى.

****

انتهى الغافِقيّ من أداء صلاة الفجر ثم التفت إلى جنوده وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردّ الجنود السلام بصوت جَهْوَريّ، ثم انتبهوا لكلمات قائدهم الذي اعتاد أن يلقيها عليهم قبل أيّة معركة يخوضونها ليزيد من حماسهم وقوتهم في ملاقاة أعداء المسلمين، ولكن في هذه المرة، كان صوت الغافِقيّ يحمل رنّة حزنٍ عميقٍ، حزن القادم إلى الموت، فعلى الرغم من أنّ الغافِقيّ لم يَهَبْ من الموت ولم يَخَفْ منه في أيّة معركة خاضها، إلّا أنّه هذه المرة يشعر بدنوّ الأجل، فالتقط نفسًا عميقًا وقال:

"كل واحد منكم ساب بيته وأولاده أمانة في يد المولى -عز وجل- علشان يرفع راية الإسلام على الكرة الأرضية كلها، ده الهدف الأسمى، فتح أوروبا بالكامل كان حلم القائد موسى بن نصير وبعد كده تستمر الفتوحات الإسلامية لغاية ما يذكر اسم الخالق -عز وجل- في كل أرجاء الكون على لسان الموحدين."

ثمّ صمت قليلاً واغرورقت عيناه بالدموع، وقال بصوت خفيض:

"ممكن تكون دي آخر مرة أتكلم معاكم فيها، فيا ريت كل واحد منكم يدخل المعركة وفي قلبه يقين بإنه ممكن ما يرجعش لأهله، لازم يكون

عندك يقين بأنّ الإسلام أولاً، الإسلام وبعده أي شيء يهون، إسلامك هو حياتك."

أنهى كلماتِه ثم رفع قبضته اليمنى وقال بصوتٍ قويٍّ:

"الله أكبر."

رَدّدَ الجنودُ خلفَه:

"الله أكبر."

أخذت الكلمة تتردد بصدًى قويٍّ في المكان وتُدَوّي في كل الأماكن المحيطة بالغافِقيّ وجنوده، إذ اندفع أحد مراقبي الحدود إلى الغافِقيّ وانتحى به جانبًا ثم قال بصوتٍ لاهثٍ:

- الفرنجة على الحدود.

انتفض الغافِقيّ وقال:

- على الحدود !! في أي جهة؟!!

أجابَه المراقبُ وهو يبتلعُ ريقه بصعوبة:

- على الحدود الشرقيّة من نهر (اللوار).

أشار الغافِقيّ إلى مساعِدِه الأوّلِ زيدٍ، فأتاه على الفور وقال:

- أمر مولاي.

وضع الغافِقيّ يده على كتف زيدٍ وقال:

- المراقبون رصدوا تحركات الفرنسيين عند نهر (اللوار)، ابعث قوات استطلاع للضفة الشرقية وخليهم يعرفوا عددهم ويحاصروهم

ويبلغوني فورًا.
هزّ مساعدُه رأسَه موافقًا ثم انطلق لينفذ الأمر، الأمر الذي سيحسم المعركة بأكملها.

****

أطلق (شارل مارتل) ضحكةً عاليةً ظافرةً، وهو يستمع إلى أحد مراقبيه، الذي ينقل له أخبارَ مجموعاتِه القتاليّة الصغيرة التي اشتبكت مع قوات المسلمين، وأخبار الغافِقيّ الذي يجهّز الجيش بأكمله ويستعدُّ للخروج لقتال هذه المجموعات والقضاء عليها، استمرت ضحكته العالية نصفَ دقيقةٍ كاملةٍ قبل أن يقول:
"أخيرا ظهرت يا غافِقيّ."
قال عبارته ثم التفت إلى قائد فرسان البلاط الواقف بجانبه وقال:
- إدّي الأوامر للقوات تِجْهَز وتستنى إشارة الانقضاض مني و....
قاطعه دخول أحد المراسلين وهو يقول:
- رسالة هامّة.
مدّ (شارل) يده إلى المراسل فأعطاه الرسالة، فَضّها (شارل) بهدوءٍ ثم تنقّلت عيناه بين سطورها، قبل أن تتهلل أساريره ويقول:
- الظاهر إنّ نهايتك قرّبت يا غافقيّ.
ثم لوّح بالرسالة في وجه قائد فرسانِ البلاطِ، وقال:

- (أودو) قرّر مساندتنا[1]، وعدد كبير من قواته في الطريق علشان تنضم لجيشنا ضد المسلمين.

اقترب قائد الفرسان والتقط الرسالة من يدِ (شارل) وقرأ كلماتِها بسرعة قبل أن يرفع عينيه إلى شارل، ويقول:

- مش ممكن (أودو) يعمل كده، ده تصرف نبيل أوي منه.

قام شارل من مكانه ثم سار الهُوَيْنى في أرجاء خيمته الضخمة التي أعدّها لتكون مركزًا لقيادة المعركة، وقال:

- (أودو) فارسٌ نبيلٌ، ويعرف يعني إيه دخول المسلمين لأوروبا علشان كده ساب كل الخلافات اللي بينّا وقرر الانضمام لجيوشنا لمواجهة الزحف الإسلامي لبلاد الغال.

قال كلماته ثم التفت إلى قائد الفرسان، وقال بلهجة آمرة:

- جهز فرسان البلاط وسيب أربعة منهم لحراسة الجناح الملكيّ والحقني هناك، عند نهر (اللوار) علشان نتلذذ بأكل لحم المسلمين.

****

اختلط الحابل بالنابل في أرض المعركة، وتساقط العشرات من الفرنسيين على أيدي المسلمين، لقد انقضّ (شارل مارتل) بجنوده على الغافِقيّ وجيوشه من كل مكان، كانت خطة القائد الفرنسيّ تعتمد

(١) اختلف (شارل مارتل) مع (أودو) أحد قادة الجيوش الفرنسية والمنافس الأول لمارتل في عدة أمور خاصة بالجيش الفرنسي ولكن (أودو) قرر مساندة (مارتل) عند مواجهته للمسلمين ونبذ كل الخلافات التي بينهما.

على إحاطةِ المسلمين إحاطةَ السُّوار بالمِعصَم ثم الانقضاض عليهم انقِضاضةَ رجلٍ واحدٍ، ولكنّه لم يأخذْ بالاعتبار أنّه يقاتلُ داهيةَ حربٍ بمعنى الكلمة، لقد تنبّأ الغافِقيّ بخطة (شارل) وتوقّعها، فتركه يُحيطُ بجيش المسلمين حتى يوقعَهم في الفخ وهو لا يدري أن الغافِقيّ قد أرسل نصف الجنود فقط، أما النصف الآخر فهو الذي أحاط بالجيش الفرنسي بشكلٍ دائريٍّ لِيَضَعَه بين المِطرقة والسّندان قبل أن ينقضّ عليه ويبدأ بإبادته تدريجيًّا.

ولكنّ (شارل) لم يكن بالقائد الذي يستهان به، لقد لاحظ أن جيش المسلمين يتكون من عدد كبير من البربر[1] الذين كان هَمّهم الأساسيّ جمع الغنائم، فأرسل مجموعةً قتاليّةً إلى أماكنِ الغنائم الخاصّة بالمسلمين كي يلفت انتباه البربر إليهم، وبالفعل ترك البربرُ أماكنهم الحساسة في قلب المعركة لحماية الغنائم، وكان هذا ما يريده (شارل)؛ لقد انقضّ بكل قوّتِه مع ما تبقى معه من الجنود على الجزء الذي تركه الجنود المسلمين من أرض المعركة ليُباغِتَ جيش المسلمين. وكما حدث في غزوة أُحُدٍ للمسلمين وكانت الهزيمة من نصيبهم عندما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- رُماةَ الأسهم ألّا يغادروا أماكنهم في أعالي الجبال حتى لا يباغتهم الأعداء، لم يَنْصَعْ الجنود لأوامر الرسول الكريم فكانت الهزيمة، وهذه كتلك؛ فكانت الهزيمة هنا أيضًا لجيش الغافِقيّ، فانطلق إلى القبائل البربريّة يناديهم بالعودة إلى

(١) البربر قبائل إسلامية أفريقية من بلاد المغرب العربي، يعرفون اليوم بالأمازيغ.

أماكنهم وحماية جيش المسلمين، ولقد حاول (شارل مارتل) الوصول إليه لِقَتْلِه، ولكن الغافِقيّ كان يتحرك برشاقة ومهارة، فَعَقَدَ (مارتل) حاجِبيْه في غضب ثمّ أمرَ رُماة الأسهم بقتل الغافِقيّ لأنه هو الشخص الوحيد القادر على إعادة صفوف المسلمين إلى توازنها مرة أخرى.

ارتكز أحدُ رماةِ الأسهم وشدّ وترَه عن آخره والتقط نفسًا عميقًا وهو يسدِّدُ سهمًا مسمومًا إلى قلب البطل، قلب الغافِقيّ، فأصبح الموت أقرب من حبل الوريد.

****

عندما رأى عبد الرحمن الغافِقيّ جنود البربر يتركون أماكنهم، انطلق يناديهم بالعودة إلى الصفوف مرة أخرى، ولكنهم كانوا منتبهين إلى الغنائم دون غيرها، فانقضّ الغافِقيّ بمفرده وبشجاعةٍ منقطعةِ النظير يقاتل جنود الفِرَنجة الذين اتجهوا نحو غنائم المسلمين، كانوا عشرة من أشرس جنود (شارل مارتل) لديهم أوامرُ محددةٌ بتشتيت انتباه البربر بأخذ غنائمهم، ولقد نجحوا في ذلك إلا إنهم فوجئوا بالغافِقيّ وسطهم، وسيفه يطيح بهم واحدًا تلوَ الآخر، وهو يصيح في البربر قائلاً:

"خدعة، ارجعوا للصفوف."

أخذ يردد هذه الكلمات وهو يشتبك مع جنود العدو بجَسارةٍ تستحق الإعجاب، حتى احتَبَسَت الكلمات في صدره فجأةً واتسعت عيناه في ألمٍ رهيبٍ وهو ينظر إلى موضع الألم، ليجد سهمًا قويًّا قد انغرس حتى

آخرِه في موضع القلب فافترّ ثَغره عن ابتسامةِ ألمٍ قبل أن يسقط عن فرسه لتمتزج دماؤه الطاهرة بترابِ أرض المعركة وهو ينطق الشهادتين قبل أن يلقى ربه شهيدًا صائمًا[1]، لِيَدِبَّ الهَرَجُ والمَرَجُ بين صفوف المسلمين لينتهي هذا اليوم من المعركة بهزيمة المسلمين واستشهاد الغافِقيّ، ثم جاء الصباح لينقضّ (شارل مارتل) بجنوده على من تبقّى من جنود المسلمين ويذبحَهم كالنعاج وهُمْ نِيامٌ ثم يلقي بجثثهم في قلب المعركة ليمتلئ بلاط المعركة بالشهداء[2] ولينال شارل مارتل لقب المطرقة (Martellus)، وذلك لقوة ضرباته الموجعة التي قَضَتْ على جيوش المسلمين ومنعت الزحف الإسلاميّ إلى أوروبا، كما حصل أيضًا على أرفع الأوسمة القتالية. كانت سعادتُه لا توصف لأنه انتصر انتصارًا مزدوجًا بقضائه على الغافِقيّ وإنقاذِه لوالده.... (دوروف).

---

(١) وقعت معركة بلاط الشهداء في أواخر شهر شعبان واستمرت لتسعة أيام، ولقد توفي الغافِقيّ في اليوم الأول من شهر رمضان.

(٢) أطلق المؤرخون على هذه المعركة اسم بلاط الشهداء لكثرة شهداء المسلمين في هذه المعركة التاريخية.

(تْشِرنوبِل):

ارتفع صوت طرقاتٍ قويةٍ على باب حجرة دكتور (إيفان)، رئيس وَحْدَة الطاقة الذريّة في المفاعل النوويّ الروسيّ (تْشِرنوبِل)، فرفع عينيه عن الملف الضخم الذي يطالعه ونظر إلى الباب، ثم قال بحزم:

- أدخلْ.

دَلَفَ إلى الحجرة شابٌ طويلُ القامة، متينُ البنيان، أزرقُ العينين، أشقرُ له شعر ناعمٌ كثيفٌ، يرتدي "بالطو" أبيضَ، ويمسك بيده ملفًا ضخمًا، تقدم من (إيفان)، قائلاً بودّ:

- صباح الخير.

أفترّ ثَغرُ (إيفان) عن ابتسامةٍ هادئةٍ، قبل أن يقول:

- صباح الخير (أندروفيتشي)، ها إيه الأخبار؟

وضع (أندروفيتشي) الملفّ على مكتب (إيفان)، ثم جلس بلا استئذان، وقال:

- كله تمام، المرة دي مفيش أخطاء.

فتح (إيفان) الملفّ وألقى نظرةً على محتوياته قبل أن يقول وهو يبتسم بارتياح:

- أخيرًا.

تكلم (أندروفيتشي) قائلاً بحماس:

- قضبان الكادميوم والبورون هي الحل، هي اللي هتقدر تهدّي من سرعة المفاعل أو توقّفه خالص لو ما قدرناش نسيطر عليه.

تراجع (إيفان) في مقعده وقال بهدوء:

- بلِّغ قسم المراقبة يوقفوا استخدام أعمدة الكربون، لأنها هي السبب في المصيبة اللي هتحصل، وعايزك كمان تحط عينك على المهندس (لوزسكي) لأنه هو المسئول عن نظام التحكم في المفاعل كله.

هز (أندروفيتشي) رأسه مؤيدًّا لكلام رئيسه قبل أن يقول:

- حاضر.

صمت قليلاً ثم استطرد قائلاً بتوتر:

- تفتكر هننجح المرة دي؟

تنهّد (إيفان) وقال:

- لازم ننجح. دي آخر فرصة، مفيش أي أمل بعد كده، لازم ننتصر في الجولة دي.

قلب (أندروفيتشي/ شلينكو) شفتيه بملل وقال:

- بس يا ريت هي توفي بوعدها، إنت عارف (نيرفانا) مالهاش كلمة.

تنهد (إيفان/ سامح) بيأسٍ، وقال:

- عندك حق، في الأربع مهمات اللي فاتوا خدعتنا وإحنا مع الأسف صدقناها لدرجة إنها كانت عايزانا نقتل بعض في معركة بلاط الشهداء.

سرح (شلينكو) بأفكاره إلى اللحظة التي شاهد فيها سامح الذي كان يمثل قائد جيوش المسلمين في أشرس المعارك على مر التاريخ عبد الرحمن الغافِقيّ وهو يُضرب بسهم قاتلٍ في موضع القلب تمامًا على يد أحد جنود (شارل مارتال) الذي كان يُجَسّدُه (شلينكو)، ثم شاهده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في قلب المعركة، وقتها تنفس الصعداء وهو يجهّز نفسه للخلاص من قيد (نيرفانا) المحكم حول رقبته ورقبة والده (دوروف)، لقد تقدم منها ونظر في عينيها قبل أن يقول بظفر:

- قتلْتُه.

ضحكت (نيرفانا) ضحكة ساخرة قبل أن تحرّك سبابتها اليمنى دلالة على النفي وقالت بشماتة:

- مش إنت اللي قتلته، ده واحد من الجنود هو اللي نال الشرف السامي ده.

عَلَتْ حُمرة الغضب وجه (شلينكو) وقال بحدة:

- المهم إنه مات، إنتي ليه دايمًا بتخلفي وعدك.

تكلمت (نيرفانا) بِحِدّةٍ مُماثلةٍ وقالت:

- مفيش وعود مع مجرمين زيكم، أنا قلت لك إنت اللي تموته بإيدك مش حد تاني.

أشار (شلينكو) إلى صدره وقال بدهشة عارمة:

- أنا...أنا مجرم.

قلَبَت (نيرفانا) شفتيها بامتعاض وقالت:

- ابن المجرم، مجرم زيه بالظبط.

لوّح (شلينكو) كفه اليمنى بغضبٍ وقال:

- ليه؟!! ليه أشيل ذنب عمله أبويا من سنين؟؟

أجابته قائلة:

- ذنب الآباء يَرِثُه الأبناء.

تحرّك (شلينكو) في المكان وهو يقول بهيستيريا:

- غلط، غلط.

أشارت (نيرفانا) إلى (دوروف) الغائب عن الوعي في ركن قَصِيٍّ من المكان وقالت:

- ذنب أبوك هتحمله فوق رأسك ليوم الدين.

ثم أشارت إلى منال الغائبة بدورها عن الوعي وقالت بِغِلٍّ:

- زي منال ما هتحمل الذنب اللي جوزها عمله في حياته ودمر حياة أختي.

تلفّت (شلينكو) حوله وقال:

- هو فين سامح؟!!

صفّقت بكفيها ليظهر سامحٌ فجأة في المكان والدماء تنزف من موضع إصابته في القلب وعلى وجهه تظهر علاماتُ الإعياء الشديد، اندفع إليه (شلينكو) وأمسك به قبل أن يقع على الأرض وهو يضع يده على قلب سامح محاولاً إيقاف النزيف بلا فائدة، ابتسمت (نيرفانا) بتَشَفٍ وقالت:

"سيبه، مش هتقدر تعمل له حاجة، خليه يذوق العذاب، ويحس بسكرات الموت."

كان سامحٌ يعاني بالفعل في هذه اللحظة من سكرات الموت، لقد كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديْ (شلينكو)، حتى إنّ عينيه تحجّرتا وانخفض نبضه لأبعد مدى، وعمّ شعورٌ باليأس في المكان، لقد آن لأحدِ أفراد اللعبة أن يغادر الملعب وبلا رجعة.

****

انتفض جسد سامح انتفاضة قويّة على سريره الخاص في المستشفى العام بموسكو، وانطلق صفيرٌ ثابتٌ من جهاز المتابعة المتصلةِ أسلاكُه بجسده في الوقت الذي ثَبَتَ فيه خطّ إشارات المخّ معلنًا أن الشخص النائم لم يعد ينتمي لدنيانا، نظرت والدته التي جاءت هي ووالدة منال ووالدها إلى روسيا على الفور عندما أخبرها مسئول الفندق عن وقوع حادث مؤلم لولدها ولزوجته فاستقلت طائرتها الخاصّة هي وأهل منال إلى روسيا على الفور، لتكون بجانب ابنها في أزمته، وها هو ينتفض بين يديها ثم يعلن الجهاز المتصل به أنّه غادر الدنيا فعقدت حاجبيها ثم وضعت يدها على جسده وأخذت تدفعه برفقٍ وهي تنطق اسمه بلوعةٍ وحزنٍ، ودموعُها لا تتوقف عن الانهمار، لكنّ جسده لم يستجِبْ لأيِّ مؤثّر، فاندفعت خارج الغرفة تستنجد بأيّ أحدٍ، فإذا بإحدى الممرضات تُهرَع إليها بعد أن شاهدت ما يحدث في حجرة

سامح من غرفة الممرضات التي تقيم فيها أثناء أداء وَرْدِيّتها اليومية. استقبلتها والدة سامح بعينين زائغتين فتجاوزتها الممرضة إلى داخل الغرفة، ثم التقطت ذراع سامح اليمنى لتقيس النبض قبل أن تعقِد حاجبيها وتترك ذراعه لتندفع مغادرة الغرفة بسرعة وما هي إلّا ثوانٍ حتى عادت مرة أخرى ومعها الطبيب المعالج الذي أمسك بذراع سامح هو الآخر ونظر في ساعته للحظات قبل أن يلقي أمرًا ما للممرضة التي خرجت مرة أخرى من الغرفة، ثم عادت بسرعة وفي يدها جهاز الصدمات الكهربية، كل هذا حدث أمام عيني والدة سامح الذاهلتين التي وضعت كفّها على فمها لتمنع صرخةً قويةً تجاهدُ كي تنطلق من حلقها إلى الخارج معلنةً عما يَعتَمِل في داخلها من آلام وعذابٍ على ما يحدث أمام عينيها لابنها الغالي. وضع الدكتور جهاز الصدمات على صدر سامح ثم ضغطه بقوة فانتفض جسد سامح انتفاضةً قويةً قبل أن يعود إلى سكونه مرة أخرى، عاود الدكتور المحاولة مرة أخرى ولكنْ بلا فائدة، فوضع الجهاز جانبًا بيأسٍ ثم أطرق رأسه قليلاً قبل أن يلتفت إلى والدة سامح وفي عينيه نظرة يأس، ولقد فهمت والدة سامح رسالة الدكتور الصامتة فأرخَتْ كفّها عن فمها لتُفسِح مجالاً للصرخة المكتومة في حلقها كي تنطلق في كل مكان بالغرفة، صرخة تحمل كل الحزن والفزع على فلذة كبدها... سامح.

****

" فرصة أخيرة "

نطق (شلينكو) بهذه العبارة وهو يحتضن رأس سامح الغائب تمامًا عن الوعي، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يتوسل إلى (نيرفانا) أن تمنح سامحًا فرصة أخيرة، فرفعت حاجبيها بتعجبٍ ثم قالت:

- إنت غريب قوي، إزاي عايز تديله فرصة تانية وإنت اللي أمرت بقتله في المعركة.

وضع (شلينكو) رأس سامح على الأرض برفق ثم انتصب واقفًا وقال:

- الوضع دلوقتي مختلف، في المعركة كنت همّوته علشان أنقذ نفسي وأنقذ أبي، لكن دلوقتي أعلنتي هزيمتنا. يبقى أنا محتاج سامح معايا، دي آخر فرصة لينا.

نظرت في عينيه للحظاتٍ لتعطيَ نفسها فرصة للتفكير في طلب (شلينكو)، ثم قالت:

- مفيش مشكلة، من حقكم فرصة أخيرة.

قالت عبارتها ثم نظرت إلى سامحٍ وعقدت حاجبيها قبل أن تنادي عليه بصوت خافت، لا يكاد يسمع، ولكن العجيب أنّ سامحًا فتح عينيه ونظر إليها قبل أن يقوم من مكانه ويتحسس جسده الذي شفي تمامًا من كل ما كان به من إصابات، أصابت الدهشة (شلينكو) بدوره حتى إنه أخذ يتحسس جسد سامح ويتساءل كيف شُفِي سامح من إصابته؟ وهو الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه منذ قليل، والعجيب أن

كل من بالمكان عاد إليه وعيه، (دوروف)، منال، فابتسمت (نيرفانا) عندما رأت الدهشة تعلو وجوه الجميع وقالت بغطرسة:

- آخر فرصة، بعدها مش هارحم أي حد منكم.

صمت الجميع بانتظار المعلومات التي ستلقيها عليهم (نيرفانا) بخصوص مهمتهم الأخيرة التي ستعني لهم إما الحياة أو الموت، تطلعت إليهم بصمت لتستمتع برؤية اللهفة والانتظار في أعينهم قبل أن تقول:

"والمرة دي هكون كريمة معاكم لأبعد الحدود ومش هعاقب (دوروف) ولا منال في المرحلة دي، لأنهم بكل بساطة هيتمنوا الموت ألف مرة عن العذاب اللي هيشوفوه لو ما نجحتوش في مهمتكم الأخيرة."

لم يعلق أيُّ أحدٍ على حديثها مما زاد من غضبها فقالت بحدة:

"سنة ١٩٨٦ حصلت أكبر كارثة بيئية عرفها الإنسان على مر التاريخ؛ فنتيجة خطأ بسيط انفجر أكبر مفاعل نووي روسي في الوقت ده، مفاعل (تْشِرنوبِل) واللي راح ضحيته الآلاف من البشر، مهمتكم منع الخطأ بأي طريقة، وخلوا بالكم لو منعتم حدوث الخطأ هتنقذوا ناس كتير أبرياء، وكمان هتنقذوا نفسكم من جحيمي، جحيم (نيرفانا)."

ما إن أنهت كلماتِها حتى ظهرت (ميلا) فجأة وسط الجميع، ثم أشارت إلى سامح بطرف سبابتها الأيمن ليختفي من أمام الجميع وليختفيَ (شلينكو) بدوره من المكان بإشارة من طرف سبابتها الأيسر، ولا يتبقى

إلا الأسرى (دوروف) ومنال.

****

فجأةً، عاد جهازُ رسم موجاتِ المُخّ الخاصّ بسامح إلى حالته الطبيعية، عاد ليرسم موجات المُخّ بانتظام وثبات، فعقد الطبيب المعالج حاجبيه بتساؤل قبل أن يرتفعا حتى لامسا مَنبت رأسه عندما رأى شبح ابتسامة على شفتي سامح، فالتفت إلى الممرضة المرافقة له وقال باستنكار:

- إنتي شفتي اللي أنا شفته دلوقتي؟

أومأت برأسها مُؤَمّنَةً على كلامه، وفَكُّها السفلي مُدلّى ببلاهة، فالتفت إلى السيدة ليلى والدة سامح المنهارة تمامًا وابتسم قائلاً:

- ما تخافيش، ابنك هيعيش.

نظرت إليه بلهفة وقالت:

- بجد؟

ابتسم بتوتر وقال:

- هيعيش إن شاء الله، أنا هخليه ٢٤ ساعة تحت الملاحظة و...

لم يستطع أن يكمل حديثه عندما اندفعت إحدى الممرضات إلى الحجرة وهي تلهث بعنف وتقول:

- دكتور، المريضة المصرية والضابط (شليكو) ووالده (دوروف)، جهاز رسام المُخّ المُتابع لحالتهم توقف فجأة وأعلن وفاتهم، لدرجة إنّ والدة منال والسيدة المصاحبة لـ(دوروف) فقدوا الوعي لمّا شافوا

اللي حصل، لكنه اشتغل مرة ثانية ورجعت معدلاتهم الحيوية زي ما كانت، لكن العجيب إن كلهم كانوا بيبتسموا ابتسامة واحدة لثواني وبعد كده رجعت كل حاجة زي ما كانت لحالتها الطبيعية.

حدّق الثلاثة في وجه الممرضة، وعلى وجوههم علامات الدهشة والاستنكار؛ فما سمعوه الآن يثبت أنّ هناك شيئًا يربط المرضى الأربعة، شيئًا يتخطّى حدود العقل والمنطق في كل زمان ومكان.

****

اعتاد (لوزسكي) تناول طعام الإفطار كل صباح مع زوجته الجميلة (مارتينا) قبل أن يذهب إلى عمله في المفاعل النوويّ الروسيّ (تْشِرنوبِل)، وفي هذا الصباح بدا (لوزسكي) سعيدًا مَرِحًا وهو يغازل زوجته ويلقي عليها بعض النُكات الخفيفة، فضحكت حتى بانت نواجِذُها قبل أن تذهب إلى حجرة النوم لتأتيَ بمعطف زوجها عن المِشْجَب الموجود بجانب السرير الكبير، أخذت المعطف واحتضنته بحب، كانت تحب زوجها وتعشق أشياءه، ضمّت المِعطف إلى صدرها بقوة واستنشقت عطر زوجها الأخّاذ قبل أن تلتفت إلى الورقة الصغيرة التي وقعت من الجيب الأيمن للمعطف، فانحنت والتقطتها ثم وضعت المعطف على السرير قبل أن تَفُضّ الورقة بهدوء وهي تتساءل عن فحواها، ولم تكد تقرأ سطورها القليلة حتى ارتفع حاجِباها بدهشةٍ عظيمةٍ قبل أن تتسارع أنفاسُها وتتلاحق بصعوبة وهي تترنح

كريشةٍ في مَهَبِّ الريح.

جلست على طرف الفراش كي تتمالك نَفْسها، ثم وضعت كفيّها على وجهها وارتفع صوتها بالنحيب والبكاء حتى أتاها صوت زوجها يَحُثّها على الإسراع حتى لا يتأخر عن موعد العمل، فأخذت نفسًا عميقًا ومسحت دموعها بسرعة ثم قامت على الفور من مكانها وخرجت من الغرفة لتجد (لوزسكي) أمامها، فبادرها قائلاً وهو ينظر مباشرة في عينيها:

- مالِك؟

أشاحت بوجهها، ولم تردّ عليه بل أعطته المِعطف فتناوله منها ثم ارتداه على عجل وهو يكرر سؤاله مرة أخرى، فنظرت إليه والدموع تملأ عينيها وهي تناوله الورقة الصغيرة التي وجدتها في جيب معطفه، فابتلع ريقه بصعوبة وشحب وجهه حتى حاكى وجوه الموتى، ألقت (مارتينا) الورقة في وجهه وقالت بصوت مخنوق:

- بتخوني ! ومع مين، (لويزا) أعز صديقاتي.

اقترب منها ووضع يديه على كتفيها وقال بصوت مرتجف:

- حبيبتي إنتي فاهمة غلط.

أزاحت يده عن كتفيها بعنفٍ وأدارت وجهها عنه وقالت بحدة:

- جواب غرامي كله كلام حب وعشق، ليه؟ أنا قصرت معاك في حاجة؟

ثم التفتَتْ إليه وقالت بعنف:

- إنطق، ليه كده، ليه؟

أطرق (لوزسكي) رأسه ولم يتفوّه بحرفٍ واحدٍ، ممّا زاد من ثورتها عليه، ولكنه لم يعترض ثورتها، تركها حتى هدأت تمامًا ثم اقترب منها حتى وقف أمامها وقال بهدوء:

- أنا عايزك تعرفي حاجة واحدة بس، إني بحبك، وهفضل أحبك لغاية آخر يوم في عمري.

رفعت عينيها إليه بدهشة، وقالت بصوتٍ خافتٍ منكسرٍ:

- طب ليه عملت كده؟

نظر إليها لثوانٍ ثم قال بخجلٍ:

- نزوة.

قال كلمته ثم انصرف من أمامها إلى عمله تاركًا زوجته في حيرة من أمرها، كيف لمن يملك كل شيء أن يُضَيّع بحماقته كل شيء، كيف؟

****

كله تمام...

نطق (لوزسكي) بهذه العبارة وهو ينظر إلى (شلينكو) بثقة، فتنفس (شلينكو) الصعداء والتمعت دموع الفرح في عينيه، لقد انتصر هو ورفيقه في آخر جولة على (نيرفانا)، وسينقذ هو وسامح (دوروف) ومنال كما وعدتهم (نيرفانا)، كل ما عليه الآن هو رؤية المفاعل النووي (تْشِرنوبِل) وهو يعمل بكفاءة، بعدها سيذهب إلى سامح ليزفّ إليه الخبر السعيد، ابتسم بسعادة وهو ينظر إلى (لوزسكي) ويقول:

- إمتى المفاعل هيكون جاهز؟

نظر (لوزسكي) في ساعته وقال:

- بعد عشر ساعات من دلوقتي، يعني الساعة واحدة بالليل.

عقد (شلينكو) حاجبيه بقلق وقال:

- طب حاول تختصر الوقت عن كده.

حرّك (لوزسكي) رأسه دلالة على النفي وقال:

- مش ممكن قبل كده، لازم نعمل اختبارات لأعمدة الكادميوم والبورون كبدائل للكربون قبل استخدامهم وده هياخد وقت طويل شوية.

زَمّ (شلينكو) شفتيه بضجرٍ وقال:

- خلاص، إبدأ دلوقتي على طول وما تضيعش وقت.

تكلم (لوزسكي) على الفور، قائلاً:

- حاضر.

قال كلمته ثم انصرف على الفور ليبدأ العمل في حل الخطأ الأخير.... خطأ (تْشِرنوبِل).

****

مَرّت الساعاتُ العشْرُ على (شلينكو) وسامح كالدهر، حتى جاءت اللحظةُ الحاسمةُ عندما وقف كلاهما خلف الجدار الزجاجيّ العملاق الذي يغطّي حجرة الإعداد لعمل القنبلة النووية، حيث وقف العلماء

داخل الحجرة بمعاطفهم البيضاء يتابعون المرحلة الأخيرة لتجربة قضبان الكادميوم والبورون بدلاً من أعمدة الكربون، لتضمن السلامة والأمان في قلب المفاعل. كانت الآليات تقوم بعملها على أكمل وجهٍ فتقومَ بنزعِ أعمدة الكربون ببطء. أثناء ذلك، خرج (لوزسكي) من حجرةٍ جانبيّةٍ وهو يمسك بهاتفه المحمول[1] وهو يتحدث بانفعال قائلاً:

- (مارتينا) عرفِت يا (لويزا) العلاقة اللي بينّا.

صمتَ قليلاً لِيَسْتَمع إلى (لويزا) قبل أن يقول بتوتر:

- شافت الجواب اللي كتبتيهولي.

صَمَتَ مرّة أخرى ليستمع إليها، إذ بالتيار الكهربائي يتذبذب عدة مرات ودون سابقِ إنذارٍ، مما دعا (لوزسكي) إلى أن ينهيَ المكالمة على الفور دون استئذان، وضع هاتفه المحمول في جيب معطفه، ثم أخرج جهازًا لاسلكيًّا صغيرًا من جيب معطفه الداخليّ، وقال بسرعة: "إقفلوا كل خزانات المياة الخاصة بالتبريد حالاً."

ألقى أوامره ثم انطلق إلى داخل حجرة التبريد ليتابع بنفسه عملية قفل خزانات المياة لمنع تَسَرُّبِ جزءٍ منها مما يؤدي إلى احتراق الدائرة الكهربية في المكان. دخل بابَ الحجرة وأغلقه وراءه إلكترونيًا كعادته في كل مرة، وفجأة انقطع التيار الكهربيّ عن المكان ليُحبَس (لوزسكي) داخل الحجرة. توقّفَ ضَخُّ المياة داخل المفاعل لتزداد

(١) كان أول ظهور للهاتف المحمول عام ١٩٧٣م، وطرحته شركة (موتورولا) في الأسواق عام ١٩٨٣م، وكان انفجار المفاعل عام ١٩٨٦م.

درجة حرارة اليورانيوم المُشِعّ قبل أن يشتعل عن آخره وتنثني أعمدة الكربون الموجودة في قلب المفاعل، وتتهاوى جدران المفاعل تدريجيًّا قبل أن تأتي الطامة الكبرى وينفجر المفاعل.

****

ما إن انقطع التيار الكهربيّ في المكان حتى لَكَزَ سامح (شلينكو) في كتفه وهو يخرج كشافًا صغيرًا معلقًا في سلسلة مفاتيحه الخاصة ويضغط على زرٍ صغيرٍ فيه ليعطي بصيصًا من الضوء في المكان ثم قال: "يلا بسرعة مفيش وقت."

قال عبارته ثم انطلق مغادرًا المكان و(شلينكو) يتبعه كظله، كان هدفه الأساسيّ أن يغادر المفاعل إلى (بريبات) حيث توجد محطات القوى الكهربية التي تغذي المكان بأكمله، كان يريد معرفة سبب انقطاع التيار الكهربي عن المكان ومعالجته قبل أن يؤثر ذلك على المفاعل بأكمله، مَرّ بالحجرة المحبوس بداخلها (لوزسكي) الذي ارتفعت صرخاته مستنجدًا بأيّ أحدٍ كي يخرجه من هذا السجن الصغير الذي دخله على الرغم منه، ولكنّ الرجلين لم يعيراه أي اهتمام لقد كان إنقاذ المفاعل أهم من أيّ شيء في هذه اللحظة الحرجة.

شعر (لوزسكي)، بشدة الخطر المُحْدِقِ به عندما لم يعره كلٌّ من (سامح) و(شلينكو) أيَّ اهتمام، لا بدّ أنّ الوضع أسوأ مما يظن. تلفّت حوله بحثًا عن مخرج، فلم يجد. شعر برجفة مفاجئةٍ في جسده، ظنّها لوهلة توقيع

الرعب على جسده، لكنّه انتبه إلى أن الرجفة في جانب فقط من جسمه، وضع يده حيث الاهتزاز، تذكّر أنّ هاتفه المحمول لا يزال في جيبه، غير مغلقٍ تمامًا، أخرجه، (لويزا) تتصل، لا بد أنّها قلقت لأنه أنهى المكالمة بلا استئذان، أيردّ لينقذ نفسه؟ أيغلق الهاتف المحمول إدراكًا منه لمخاطره في هذا المكان المدجج بالموت، لم تَطُلْ حيرته، فتح الهاتف، وكان ما كان ، موجة واحدة من موجات الهاتف الكهرومغناطيسية ، الغير مرئية ، كافية ليصاب المكان بتخمةِ الموت.

كان ممرُ الخروج معتمًا، مع ذلك استطاع سامح و(شلينكو) مغادرة المفاعل، فانطلقا إلى مولد التيار الكهربيّ على بعد عدة أمتار من المبنى الرئيسيّ. اندفع سامح إلى المولد الضخم محاولاً معرفة سبب انقطاع التيار الكهربيّ كي ينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فبمجرد أن أصبح الاثنان أمام المولّد، وبمجرد أن فتح (لوزسكي) هاتفه انفجر المولّد بغتة واندفعت موجة تَضَاغُطِيّة قوية من داخله ألقت بجسد سامح و(شلينكو) لعدة أمتار إلى الخلف ليسقطا على ظهريهما وسط الجليد الروسيّ، كانت كل عظمة من عظامهما تئن من شدة الألم الذي أصابهما من جراء الانفجار.

مع ذلك تحامل (شلينكو) على نفسه، وقام من مكانه ثم أمسك بسامح ليساعده على النهوض، إذ ذاك انفجر المفاعل بأكمله، ليطيح بسامح و(شلينكو) مرة أخرى ويلقي بهما بعيدًا فاقديْ الوعي، معلنًا فشلهما

في آخر مهمة، مهمة الحياة أو الموت.

****

انطلق صوت الموسيقى المميزة للبرنامج الإخباريّ الشهير "صباح جديد" الذي يرصد ويتابع كل ما هو جديد في الاتحاد السوفيتيّ من شرقه إلى غربه، انتهت تترات البداية قبل أن يظهر أحد أشهر مذيعي البرنامج وهو يرتدي حُلّة داكنةً ورابطة عنق سوداء اللون وعلى وجهه أمارات الحزن والأسف، وهو يقول:

"في واحدة من أبشع وأشد الكوارث البيئية التي تشهدها أوروبا بأكملها، انفجر أمس المفاعل النووي الروسي (تْشِرنوبِل) نتيجة خطأ بسيط في حسابات التشغيل الفنيّة، مما أدى إلى ارتفاع درجة حرارة اليورانيوم المخصّب قبل أن يشتعل فجأة، مما أدّى إلى انفجار المفاعل وانهيار جدرانه. مما أسفر عن وفاة أكثر من ألفيْ عامل وفنيّ ودكتور كانوا في قلب المفاعل وقت وقوع الحادث، كما أصيب أكثر من أربعة آلاف شخص كانوا متواجدين وقت وقوع الحادث، هذا وقد أعلنت حكومة الإتحاد السوفيتي أن منطقة (بريبات) التي كانت تضم مفاعل (تْشِرنوبِل) منطقة موبوءة، حيث إنّه قد تم عزلها الآن عن باقي المناطق المحيطة بها، ولكن الخطورة القصوى تقبع في السحابة الإشعاعية المتوقع أن تصل إلى أغلب الدول الأوروبية القريبة من هذه المنطقة. حفظ الله البلاد ودمتم في رعاية الله وأمنه."[1]

(١) كل ما ذكره مذيع البرنامج معلومات حقيقية تمامًا.

تنهد الدكتور المتابع لسامح و(شلينكو) بأسًى بعد أن استمع لآخر أخبار المفاعل النوويّ المنفجر قبل أن يلتفت إلى جسدي سامح و(شلينكو) اللذين يرقدان أمامه على فراشيهما في قسم الفحص والمتابعة وهما في حالةِ إعياءٍ شديدٍ إثر تعرضهما لكمية كبيرة من الإشعاع النووي مع العديد من الكدمات والسحاجات[1] التي ملأت جسديهما، مال (شلينكو) بجذعه ناحية اليمين ثم تقيّأ بعنفٍ ليفرغ كل ما في جوفه، فأشاح الطبيب بوجهه عنه، ثم كتب عدة عبارات في كشف المتابعة الخاص بالمريضين قبل أن يغادر المكان. وما هي إلا لحظات حتى لحقت به الممرضة إلى الخارج. نظر (شلينكو) إلى سامح وقال بِوَهَنٍ:

- معقول، دي النهاية؟

أمسك سامح رأسه بألمٍ وقال:

- أكيد في حل، مش ممكن كل زمن روحنا له كنا بنعيش فيه، بنعيش بأحاسيسه ونفس مشاعر أهله، لكن المرة دي الوضع مختلف، أنا حاسس بكل الألم اللي بيسببه السرطان لدرجة إني بتمنى الموت هنا عن الرجوع لـ(نيرفانا) والاعتراف بالهزيمة.

تكلم (شلينكو) ودموع الهزيمة تلمع في عينيه:

- هي بتستمتع بعذابنا في عالم الوهم اللي رمتنا فيه.

عقد سامح حاجبيه مفكرًا لثوانٍ قبل أن يردد قائلاً:

(١) من السحج، بمعنى الكشط والتسوية للخشب. ومنه الكلمة بمعنى «آثار السحج أو السحل على الأرض.»

- عالم الوهم.

لم يكد ينهي عبارته حتى ارتفعت ضحكات (نيرفانا) العالية في المكان قبل أن تتجسد فجأة داخل الحجرة وبصحبتها (ميلا) الصغيرة التي صفّقَتْ بكفيّها الصغيرتين ليظهر (دوروف) في أحد أركان الغرفة والأصفاد تحيط بمعصميه أما رقبته فكانت تحيط بها أغلال قوية مثبتة في السقف، وفي الجانب الآخر من الحجرة كانت منال ملتصقة بالجدار ولكن بلا أيّ قيود، كان الإعياء قد بلغ منهما مبلغه مع نهاية رحلة العذاب والشقاء التي دفعا خلالها ثمنًا باهظًا سواء من جسديهما، أو من الضغط النفسي والقلق على ذويهما سامح و(شلينكو)، جالت (نيرفانا) ببصرها في أرجاء الحجرة تتطلع إلى الجميع بشماتة قبل أن تقول بِزَهْو:

"الهزيمة الأخيرة."

قالت عبارتها قبل أن تتحرك في الحجرة بخُيَلاءٍ حتى وقفت أمام منال وقالت وهي تنظر في عينيها وتقول بشماتة:

"ولازم حد يدفع الثمن."

صفقت بكفيّها لتختفي جدران الحجرة ليجد الجميع أنفسهم في حجرة كبيرة تضمّ جسد سامح ومنالَ و(شلينكو) و(دوروف) ولكنهم تحت أجهزة العناية الفائقة في زمننا الحالي، اتسعت عيون الأربعة بدهشة عندما شاهدوا أنفسهم فاقدي الوعي والأجهزة المتصلة بهم تنقل كل

معدلاتهم الحيوية إلى أجهزة المراقبة بحجرة الممرضات المجاورة. لكن ما جذب انتباههم هو وجود أهاليهم وأصحابهم بجانبهم، لقد خفق قلب سامح عندما شاهد والدته تحتضن رأسه وهي تبكي بحرقة، واتسعت عينا منال بدهشة فَرِحة عندما شاهدت والديها بجانبها يتحسسان شعرها بحنان، فأخذت تنادي عليهما، نظرت إليها (نيرفانا) نظرة ساخرة ثم التفتت إلى (دوروف) ووجدته يتطلع إلى جارته (إيفا) التي وقفت بجوار فراشه ودموعها تسيل على وجنتيها بصمت. قطعت (نيرفانا) هذا الحوار الصامت بينهم قائلة:

- مشهد جميل، بس أنا متأسفة جدًا. لازم ترجعولي تاني علشان نِصَفّي حسابنا مع بعض، بس قبل كده لازم تعرفوا إنتم فين، والبداية كانت إزاي.

تكلم سامح بتساؤل قائلاً:

- البداية!

هزّت (نيرفانا) رأسها قائلة بغموض:

- أيوه، بداية النهاية.

****

الجزء الثالث

اكتظت قاعة المحاكم الكبرى في مصر الجديدة بالبشر من جميع الفئات ليشاهدوا الفصل الختاميّ لأحد أكبر وأشهر القضايا التي شهدها المجتمع المصري في الآونة الأخيرة، قضية مقتل رجل الأعمال المصريّ الشهير طارق مدكور، والمتهمة فيها السيدة إحسان محمد البسيونى أشهر سيّدات الأعمال المصرية. كانت هذه الجلسة هي جلسة النطق بالحكم بعد أكثر من عشر جلسات استغرقها محامي الدفاع في محاولة منه لتخفيف الحكم أو الفوز الكبير ببراءة السيدة إحسان، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، لقد كان الصراع بين الدفاع ووكيل النيابة على أشدّه حتى حَسَمَ الموضوع بأكمله الرائد حسام المتابع للقضية. ثم جاءت شهادة الشهود لتكون هي القشة التي قصمت ظهر البعير لتثبت التهمة على السيدة إحسان، حتى حان موعد إسدال الستار بدخول القاضي إلى القاعة وينطلق معه صوت الحاجب كالرعد في المكان قائلاً:

"محكمة."

قام كل من في القاعة تقديرًا للقاضي ومستشاريه، الذي اتخذ مكانه بينهما ثم أشار إلى الحضور بالجلوس فجلسوا جميعًا وعيونهم تترقب شفتيه التي خلال لحظات ستُفَجّر البركان الذي ظلّ خامدًا لفترة طويلة، عبث القاضي بعدة أوراق أمامه قبل أن يقول بصوتٍ صارم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، بعد الاطلاع على أوراق القضيّةِ المتهمةِ فيها السيدة إحسان محمد البسيونى بقتل السيد طارق مدكور عمدًا مع سبق الإصرار والترصد، حكمت المحكمة حضوريًّا وبإجماع الآراء بإحالة أوراق السيدة إحسان محمد لفضيلة مفتي الديار المصرية."

نطق القاضى بالحكم الذي نزل كالصاعقة على جميع الحضور الذين توقّعوا أن يكون أقصى حكم قد تتعرض له إحسان هو المؤبد، وذلك لمعرفتهم بسوء سلوك طارق مدكور، فخرجوا من القاعة تاركين خلفهم الكثير من المشاعر المتباينة بين فرحة أهل طارق بهذا الحكم الرادع الذي شفى غليلهم على مقتل ابنهم، وبين أهل إحسان الذين استقر الحزن في أعماقهم على ابنتهم التي ستلقى ربها خلال أيّام، ومن بين الجموع الغفيرة قام الرائد حسام من مكانه مغادرًا القاعة قبل أن يلفت انتباهه وجود طفلة صغيرة شقراء اللون تجلس في أحد أركان القاعة وهي تنظر إليه وإلى إحسان التي كانت تغادر قفص الاتهام بصحبة الحارس ثم التفتت فجأة لتنظر بدروها إلى الطفلة الصغيرة باستغراب،

أغمض حسام عينيه للحظة ثم فتحها ليجد القاعة خالية تمامًا ولم يعد هناك أي أثر للطفلة الصغيرة الروسية... (ميلا).

****

اصطفّت أعدادٌ غفيرةٌ من أصدقاء ومعارف (زوشا) لإلقاء نظرة الوداع على جسدها الرقيق الموضوع بعناية داخل صندوقٍ أنيقٍ مخصصٍ لنقل الموتى. كانت شواهد القبور تحيط بالجميع وكأنها تشاركهم الحزن والألم لوفاة واحدةٍ من أرَقّ الكائنات على وجه الأرض، ولكن لو جمعت كل أحزان المشيعين مع الأحزان التي كانت تملأ يومًا ما أهالي سكان القبور مِنْ حولهم، لن تساويَ مثقال حبةٍ من خردلٍ من الحزن الذي يملأ قلب توأمها (نيرفانا)، التي كانت تقف أمام جسد شقيقتها بثبات تحسد عليه وهي تحمل بين يديها (ميلا) الرضيعة، ركعت (نيرفانا) أمام الصندوق الذي يحوي جسد (زوشا) ثم أرخت الوشاح الرقيق الذي يغطى وجهها وجاهدت لتكبح جماح عبراتها من مقلتيها قبل أن تستكين معلنةً استسلامها داخل عينيها مرة أخرى، أمسكت (نيرفانا) بيد (ميلا) ووضعتها على وجه أمها الساكن تمامًا فابتسمت الصغيرة وهي تدير وجهها ناحية (زوشا) وتبتسم ببراءة فاقتربت (نيرفانا) بوجهها منهما وقالت بصوت كالفحيح:

"لازم ننتقم."

عقدت الرضيعة حاجبيها بغضب وكأنها فهمت رسالة خالتها، فأبعدتها

(نيرفانا) عن الجثة ولكن الصغيرة تشبثت بذراع أمها و... وانتفض جسد (زوشا) لثوانٍ قبل أن يستقرّ تمامًا وتبتسم (ميلا) بهدوء وهي تستقر بين ذراعي خالتها مرة أخرى. تطلعت الخالة إلى الصغيرة بتعَجُّبٍ قبل أن تنظر إلى عينيها وتقرأ الرسالة التي استقبلتها الصغيرة من أمها... الميتة، الرسالة التي أخبرت بها (زوشا) ابنتها (ميلا) عما فعله بها أصدقاؤها المصريون، العجيب أن الصغيرة فهمت الرسالة جيدًا بل ووعدت أمها بالانتقام، وبينما كان جسد (زوشا) يُوارَى التراب إذ بالصغيرة تنظر إلى خالتها وتبتسم بهدوء وكأنها تَعِدُها بأنها لن يهدأ لها بال حتى ترى من تسببوا بوفاة أُمّها هناك في نيران الجحيم.

****

مَرّت الأيام والشهور و(ميلا) تكبر يومًا بعد يوم وتتفتح كزهرةٍ نديّةٍ أمام عينيْ خالتها (نيرفانا) التي تعهدتها بالرعاية والحنان، كانت (ميلا) تشبه والدتها الراحلة كثيرًا، مما جعل (نيرفانا) تتحدث معها وكأنها (زوشا)، فعلى الرغم من أنّ الصغيرة لم تكن قد تجاوزت عامها الثالث بعدُ، إلّا أنّ خالتها كانت تتعامل معها على أنها فتاةٌ يافعةٌ، والعجيب أنّ (ميلا) كانت تستمع بانتباهٍ كاملٍ لحديث (نيرفانا)، لدرجة أنّها في إحدى المرات كانت تتحدث إلى الصغيرة فوجدتها تهزّ رأسها مؤيدة لكلام خالتها، يومها عقدت (نيرفانا) حاجبيها بدهشةٍ وتساؤلٍ قبل أن تقترب منها وتقول:

"إنتي فاهمة كلامي؟"

أومأت (ميلا) برأسها دلالة الموافقة فتراجعت (نيرفانا) إلى الخلف وهي تبتسم بتوترٍ وخوفٍ، قبل أن تقول: "طب فهمتي إيه؟"

أَوْلَتْها (ميلا) ظهرها ثم تحركت ببطء إلى منضدةٍ صغيرةٍ في منتصف الصالة والتقطت قلمًا صغيرًا من بين مجموعة من الروايات البوليسية التي تخصُّ (نيرفانا) والتي تفضّل قراءتها في أوقات الفراغ، سارت (ميلا) ببطء حتى وصلت إلى أقرب حائط إليها وبدأت في الكتابة، كتبت كل ما حدّثتها به خالتها منذ قليل بسلاسة وهدوء، اتسعت عينا (نيرفانا) بدهشة ورعب ولم تستطعْ أن تتفوّه بأيّ كلمة أمام ما تراه عيناها، كيف لطفلةٍ في عامها الثالث أن تجيدَ الكتابة بسهولةٍ ويُسرٍ كأنّها أستاذةٌ جامعيةٌ، يومها أسرعت (نيرفانا) نحوها واحتضنتها بقوة وهي تتلفّت بتوتر وقلق، قبل أن تتخذ قرارًا حاسمًا بشأن الصغيرة، لقد قررت أن تعرض (ميلا) على أحد أخصائيي المخ والأعصاب...

وبلا أيّ تأخير.

****

"مجردُ نشاطٍ زائدٍ في المُخّ."

قال الدكتور (بوريس) أحد أشهر أخصائيي المخ والأعصاب في (موسكو) عبارته، وهو يتطلع إلى صور الأشعة الخاصّة بـ(ميلا) قبل أن يُنَحِّيَها جانبًا ويكمل حديثه قائلاً:

"لكن في مشكلة في مراكز الكلام ممكن تعمل لها إعاقة."
صدم تصريحُه (نيرفانا) ولكنها تماسكت وقالت:
- يعني مفيش أيّ أمل في إنها تتكلم يا دكتور؟
قلب شفتيه وقال بنفاذ صبر:
- الطب بيتقدم يوم عن يوم، ومفيش مستحيل.
نظرت (نيرفانا) إلى (ميلا) الصغيرة، فوجدتها تنظر إلى الدكتور بثبات وعلى شفتيها ابتسامةٌ ساخرةٌ لا تتناسب مع سنوات عمرها الثلاث قبل أن تقوم من مكانها وتتحرك ناحية الدكتور وتتناول قلمه الصغير عن المكتب ثم تتراجع ببطء حتى توقفت عند أقرب حائطٍ اليها في الحجرة ثم بدأت ترسم عليه مجموعة من الأشخاص والمواقف العجيبة، مِمّا جعل دكتور (بوريس) يقوم من مكانه ببطء ويشير إلى الرسومات التي رسمتها (ميلا) ويقول:
"إنتي عرفتي الحاجات دي إزاي؟"
استدارت (ميلا) ببطءٍ ونظرت في عينيه لثوانٍ قبل أن تستدير مرة أخرى لتكمل ما بدأته مع نظرات خالتها الذاهلة. لقد فهمت ماذا تعني هذه الرسومات على الرغم من أنها كانت تراها لأول مرة، أما دكتور (بوريس) فقد سقط على كرسيه غير قادرٍ على التفوّه بأيّ حرف، وأنفاسه تتسارع بين جنبات صدره، ولكنه -على الرغم من ذلك- تماسك قبل أن يقول:

"لازم نفحص البنت تاني."

تهلّلت أسارير (نيرفانا) بهذا القرار الذي اتخذه دكتور (بوريس) بشأن (ميلا) فودّعت الدكتور على وعد بلقاء آخر، فوعدها بأن يتصل بها في وقت قريب، وأثناء عودتهما إلى المنزل قالت (نيرفانا) وهي تنظر إلى (ميلا) بترقب:

"إنتي رسمتي الصور دي إزاي؟ دي كانت كلها بتحكي عن الدكتور (بوريس) وعن تاريخ حياته زي ما قلتي لي. والعجيب إنك بمجرد ما رسمتيها أنا فهمت على طول، أنا مش فاهمة حاجة."

قالت عبارتها ثم انتظرت إجابة من (ميلا) وجاءتها الإجابة دون أن تتكلم (ميلا)، لقد التفتت إلى خالتها ثم نظرت إليها لثوانٍ انطلقت خلالها قوة عقلية قوية من عقل (ميلا) إلى عقل (نيرفانا) مباشرة، حتى إنّها قد تراجعت للخلف عندما دوّى صوت (ميلا) داخل عقلها بكل قوة ووضوح وهي تقول:

"أنا بمجرد ما بصيت للدكتور شفت في عينيه كل تاريخ حياته فحبيت أفهمه إني عارفه كل حاجه عنه علشان يتعلم يتكلم معاكي بطريقة كويسة."

كانت هذه هي أول مرة تتحدث فيها (ميلا) إلى خالتها لدرجة اغرورقت عينا (نيرفانا) بالدموع وهي تحتضن الصغيرة بتأثرٍ، فأزاحتها (ميلا) عنها برفقٍ ونظرت في عينيها وانطلقت الموجة العقلية مرةً أخرى قائلة:

"إنتي مكان أمي وأيّ حد مهما كان لازم يتكلم معاكي بطريقة كويسة

ولو عمل غير كده هيكون عقابه رهيب."

كانت (نيرفانا) تستمع إلى (ميلا) وهي في أعلى حالات الاندهاش؛ إذ كيف لطفلةٍ صغيرةٍ في عامها الثالث أن تدرك كلَّ هذهِ الأشياء، لم تستطع أن تجد تفسيرًا لهذه الأشياء في هذه اللحظة، ولكنها قررت أن تعرف، وبأيّ ثمن.

****

وقف دكتور (بوريس) مع اثنين من زملائه أمام جسد (ميلا) الضئيل المتّصل بجهاز تَتَبّع إشارات المخ، الذي ينقل نبضاته ثانية بثانية، فتنحنح دكتور (بوريس) وقال:

- زي ما إنتوا شايفين مفيش أي حاجة غريبة غير النشاط البسيط جدًا في الفص الأمامي واللي بيتكرر كل خمس ثواني.

تكلم أحد زملائه قائلاً، وهو يشير بإصبعه إلى جزءٍ في مُخّ (ميلا) قائلاً باهتمام:

- طب إيه تفسيركم للجزء المنبعج الصغير جدًا الأحمر اللون اللي موجود بين فصي المخ؟

تكلم الطبيب الآخر قائلاً:

- أنا لاحظت إنه بيزداد احمرار مع كل نبضة كهربية بتخرج من المخ.

قلب (بوريس) شفتيه وقال:

- أنا تشخيصي إنّ التجمع الدموي ده هو اللي عامل لها مشاكل في النطق وأنا شايف إننا نستأصله.

زَمّ أحد الأطباء شفتيه باعتراض وقال:

- أيوه بس ده ممكن يؤثر على أجزاء تانية في الجسم.

لوح (بوريس) بكفّه بلا مبالاة قائلاً:

- الفحوصات والتحاليل هي اللي هتبين كل حاجة، إحنا نحجزها هنا لغاية ما نتيجة الفحوصات تبان ونعرف في إيه بالضبط.

كانت (نيرفانا) تتابع الحديث منذ بدايته حتى اتفقَ الأطباء على حجز (ميلا) في المستشفى، فتكلمت قائلة بحزم:

- لا يا دكتور، أرجوك بلاش.

التفت إليها دكتور (بوريس) وقال بعجرفة:

- إنتي مجنونة، البنت لازم تتحجز في المستشفى لغاية ما نعرف إيه اللي عندها بالظبط.

انكبّت على يده كي تقبّلها ودموعها تبلل خدّيها وتقول:

- أرجوك يا دكتور.

أزاحها عن يده بعنفٍ وهو ينادي على الأمن، حين ظهر اثنان منهم بادرهما قائلاً:

- خرّجوها بره.

اندفع الاثنان نحو (نيرفانا)، وانتزعاها من المكان بعنف وهي تتملص منهما وتنادي على (ميلا)، وفجأة فتحت (ميلا) عينيها، كانت واقعةً تحت تأثير مُخَدّرٍ قويّ ولكنها ما إن سمعت نداء خالتها حتى فتحت

عينيها ونزلت عن الفراش ببطء وهي تدير بصرها في الجميع بتحفز قبل أن تقف في منتصف الحجرة ويصدر جهاز متابعة المخ صفيرًا قويًّا التفت إليه أحد الأطباء قبل أن يرتفع حاجباه حتى منبت شعره، لقد تضخم حجم الجزء الدموي في مخ (ميلا) حتى غطّى المخ بأكمله مما جعل المخ بأكمله ينتفضُ بعنفٍ قبل أن يسكن تمامًا ويختفي الجزء الدموي عن شاشةِ جهازِ المتابعة ليصنع هالةً دمويةً مُشِعّةً حول (ميلا) التي أشارت إلى خالتها فتكونت هالة مشابهة حول (نيرفانا)، فانتفض حارسا الأمن اللذان يمسكان بها وأكثر من عشرة الآف من الفولتات الكهربية تسري في جسديهما، وما هي إلّا ثوانٍ حتى هَمَدَتْ حركتُهما تمامًا قبل أن يهويا أرضًا بلا حراك.

انتزعت (ميلا) الأنابيب والخراطيم المتصلة بجسدها بهدوء وهي تنظر إلى دكتور (بوريس) نظرةً صارمةً فتراجع إلى الخلف وشَفَتُه السفلى ترتعش من شدة الرعب، أما زميلاه فقد انطلقا يعدوان خارج الغرفة وهما يستنجدان بكل من يقابلانه من الممرضين، تقدمت (ميلا) من الدكتور الذي ركع على قدميه أمامها وهو يتوسل إليها ألّا تؤذيه، كان (بوريس) يقارب المترين طولاً، عريضَ المنكبين متينَ البنيان، مع ذلك كان منظره عجيبًا وهو يركع أمام (ميلا) بطولها الذي لا يتجاوز المتر وبجسدها الرقيق الهشّ. وضعت (ميلا) كفّها الصغير على رأسه ثم نظرت إليه وتنهّدت بقوة فانتفض جسد الطبيب المسكين وكَفُّ (ميلا)

يخترق رأسه وينتزعُ مُخّه أمام عيني (نيرفانا) الذاهلتين. تهاوى جسد (بوريس) أرضًا ونافورةٌ من الدماء الحارّة تتدفق من رأسه.

تركته (ميلا) ثم توجهت إلى خالتها فمَدّت (نيرفانا) يدها إليها والتقى كفّاهُما وتذبذب التيار الكهربيّ في المكان قبل أن ينقطع تمامًا عن المستشفى بأكملها، وعندما انطلق المولد الكهربيّ الاحتياطيّ يعملُ بكل طاقته ليضيء كل أنحاء المستشفى، اندفع كل رجال أمن المستشفى مع عدد كبير من الممرضين والأطباء إلى الحجرة التي كانت تُحتَجز فيها (ميلا)، لم يجدوا إلا جثة دكتور (بوريس) فقط، أما (ميلا) و(نيرفانا) فلم يكن لهما أيّ أثر في الحجرة ولا حتى في المستشفى بأكملها.

****

هبطت الطائرة القادمة من (موسكو) في قلب مطار (بكين) الدوليّ أحد أكبر المطارات في العالم، وما إن انفتح بابها الكبير حتى بدأ ركابها بالنزول بهدوء، ومن بين الجميع كانت (ميلا) تسير بهدوء وهي تمسك بيد خالتها (نيرفانا) التي أعدّت خطة الهروب بكل براعة بعد الخراب الذي ألحقته (ميلا) بمستشفى (موسكو) الدوليّ، فَقَبْلَ أن تذهب (نيرفانا) إلى دكتور (بوريس) في المرة الثانية، أعدت خطة للانتقام من المصريين الأربعة عن طريق قدرات (ميلا) غير العادية، ولكنها فضّلت أن تشاهد تجربة عملية لقدرات (ميلا) قبل أن تبدأ خطتها الانتقامية.

فبعد أن خرجت من عند دكتور (بوريس) في المرة الأولى ذهبت إلى دكتور (يوري) في مستشفى أخرى، لم يكن أقلّ خبرة من (بوريس)، عرضت عليه حالة (ميلا) فوضعها تحت جهاز رسام المخ فأطلق العديد من الصافرات غير المنتظمة قبل أن يعلن عن نشاطٍ غيرِ عاديّ في المخ. وظهر أمام (يوري) الجزء الدمويّ الذي يربط بين فصّيْ مخ (ميلا) فأجرى عليه عدّة تجاربٍ منفردةٍ فاكتشف إنه يربط بين فصّيْ المخ وأنه في حالة الغضب الشديد والانفعال ينفصل عن الفصين ليُحَوّل كل فَصٍّ منهما إلى مُخٍّ منفرد أحدهما يقوم بالوظائف الحيوية للجسم، أمّا الآخر فيطلق كمًّا غيرَ عاديٍّ من الموجات الكهرومغناطيسية التي تدمّر أيّ شيء أمامها، لتتحول (ميلا) الصغيرة إلى سلاح رهيب فتّاك. يومها ارتجفت (نيرفانا) أمام تصريح دكتور (يوري)، ولكن في الوقت نفسه جاءتها فكرة الانتقام مِمّن هتكوا عِرْض أختها (زوشا).

يومها عادت من عند الدكتور وأدخلت (ميلا) في سريرها ثم جلست أمام الحاسب الآلي الخاص بها وانطلقت تبحث عن قدرات المخ البشريّ وكيفية تنمية قدراته، ومع انبلاج الفجر وجدت الإجابة عن كل أسئلتها ووضعت خطتها الهجومية من هناك، من فوق هضبة التِّبت حيث رهبان التبت؛ أبرع أهل الأرض في تطويع قدرات المخ البشري وإطلاقها في الوقت المناسب، لقد وضعت قرارها وخطتها وبدأت من (موسكو). كانت تحتاج لتجربة عمليّة ولم يكن أمامها غير دكتور (بوريس) الذي

عاملها بجفاءٍ وصَلَف فقررت أن ترى تأثير قدرات (ميلا) عليه، أعدّت حقيبة سفرها هي و(ميلا) ثم اتصلت بالمطار لتستعلم عن مواعيد الطائرات التي ستقلع إلى الصين، ومن حسن طالعها أنّها وجدت إحدى الطائرات التي ستنطلق إلى هناك في الثامنة مساءً فقامت بحجز تذكرتين لها ولـ(ميلا)، ثم اتصلت بإحدى صديقاتها تخبرها بعزمها على السفر خارج البلاد لظروف شخصية وطلبت منها أن تقدّم لها طلبًا في الجامعة لتأجيل دراستها هذا العام، ثم أغلقت حسابها في البنك الذي كانت تتعامل معه، وحوّلته إلى أحد البنوك في (بكين). لقد ترك لها والدها ثروةً ليست بالقليلة قبل وفاته هي والراحلة (زوشا)، وحان الوقت للتمتع بها ولاستغلالها بالانتقام لأختها.

انطلقت إلى المستشفى للقاء دكتور (بوريس) ونجحت التجربة، لقد شاهدت قدرات (ميلا) الخارقة بل ورأت الجديد منها أيضًا عندما مدّت لها (ميلا) كفّها فالتقطتها قبل أن تختفي تمامًا من المكان، لقد عمل المجال الكهرومغناطيسي المنطلق من مخ (ميلا) على إخفائها هي و(نيرفانا) من المستشفى تمامًا حتى زال الخطر وعادت الأمور إلى حالتها الطبيعية، وقتها وجدت (نيرفانا) نفسها داخل حجرةٍ أخرى ولكن داخل منزلها وعلى سريرها و(ميلا) تحيط رأسها بذراعيها الصغيرتين، انتفضت من مكانها وهي تتحسّس جسدها لتجده على أكمل وجه سليمًا معافًى، فاقتربت من (ميلا) وأمسكت رأسها بين

راحتيها وهي تنظر في عينيها وقبل أن تفتح فمها لتتحدث، وجدت (ميلا) تحرك رأسها موافقة على الكلام الذي كانت ستقوله فتراجعت (نيرفانا) وهي تنظر إلى (ميلا) والأسئلة تتصارع داخلها.

قدرات (ميلا) تزداد يومًا بعد يوم، كيف يمكنها حمايتها؟ ماذا لو انعكست تلك الموجات التي تخرج منها ودمرتها هي نفسها؟

كيف يمكنها أن تقرأ أفكار غيرها؟ بل وتعطي الحلول المنطقية لأيّ مشكلةٍ تواجهها! فجأة انطلق صوت (ميلا) يدوي داخل عقل (نيرفانا) وهي تقول: "متخافيش أنا أقدر أحمي نفسي كويس، القرار اللي أخدتيه قرار كويس."

نظرت إليها (نيرفانا) بحيرة ثم التقطت نفسًا عميقًا وهي تأخذ حقيبة ملابسها هي و(ميلا) قبل أن تنظر في ساعة يدها لتجد أنّ موعد إقلاع الطائرة بعد ساعةٍ، كان كلّ ما يخيفها هو وصول رجال الشرطة قبل ذهابها إلى المطار، فمن المؤكد أنّ المستشفى قد أبلغت عمّا حدث بها، دَارَ هذا الهاجس في رأسها وهي تفتح باب سيارتها وتجلس (ميلا) بجانبها ثم تنطلق إلى المطار ولكنها فوجئت بـ(ميلا) تجذبها من معطف المطر الثقيل الذي ترتديه وتنظر إليها وهي تبتسم، اتسعت عينا (نيرفانا) عن آخرهما عندما دوّى صوت (ميلا) الرقيق في عقلها وهي تقول: "مفيش حد هيمنعنا من السفر، أنا عملت إزالة لكل بياناتي عن شبكة المعلومات في المستشفى، وأطلقت موجة عقلية عملت

إسقاط لكل الأحداث اللي حصلت من أول ما دخلنا المستشفى لغاية ما خرجنا منها آخر مرة من عقل كل واحد شافنا في المستشفى، دلوقتي إحنا في أمان."

لم تستطع (نيرفانا) أن تتكلم أمام ما أخبرتها به (ميلا) فكل ما قالته هو:

- إزاي؟

قلبت (ميلا) شفتيها وقالت:

- معرفش.

وقد كانت صادقة! فهي لا تعرف كيف يمكنها أن تعطي إجابة مناسبة لأيّ ردّ فعلٍ في أيِّ موقفٍ تتعرض له هي أو خالتها، فقد وهبها الله -عز وجل- هذه الموهبة لسبب لا يعلمه إلا هو.

وقفت (نيرفانا) أمام ضابط الجوازات وأنهت إجراءتها هي و(ميلا) بسرعة وذلك لأنها لم تكن تحمل إلا حقيبة واحدة بها ملابسها وملابس الصغيرة، وقبل أن تنصرف من أمام الضابط وقالت بهدوء وبلغة إنجليزية سليمة:

- أنا عايزة أستأجر طيارة.

نظر إليها لثوانٍ قبل أن يقول بإنجليزية ممائلة وهو يشير بذراعه إلى إعلانٍ كبيرٍ في آخر صالة الوصول:

- ده إعلان عن شركة لتأجير الطائرات ممكن تعرفي التفاصيل منه.

شكرته (نيرفانا) ثم انصرفت وهي تمسك بيد (ميلا) بقوّة وتتجه نحو

الإعلان لتقرأ تفاصيله باهتمام قبل أن تخرج من بوابة المطار وتشير إلى سيارة أجرة ثم تملي على سائقها عنوان شركة استئجار الطائرات، فعقد حاجبيه لثوانٍ محاولاً تذكر اسم الشركة قبل أن تتهللَّ أساريرُه وهو يتذكر العنوان ويشير إليها فصعدت إلى السيارة التي انطلق بها السائق على الفور وما هي إلا دقائق حتى كانت تتحدث مع الموظف المختص بشركة الطيران الخاصة فأخذ منها بعض البيانات الشخصية قبل أن يسألها عن وجهتها وسبب الرحلة، فأجابته قائلة:

- هضبة التبت، علشان نفسي من زمان أشوف الرهبان اللي هناك وأتعرف عليهم عن قرب.

نظر إليها الموظف باستغراب قبل أن يسألها:

- ليه؟

أجابته قائلة وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة:

- علشان أحصل على السلام الداخلي.

هزّ الرجل رأسه بتَفَهّم قائلاً:

- أكيد هتلاقيه هناك، الطائرة هتكون جاهزة بعد ساعتين وهيكون معاكي الطيار (ماو) وده يعتبر من أفضل الطيارين في (بكين) كلها.

تراجعت (نيرفانا) في مقعدها وقالت:

- هستنى.

التفت الموظف إلى (ميلا) التي جلست على المقعد الكبير بجوار

خالتها، ثم قال مبتسمًا:

- إسمك إيه؟

ابتسمت ميلا ولم تجب، ثم التفتت إلى (نيرفانا) التي ابتسمت بدورها، وأجابت عن (ميلا) قائلة:

- إسمها (ميلا) وهي خرساء.

هَزّ الرجل رأسه متفهمًا قبل أن يقول بأسف:

- ربنا يشفيها.

قال عبارته ثم تركهما وانصرف إلى عمله، وهو لا يدري لماذا ارتفعت ضربات قلبه وهو ينظر إلى عينيْ (ميلا)، لا يدري أبدًا.

****

ارتفع هدير المروحيّة التي يقودها الطيار (ماو) أعلى هضبة التبت قبل أن يهبط بها بمهارةٍ يُحسَد عليها، قبل أن تبدأ المروحة في التوقف تدريجيًّا، ثم التفت إلى (نيرفانا) وقال بفراغ صبر:

- ساعتين وأجي أخدكم.

فتحت (نيرفانا) باب الطائرة والتقطت كفّ (ميلا) الصغير وهي تقول:

- لا، شكرا، مهمتك انتهت لغاية هنا.

نظر اليها باستنكار وقال:

- يعني إيه؟ هترجعوا إزاي؟

مدّت (نيرفانا) يدها والتقطت حقيبتها من الطائرة وقالت بحزم:

- مش شغلك.

أخرج (ماو) رأسه من شباك الطائرة وقال معترضًا على كلام (نيرفانا):

- مش شغلي إزاي، المفروض إن....

احتبست الكلمات في حلقه عندما أدارت (ميلا) وجهها نحوه وانطلق صوتها يُدوّي داخل عقله قائلاً:

- امشي.

ابتلع ريقه بصعوبة وهو ينظر إلى عينيْ (ميلا) الصغيرة وهي تخترق أعماقه وتجبره على الانصياع لأوامرها، فلم يملك إلا أن أدار محركات طائرته مرة أخرى وانطلق بها على الفور وكأن شياطين الجحيم بأكملها تطارده، نظرت (نيرفانا) إلى (ميلا) وابتسمت فبادلتها الأخرى الابتسامة قبل أن تسيرا بهدوء في المكان الهادئ تمامًا إلا من صوت صفير الرياح القوية المحملة بالبرودة في هذا الوقت من العام، لتصنعَ مع الجبال المحيطة بالمكان لوحةً طبيعيةً رائعةً تَدُلّ على دقة صنع الخالق وحكمته؛ فالثلوج كانت تكسو الجبال إلّا أن الجو كان معتدلَ الحرارة، ولكنّ كلَّ هذا لم يكن يعني (نيرفانا) في شيء، لقد جاءت لهدفٍ محددٍ ولن تتوانى عن تحقيقه بأيّ ثمن، وقفت تتلفّت حول نفسها وعيناها تبحثان عن أيّ راهب من الرهبان الذين قرأت عنهم كثيرًا ولكنها لم ترَ أيّ أحد، التفت إلى (ميلا) التي قطبت حاجبيها لثوانٍ قبل أن تبتسم بظفر وهي تشير إلى منطقة منبسطة تبعد

عنهما أمتارًا قليلةً. تحركت نحوها بهدوء وتبعتها خالتها بثقة، كانت تثق بقدرات (ميلا) وحسن تفكيرها لأبعد مدًى بعد ما رأت منها كل غريب وعجيب، وقفت (ميلا) في منتصف المكان الذي أشارت إليه فتبعتها خالتها حتى وقفت أمامها تمامًا، إذ بأربعة رهبان من التبت يظهرون بملابسهم الخفيفة وأجسامهم الهَشّة ليصنعوا حلقة محكمة حول (ميلا) و(نيرفانا) التي تلفّتَتْ حولها بفزعٍ وقبل أن تتفوه بأيّة كلمة نظر إليها أحد الرهبان وموجة عقلية قوية تخرج من عقله إلى عقلها مباشرة قبل أن تسمع صوته يدوي في أعماقها قائلاً:

- أنتوا منين؟ وعايزين إيه؟

انتقلت الإجابة من عقل (نيرفانا) إلى عقل الراهب مباشرة دون أن تدري كيف حدث هذا:

- أنا (نيرفانا) ودي بنتي (ميلا) وجايين نتعلم السمو بالروح والسلام النفسيّ.

نظر إليها الراهب محاولاً سبر أغوارها نظرًا إلى خبراته المتعددة بمعرفة ما يدور في عقل كلِّ من يتحدث إليه من بني البشر، كما يمكنه تمييز الصادق من الكاذب بمجرد اختراقه لعقله، ولكنّه في هذه اللحظة لم يستطع أن يعرف ما إذا كانت (نيرفانا) صادقة أم كاذبة، لقد شعر لأول مرّة بموجةٍ عقليةٍ تضرِب عقلَه وتصنع فيه جدارًا ناريًّا يحول بينه وبين اختراق عقل (نيرفانا)، فتراجع خطوتين إلى الخلف قبل أن ينظر إلى (ميلا) بدهشة

ليجدها تبادله النظرات بثبات ثم انتفضت في مكانها بعنفٍ وخيطين رفيعين من الدماء يسيلان من أنفها الصغير ولكنها على الرغم من ذلك لم تتراجع عن خوض المعركة، معركة التحدي وإثبات القوة، معركة العقول. ولكنها كانت تواجه في هذه اللحظة مجموعة من الخبراء، الذي وهبوا حياتهم فداءً لمعتقداتهم، لقد وصلوا إلى قدراتٍ خارقةٍ استطاعوا من خلالها تطويعَ الجمادات والبشر أيضًا لهم، لكنهم لأول مرة يجدون من يئدهم في مهدهم، ويحاول اختراق عالمهم الذي أوجدوه بإرادتهم، لذلك فقد اتّحدت عقول الرهبان الأربعة وصنعوا دائرة قويّة أحاطت بـ(ميلا) و(نيرفانا) قبل أن يطلقوا كل طاقة عقولهم نحو عقليْ الصغيرة وخالتها لمعرفة ما تخفيانه عنهم، وهنا نشط الجزء الدمويّ الصغير في مخ (ميلا) وانطلق ليصنع مجالا كهرومغناطيسيًّا قويًّا حول عقلها وعقل (نيرفانا) ليمنع اختراقهما، كان تحديًّا قويًّا لقدرات (ميلا)، وقد نجحت؛ لقد استطاعت منع الرهبان الأربعة من اختراق عقلها وعقل خالتها، ولكنّ رهبان التبت تشابكت أيديهم بقوة واتّحدت قواهم العقلية وانطلقت لتخترق المجال الكهرومغناطيسيّ لـ(ميلا) وأسقطت دفاعاتها التي لم تحتمل هذا الهجوم الكاسح من رهبان التبت فسقطت فاقدة الوعي هي و(نيرفانا) فوق هضبة من أعلى الهضاب في العالم...

هضبة التبت.

****

"أعتقد إنك اتعلمتي كل حاجة وقدرتي تحصلي على السلام النفسي الداخلي."
قال كبير الرهبان عبارته من خلال الموجةِ العقليّة التي اعتاد التحدث بها مع (ميلا) و(نيرفانا)، فابتسمت (ميلا) التي أصبحت في العاشرة من عمرها عندما تذكرت كيف قضت سبعة أعوام في هذا المكان البدائيّ البسيط ثم اتسعت ابتسامتها وهي تعود بالذاكرة إلى اللحظة التي فقدت فيها الوعي هي وخالتها بين رهبان التبت الذين حاولوا اختراق عقلها هي و(نيرفانا) ولكنهم فشلوا في ذلك، لقد عملت (ميلا) على غلق عقلها وعقل خالتها بأغلالٍ من فولاذٍ لم يستطع الرهبان اختراقها، ولكنهم وضعوا (ميلا) و(نيرفانا) تحت الدراسة وتحدثوا معهما حتى تأكدوا من هدف الاثنتين كما أخبرتهم (نيرفانا)، وكان هذا أكبر دليل على براعة (ميلا) ومهارتها بموهبة قلّما يمنحها المولى -عز وجل- لبني البشر.

لقد استطاعت أن تخدع الجميع، مع ذلك فقد استسلمت لهم وتعلمت منهم كيف توجّه قواها العقلية بمدًى أوسع وبمهارةٍ أكبر بل واكتشفت إنها تكتسب قواها من شعورها بالأمان في وجود من تحب بجانبها، وهي لم ترَ ولم تَعِشْ إلّا مع خالتها التي كانت الأم والأب والعائلة. وجود الاثنتين معًا كان يصنع هالة من القوة يخشى الجميع مجرد الاقتراب منها، تعلمت من الرهبان الصّبر والجَلَد والعيش في أقسى وأصعب الظروف.

في أحد الأيام وبينما كانت (ميلا) تمشي الهوينى مع خالتها في أحد الكهوف التي يسكنها الرهبان إذا بصخرة كبيرة تنفصل عن سقف الكهف وتهبط فوق رأس (نيرفانا)، لم يكن هناك ما يمنع الصخرة من السقوط وكان الموت قادمًا لا محالة، ولكن الصخرة توقفت في الهواء على بعد سنتيمترات قليلة من رأسها فَجَفلت ثم نظرت إلى الصخرة التي كادت تهشم رأسها منذ لحظات قليلة واتسعت عيناها عندما رأتها ثابتةً في الهواء، نظرت إلى (ميلا) فوجدتها تبتسم بهدوء ولسان حالها يقول: "أنا هنا."

نظرت (ميلا) إلى الصخرة للحظاتٍ وهي تقطّب حاجبيها فإذا بالصخرة الضخمة تتفتت تمامًا في الهواء وتتحول إلى تراب تذروه الرياح، وفي أحد الكهوف الأخرى ابتسم كبير الكهنة وهو يجلس القرفصاء بعد أن اطمأنّ إلى قدرات (ميلا)، لقد كان هذا هو آخر اختبار لقدراتها المتعددة لقد أسقط الكاهن الأكبر الصخرة على رأس (نيرفانا) بعد أن كانت (ميلا) تبعد عنها عدّة أمتار وهي توليها ظهرها أيضًا.

لذا، ما إن انبلج الصباح حتى طلب الراهب الأكبر لقاءهما، فلبّت (ميلا) و(نيرفانا) النداء على الفور، وجلستا بين يديه بخشوعٍ فوضع كفّه اليمنى على رأس (ميلا) والكف اليسرى على رأس (نيرفانا) وهو يتلو عِدّة صلواتٍ بالبوذية قبل أن يعتدل في مكانه وصوته يدوي في عقليهما كالأجراس قائلاً:

"ده آخر يوم ليكم هنا، أهم حاجة ما تنسوش العهد اللي أخدتوه على نفسكم بعدم استخدام قواكم العقلية إلا في نصرة الخير، لإن ده الهدف الأساسي اللي اتعلمناه من (الدالي لاما[1]) في نشر تعاليم البوذية وأصولها للعالم كله."

هزت (نيرفانا) رأسها مُوافِقة وابتسمت (ميلا) بهدوءٍ قبل أن تنصرفا من المكان، ولم تمضِ عشر دقائق على انصرافهما حتى دخل أحد الرهبان على الراهب الأكبر ووقف أمامه باحترام قبل أن يقول عبر الموجة العقليّة القويّة التي يستخدمها الراهبان في الحديث بين بعضهما بعضًا:

- تفتكر هيرجعوا تاني؟؟

هَزّ الراهب الأكبر رأسه بوقارٍ.

فقال الراهب:

- يعني ممكن ما يوفوش العهد ويستخدموا قوتهم في الشر.

أجابه كبير الرهبان قائلاً بوقار:

- أنا واثق من ده.

لوّح الراهب بكفّه معترضًا وهو يقول:

- طب ليه قبلت تعلمهم تعاليمنا ويعرفوا أسرارنا؟

---

(١) الدالاي لاما: هو القائد الديني الأعلى للبوذيين التبتيين وحتى عام ١٩٥٩ م كان الدالاي لاما يمثل القيادتين الروحية والدنيوية في إقليم التبت. وهو بطبيعة الحال راهب بوذي في جماعة القبعات الصفر (غيلوغبا) والتي أوجدت على يد تسونغكابا (١٣٥٧ - ١٤١٩).

التفت إليه كبير الرهبان وقال برصانة:

- لو كنت منعتهم كانوا هيتعلموا تعاليمنا غصب عننا، البنت (ميلا) مش سهلة، لو كنت سبتها كانت هتهدم المكان كله على روؤسنا، ربنا أعطاها قدرات غير عادية في حالة الغضب، قدرات تفوق كل تعاليم بوذا، فوافقت إني أعلمها على شرط إنها تكون تحت عيني ولما لقيتها بتستجيب لتعاليمي وضعت بداخلها السر الأعظم.

هَبّ الراهب من مكانه وعيناه تتسعان بدهشة قبل أن يقول بانفعال:

- السرّ الأعظم! مش ممكن! عدد محدود جدًا من الرهبان على مستوى العالم هو اللي يعرف السرّ الأعظم، ليه أعطيته للبنت الصغيرة دي؟ واحنا طول حياتنا بنتمنى نعرفه.

نظر إليه الراهب الأعظم نظرةً صارمةً، وهو يقول:

- لإنكم مش زي البنت دي، ولا عمركم هتكونوا زيها.

بادله الراهب النظرة الصارمة قبل أن يُقَطّب حاجبيه بقوةٍ محاولاً سبْر أغوار الراهب الأكبر ومعرفة ما يخفيه، ولكن هيهات! لقد تصدى له الراهب فقَطّب حاجبيه بدوره قبل أن يلطم عقله لطمةً قويةً أطاحت به إلى آخر الكهف الفسيح، ثم ابتسم بهدوء وقال:

- ما تحاولش.

قام الراهب من سقطته ببطء وهو يتمتم بعباراتٍ ساخطةٍ، فابتسم كبير الرهبان ابتسامةً ساخرةً وهو يشير بيده اليمنى إلى الراهب يأمره

بالرحيل، فهزّ رأسه باستسلام وهو يخرج بهدوء من الكهف الفسيح معلنًا هزيمته أمام كبير الرهبان الذي تحدث إلى نفسه قائلاً:

"عمركم ما هتكونوا زي البنت دي أبدًا، علشان كده كانت تستحق إنها تعرف السر الأعظم."

قال عبارته وعقله يسبح بعيدًا بعيدًا مع الطفلة الصغيرة التي حيّرت الجميع... (ميلا).

****

استرخى (جون مالكوم) أحد أشهر ممارسي سحر الفودو في مقعده أمام حاسبه الآليّ النقّال (اللاب توب)، داخل جناحه الخاصّ بأفضل فنادق جزر الكاريبي، كان (جون) من أصحاب البشرةِ السمراءِ الداكنةِ، له عينان واسعتان تَشْعُر أنّهما تخترقان كَيانك بأكملِه عندما ينظر إليك، طويلُ القامة، متينُ البنيان، تلقّى تعاليم سحر الفودو[1] على يد أحد أكبر كهنة المعابد في الغابات الإفريقية، حاز على شهرةٍ كبيرةٍ في عالم السحر، ونال مكانةً عظيمةً بين أصدقائه من سحرة الفودو على مستوى العالم. جرت أصابعه الطويلةُ الرفيعةُ على أزرارِ الحاسب الآلي بسرعةٍ كبيرةٍ وهو يراجع بريده الإلكتروني كعادته كلَّ يومٍ، ليرى من يريد استخدام

(١) جاء سحر الفودو من القارة الإفريقية، وهو سحر فتاك للغاية. وفي الآونة الأخيرة شهد انتشارًا في أصقاع العالم، كما جرى مزج طقوسه مع غيرها من طقوس السحر الأسود، ومن معتقدات سحرة الفودو أنه يمكن من خلاله التواصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات.

مهاراته في الإيذاء عن طريق السحر، كان قد اعتاد ألّا يقابل العميل أبدًا إمعانًا في الغموض والرهبة، فكان يتلقّى مهماته عن طريق عنوان بريده الإلكتروني، قليلون هم من رأوه وتعاملوا معه وفي أضيق الحدود.

فتح صندوق البريد بضغطةِ زر ليجدَ أمامه رسالةً واحدةً فقط، ضغط عليها بالماوس ففُتِحَتْ على الفور ليجد بها صورتين صغيرتين جدًا، كلَّ واحدةٍ موجودة في أحد أطراف الشاشة. .

ضغط على إحداها لتكبيرها كي يستطيع رؤية معالمها، فوجد الصورة الأخرى تزداد اتساعًا هي الأخرى، عقد حاجبيه وهو يمدّ عنقه للأمام ليتبين معالم الصورتين فوجد إحداهن لفتاةٍ صغيرةٍ في العاشرة من عمرها لها ملامحُ رقيقةٌ وجميلةٌ، أمّا عيناها فهما بحران من الغموض والأسرار.

نقل بصره إلى الصورة الأخرى فوجدها لأنثى بيضاء فاتنة لها نفس عينيْ الطفلة الصغيرة التي في الصورة الأخرى.

كانت نظراتهما حادةً قويةً تَشْعُر معها بالرهبة والخوف كما تشعر أنهما تنظران لك دون غيرك. ولأول مرة في حياته شعر (جون مالكوم) بالخوف، وهو الذي عاش طوال حياته يخيف البشر لا يخاف منهم، أمّا الآن فيشعر بانقباضة غريبة وقويّة في صدره، وفجأة وبلا مقدمات وجد الأنثى والطفلة الصغيرة تبتسمان في وجهه بسخرية وغموض، فاتسعت عيناه بدهشة قبل أن تدورا في محجريهما عندما امتدت يدا الطفلة الصغيرة والأنثى من شاشة الحاسب إلى جانبيْ رأسه وتبدأ

بالضغط عليه ببطء حتى استرخى تمامًا في مقعده قبل أن يشعر بالألم ينتشر في رأسه شيئًا فشيئًا حتى أصبح لا يطاق، فأخذ يلهث بقوة من فرط الألم والتعب، حينما تراجعت يد الأنثى وعلى شفتيها الابتسامة الساخرة نفسها، نظر إلى الفتاة الصغيرة ليجدها تحمل مُخّه بين يديها الصغيرتين وعلى شفتيها ابتسامة شرسة فمدّ يده محاولاً انتزاعه من يديها ولكنّها فتحت فمها والتهمت مُخّه بأكمله، لتتحول في جزء من الثانية إلى نسخة طبق الأصل من (جون مالكوم)، الذي نظر إلى نفسه والدنيا تدور به بعنف، قبل أن يهوي أرضًا وقد فارق الحياة، وقد أظلمت شاشة الحاسب الآليّ وأظلمت معها الحجرة تمامًا، ليُخيِّم الموت على المكان بأكمله.

****

"أعتقد آن الأوان علشان تعرفي كل حاجة من صاحبة الشأن نفسها، من أمك."

هزت (ميلا) رأسها بتفهُّم عندما أنهت (نيرفانا) عبارتها، قبل أن تتابع قائلة: "أنا أقسمت يوم موتً (زوشا) إني لازم أنتقم لها من المصريين الأربعة، وعلشان كده قررت أجمع كل قوى الشر في العالم، وأدمر بها المغتصبين الكلاب، وفرحتي كانت بحجم الكون لما اكتشفت قدراتك العقلية الرهيبة، ومن هنا فكرت إني أنمّي قدراتك العقلية، علشان كده روحت معاكي لرهبان التبت، وقدرنا نتعلم إزاي نخضع

كل حاجة لقدراتنا، طوال السبع سنين اللي قضيناها هنالك واللي عرفنا وقتها حقيقة رهيبة، هي إن قوتنا بتتضاعف طول ما إحنا جنب بعض، علشان كده فكرت في إنك تتعلمي سحر الفودو اللي بيعتبر من أقوى وأخطر أنواع السحر في العصر الحديث، لكن ده كان صعب لإن سحرة الفودو من الصعب إنهم يعلموا أي حد سحر الفودو.

لكن هنا ظهرت قيمة وقوة السر الأعظم اللي علمه لكي الراهب التبتي العظيم، إنك تقدري تسيطري على مخ أي كائن حيّ وتخليه عبدك المطيع اللي بيتحرك بأوامرك إنتي وبس وكمان تقدري تخترقي مخه وتعرفي تاريخه وكمان تعرفي كل العلوم اللي اتعلمها طول حياته، وده اللي عملتيه مع (جون مالكوم) وقدرتي تتعلمي سحر الفودو اللي هنحتاجه في الفترة اللي جايّة، أولاً: إنك من خلاله هتشوفي أمك وهتسمعي منها كل حاجة عن اللي حصل لها، وثانيًا: هتفكري في الطريقة اللي هنبدأ بيها انتقامنا من القتلة الثلاثة، أما الرابع والخامس فأنا مجهزة لهم مفاجأة غير متوقعة، ودلوقتي هنبدأ طقوس استدعاء الموتى."

أنهت (نيرفانا) حديثها، ثم نظرت إلى (ميلا) الصغيرة التي هزّت رأسها موافقةً على كلام خالتها وهي تجلس في منتصف الفراش الكبير داخل أحد أجنحة أشهر فنادق (بكين) بعد أن عادوا من هضبة التِّبت واستطاعوا أن يحصلوا على كل المعلومات عن سحر الفودو من مخ (جون مالكوم) عن طريق سحر الوهم والسيطرة العقلية الفائقة.

بدأت (ميلا) الطقوس بأن أخرجت من جيبها الصغير دميةً من القشّ لها ملامح والدتها نفسها ثم وضعتها أمامها على الفراش قبل أن تشير إلى خالتها التي جلست جلستها نفسها وأسندت ركبتيها إلى ركبتيْ الصغيرة ونظرت كلتاهما إلى عينيْ الأخرى ثم بدأت (ميلا) في إلقاء بعض التعاويذ بلغة غريبة على الدمية الصغيرة، دون أن تحرك شفتيها.

استمرّت في إلقاء تعاويذها السحرية لمدة خمس دقائق قبل أن ينطفئ مصباح الحجرة بغتةً وتهتزّ الجدران بقوةٍ غيرِ عادية لأكثر من دقيقتين، حتى شعرت (نيرفانا) أنّ المكان سينهارُ بأكمله فوق رأسيهما، قبل أن يهدأ كل شيء كما بدأ، وعندما عاد مصباح الحجرة إلى العمل مرة أخرى لم يعدْ هناك أيّ أثرٍ للدمية الصغيرة التي كانت موجودة بين (ميلا) و(نيرفانا).

الدمية الصغيرة دَبّتْ فيها الروح فجأةً لتتحول إلى (زوشا)، التي جاءت من عالم الموتى لتخبرَ الأحياء عمّا لاقَتْهُ من قسوة بني البشر.

****

كانت (زوشا) شاحبةَ الوجه، ينسدلُ شعرُها الأصفرُ الطويلُ كشلالٍ من الحرير الناعم، على كتفيها، كان يبدو عليها التعب والإعياء وكأنّها قادمةٌ من سفرٍ طويلٍ شاقٍّ، ولكنّها رغم ذلك تبتسم بهدوء وسكينة.

أمّا (نيرفانا) فقد تفجّرت عيناها بالدموع عندما رأت أختها أمامها بعد أن غابت عنها لأكثر من عشر سنواتٍ كاملة، كانت آخر مرة رأتها فيها

وهي في التابوت الخشبيّ يوم الدفن، يومها أيقنت أنّ هذه آخر مرة ترى فيها أختها في عالم الأحياء.

أمّا (ميلا) فقد نظرت إلى أمها التي تراها لأول مرة، قبل أن تنفجر بالبكاء هي الأخرى، كانت هذه المرة الأولى التي تبكي فيها (ميلا)، حتى وهي طفلة رضيعة لم تكن تبكي كسائر الأطفال الذين في مثل عمرها، لكنّ رؤيتها لأمها صنعت المعجزات فانتفض لسانها في حلقها وقام من ثباته الطويل ليتحرك فتحركت معه شفتاها الصغيرتان ونطقت بالكلمة التي تشعر معها كل طفلة بالأمان؛ كلمة... أُمّي.

التفتت إليها (نيرفانا) ودموعها تنهمر بلا توقف من شدة الفرحة بعد أن رأت (ميلا) تتجاوز حاجز الصمت الذي استمرت مختبئة خلفه لعشر سنوات كاملة.

التفتت (زوشا) إلى (نيرفانا) وقالت بصوت خفيض حزين:

- وحشتوني.

اندفعت نحوها أختها لتحتضنها، ولكنها وجدت نفسها تحتضنُ الهواء فتراجعت بفزعٍ ممزوجٍ بالدهشة لتجد (زوشا) تحرك رأسها في مرارة وتقول:

- أنا روح مش جسد.

تكلمت (ميلا) لأول مرة في حياتها وقالت بحنان:

- ماما، احكي لي عن اللي عملوه معاكي المصريين وأولهم بابا.

التفتت إليها (زوشا) ببطءٍ، وقالت بحزن:

- حاضر.

بدأت (زوشا) تحكي حكايتها و(ميلا) تستمع إليها باهتمام وتتابعها عينيْ (نيرفانا) التي كانت تعلم الحكاية منذ بدايتها.

****

استمرّت (زوشا) تحكي حكايتها لأكثر من ساعتين، و(ميلا) و(نيرفانا) تستمعان إليها بكل انتباهٍ واهتمام، حتى انتهت تمامًا من روايتها ثم صمتت فجأةً ونظرت إلى أختها وابنتها وعلى شفتيها ابتسامةٌ حزينةٌ، أثارت مشاعر (ميلا) فسالت دموعُها الرقيقة على وجنتيها الصغيرتين، قبل أن تقول ببطء وهي تنظر إلى أمها وخالتها:

"لازم يدفعوا الثمن."

هزت (نيرفانا) رأسها موافقةً لكلام (ميلا) ثم نظرت إلى (زوشا) لتجدها بدأت تتلاشى تدريجيًّا من بينهما قبل أن تختفي تمامًا من الحجرة، تاركةً الاثنتين في حالة يُرثى لها، فنظرت (ميلا) إلى خالتها وأعادت عبارتها السابقة مرة أخرى:

"لازم يدفعوا الثمن....." قبل أن تنفجر باكيةً وهي تُلقي بنفسها بين أحضان خالتها، أقرب المخلوقات إلى قلبها في عالم البشر.

****

"بعد كده تتبّعتْ أخبارك إنت وأصحابك وكمان أخبار (دوروف) لغاية ما وضعت خطتي وجِبْتَكْ لغاية هنا إنت ومنال."

أنهت (نيرفانا) حديثها الطويل الذي حكت فيه للجميع كيف أعدّت خُطّتها للانتقام من سامح و(دوروف) طوال عشر سنوات كاملة، ومع كلماتها الحاسمة ارتجفت أوصال الجميع عندما ذكرت كلمة الانتقام، لقد ذاقوا العذابَ ألوانًا طوال رحلة الشقاء التي خاضوها عبر الأزمان المختلفة محاولين تغيير التاريخ كي يربحوا أيّ جزءٍ من المعركة الشرسة التي أرغمتهم (نيرفانا) على خوضها، فماذا سيحدث بعد أن جاءت لحظة العقاب بعد الهزيمة الساحقة في الجولات الخمس التي خاضها (شلينكو) وسامح الذي نظر إلى (نيرفانا) وقال بثبات على الرغم من ضعف موقفه:

- إزاي جبتيني أنا ومنال لغاية هنا، مع إنها هي اللي طلبت تيجي هنا مش أنا.

أطلقت (نيرفانا) ضحكةً عاليةً ساخرةً مُجلجِلةً قبل أن ترفع سبابتها اليمنى في وجهه، وتقول بنبرة شرسة:

- العامل النفسي يا سامح.

رَدّدَ سامحٌ كلماتها بتساؤلٍ، ولكنها قطعت تساؤلاته قائلة:

- أنا عرفت إن منال هي أحب الناس لقلبك علشان كده خليت (ميلا) تستخدم السر الأعظم اللي إتعلمته من الراهب التِّبتي الأعظم واللي بيخلي (ميلا) هي اللي تتحكم في عقل منال وفي كل اختياراتها وتوجِّهها زي ما هي عايزة، زي ما حصل لكم في رحلة تغيير التاريخ،

علشان كده ما خلتش منال تفكر غير في روسيا وإزاي تقضي شهر العسل هناك، وكمان (ميلا) أوهمتها إن روسيا هي أجمل بلاد العالم، فبدأت منال تكلمك وتلحّ عليك إنكم تقضوا شهر العسل هناك، وعلشان إنت بتحبها وما بترفضش ليها طلب وافقت على طول، وكنا في إنتظارك، وسيطرت (ميلا) على عقلك إنت كمان يا سامح وخلّتك تفكر في طريق مختصر للوصول لِـ(لِيننجراد) وهناك (ميلا) كانت في إنتظارك وأربكتك وإنت سايق العربية لغاية ما عملت الحادثة وإصطدمت بالشجرة، وهنا ظهرت قدرات (ميلا) غير العادية عندما أطلقت جزء من الطاقة الكهرومغناطيسية اللي بيخرجها عقلها وقت ما تحتاجها، وقدرت تخفيك إنت ومنال عن أعين كل رجال الحكومة الروسية، علشان تخليهم في حيرة لغاية ما يلجأوا للطرف الثالث في الأحداث؛ الضابط (شلينكو) علشان يشترك في الأحداث ويختفي هو كمان.

عقد سامح حاجبيه بتساؤل وقال:

- يعني رحلتنا عبر التاريخ كانت خدعة هي كمان؟

أجابته بسرعةٍ قائلة:

- إنتوا ما اتنقلتوش من مكانكم من أول ما جيتم لغاية دلوقتي، كل اللي كان بيحصل إني كنت بحكي لكم الحدث ومكانه وزمانه و(ميلا) بتوجّه عقولكم للمكان اللي بتدور فيه الأحداث، والجميل إنكم كل ما توصلوا لحل خطأ من الأخطاء تقوم (ميلا) بإرباك أفكاركم وتخليكم

تتصرفوا زي ما هي عايزة مش زي ما إنتوا عايزين، وصدقني إحساس الهزيمة مؤلم جدًا.

لم ينبس كلٌّ مَن في المكان بحرفٍ واحدٍ مع هذه الأحداث التي عاشوها لحظةً بلحظةٍ، ولكنّهم لم يتوقعوا أبدًا أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ من الشقاء والعذاب، فقد تعيشُ حياةً سعيدةً جميلةً، في الوقت الذي يحيك شخصٌ في الجانب الآخر من العالم لك المؤامرات ويعدّ العُدّة للانتقام منك، وعندما وصلت كلمة الانتقام إلى عقولهم تكلمت (ميلا) قائلة:

"لازم تدفعوا الثمن."

التفت إليها الجميع ولكنها اختفت فجأة قبل أن يُظلم المكان بأكمله ويجدْ كل واحد من الأشقياء الأربعة سامح ومنال و(شلينكو) و(دوروف) نفسه في مكانٍ منفردٍ ومن حوله ظلامٌ رهيبٌ لا يرى الواحد منهم فيه كفّ يده.

ظلام الموت...

القادم لا محالة.

****

عبرت (ميلا) ذلك الممر الطويل في أحد المباني المهجورة، تضيئه مجموعة من المصابيح الزيتيّة الصغيرة على جانبيه، كانت المصابيح مرتبةً بطريقةٍ مُنسّقةٍ لها مظهرٌ مخيفٌ، بين كل مصباح وآخر رأسٌ بشريّةٌ

كاملةٌ مغمضةُ العينين، كانت كلّما مرّت على رأس من هذه الرؤوس تفتح عينيها وتبتسم ابتسامة ارتياح وثِقة.

عبرت الممرّ الطويل بثباتٍ حتى وصلت إلى الباب الخشبيّ في آخر الممرّ، كانت عدة أقفالٍ تُغلق الأبواب بإحكام في كل مكان وتمنعُ أيّ إنسانٍ من عبوره، ولكن ليس (ميلا).

لقد توقفت عند الباب ومدّت يدها إلى أحد الأقفال ولمسته وهي تنظر إليه بثبات فإذا به ينصهر بمجرد لمسِها له قبل أن يسقط أرضًا بهدوءٍ، تَتْبَعُه باقي الأقفال باستسلام تامٍ مُعلنة هزيمتها أمام (ميلا) الصغيرة، التي دفعت الباب الخشبيّ بهدوءٍ ليصدر صوتًا قويًّا وهو يحتكُّ بالأرض الصلبة من تحته قبل أن تعبره بسلاسةٍ وهدوءٍ، كان الظلام يلفُّ المكان لكنها نظرت إلى أسفلَ فانبعث ضوءٌ خافتٌ عند قدميها فأبصرت عدة درجاتٍ لسُلمٍ طويل، هبطت بسرعة وكأنّها تعرف طريقها سلفًا، ومع آخر درجةٍ من درجات السلم وجدت أربعة جدران تحيط بها كسجنٍ صغيرٍ محكم الإغلاق، صفّقت بكفيّها الصغيرين ليضيء المكان بأكمله من حولها، كانت تنبعث من المكان رائحةٌ عطِنةٌ عَفِنةٌ، والقاذورات تملؤه بأكمله، لتخرج منها كل أنواع الحشرات التي تبحث عن رزقها، أشارت (ميلا) إلى الحشرات فتوقفت في مكانها والتفتت إليها فأشارت بكفّها اليمنى إلى أحد أركان الحجرة فتحرّكت الحشرات بأكملها بآليةٍ إلى الركن الذي أشارت إليه (ميلا) وتجمعت

فيه ثم اصطفّت وراء بعضها كالعساكر النظاميّة بانتظار الأوامر من (ميلا) التي لم تلتفت إليهم وذهبت إلى منتصف الحجرة ووقفت بثبات ثم أغلقت عينيها لثوانٍ قليلة قبل أن تفتحهما بقوةٍ وهي تدور حول نفسها ببطء وتطلق صوتًا رفيعًا حادًّا نحو جدران الحجرة الأربعة ومع الصوت الحاد أطلقت طوفانًا من الموجات الكهرومغناطيسية القوية التي لم تحتملها جدران الحجرة الأربعة فبدأت تتهاوى تدريجيًّا قبل أن تنهار تمامًا مثيرةً عاصفةً قويّةً من التراب والغبار الذي غطّى المكان بأكمله، قبل أن تنقشع سحابة الغبار ويعود إلى المكان وضوح الرؤية، غير أنّ الحجرة تنازلت عن جدرانها لتصير مكانًا مفتوحًا يغمره ضوء الشمس تمامًا ويزيده وضوحًا.

رافق ذلك ارتفاع صوتِ رسام ومتابعة المخ في حجرة (دوروف) بمستشفى (موسكو) الدوليّ ليعلن بثقة أن الشخص المتصل بالجهاز والذي يتابع حالته لحظةً بلحظةٍ لم يعُدْ منتميًا إلى عالم الأحياء! لقد دمّرت (ميلا) مُخّه تمامًا ونقلته إلى عالم النسيان، لتخرج أول الضحايا من القائمة، قائمة الأحياء.

****

وقفت (ميلا) أمام ذلك القصر المنيف، تتطلع إلى نوافذه العديدة المضاءة بأكملها بأضواءٍ هادئةٍ، ذلك القصر الذي تمنت منذ أكثر من خمسِ سنواتٍ أن تدخله وتطفئ أنوارَه الكثيرة التي طالما أثارت توتُّرها

وقلقها. دفعت بوابّتَها الحديدية الضخمة الصدئة قبل أن تسير في حديقته الجدباءِ بهدوءٍ مثيرٍ، صعدت درجات السلم الكبير حتى وصلت إلى الباب الرئيسيّ فوضعت كفّها الصغير على مقبض الباب وأدارته بهدوءٍ فانفتح على الفور، ابتسمت بهدوء وهي تعبر الباب الكبير ثم توقفت في القاعة الفسيحة في منتصف القصر قبل أن تتجه إلى السلم الذي يقود إلى الدور العلويّ، كانت تتحرك في القصر وهي تعرف طريقها جيدًا وكأنها ولدت وعاشت فيه طوال سنوات عمرها العشرة.

صعدت درجات السلم ثم توجهت إلى الممرّ الطويل الذي يضمّ العديد من الحجرات على جانبيه بانتظام، مرّت أمام الباب الأول وطرقت بابه ثم استمرت في طريقها دون أن تلتفت خلفها فانفتح الباب على الفور لتخرج منه (نيرفانا) وعلى قسماتها انْحَفَر غضبٌ رهيبٌ، طرقت (ميلا) الباب الثاني المقابل للباب الأول واستمرت في السير لينفتح بدوره وتخرج منه (زوشا) وعلى وجهها حزنٌ عميقٌ وكبيرٌ، تبعت الاثنتان (ميلا) بهدوء، حتى توقفت أمام بابٍ آخر وطرقته ثم استمرت في سيرها دون أن تلتفت ليخرج من البَاب القبطان الذي أحرق سفينة سامح و(شلينكو) في الصين وهو يعبث بخنجرٍ صغيرٍ بيمناه، طرقت ميلا بابًا آخر ليخرج منه الجندي الذي قتل سامحًا في بلاد الغال وهو يعدُّ قوسه ونشّابه بحماس،.

استمرت ميلا في الطَّرْقِ على الأبواب وفي كل مرة يخرج أحد الذين

واجههم سامح في رحلته عبر التاريخ، وكلُّ واحدٍ منهم يحمل بيده سلاحه الذي واجه به سامحًا، أو الذي قتله به، سار الجميع خلف (ميلا) باستسلام حتى توقفت فجأة ثم استدارت نحوهم وألقت عليهم نظرةً متفحصةً قبل أن تشير إلى كل واحد منهم إشارةً ذاتَ مغزًى، ليتجه نحو أحد جدران الممر ويخترقه بهدوء وسلاسة كأنّه شبحٌ رقيقٌ، حتى عبر الجميعُ الجدرانَ فابتسمت (ميلا) بهدوء بعد أن أصبحت وحيدةً داخل القصر فأخذت تتجول فيه وتمر في كل ركن من أركانه، لينطفئ الضوء منه بعدها ويصبح شديد الظلمة. هبطت درجات السلم والضوء يخفت من خلفها قبل أن ينطفئ تمامًا حتى ذهبت إلى الباب الكبير فعبرته بهدوء إلى خارج المكان الذي تحول إلى بحرٍ من الظلمات الحالكة.

****

رصدت إشارات المُتابَعة ورسم المخ المتصلة بجسد سامح ارتفاعًا طفيفًا في نشاط المخ وفتح عينيه ببطء وأدارهما حوله بوهنٍ فأسرعت إليه والدته بلهفةٍ واحتضنت رأسه بين ذراعيها وهي تقول من بين دموعها:

- الحمد لله، الحمد لله، حمدًا لله على سلامتك يا سامح.

نظر إليها وابتسم ابتسامة هادئة وقال:

- أمي.

لثمت كفّه بقبلةٍ حانيةٍ وقالت ودموعها تنهمر بلا توقف:

- أنا جنبك يا حبيبي، عمري ما هسيبك أبدًا.

قالت عبارتها حين دلف إلى الحجرة الطبيب المتابع لحالة سامح ومعه إحدى الممرضات فقال بإنجليزيةٍ سليمةٍ وهو يتقدم منهما وعلى وجهه ابتسامةٌ هادئةٌ:

- حمدًا لله على السلامة.

التفت إليه سامح واتسعت عيناه عن آخرهما عندما أخرج الطبيب مُديةً طويلةً حادةً من جيب معطفه الابيض واتجه نحو سامح وقد تحولت ابتسامته الهادئة إلى أخرى شرسة قاتلة.

تراجع سامح في الفراش وهو يطلق صرخاتٍ قويةٍ متقطعةٍ ويلوح بيديه بفزعٍ ورعبٍ شديدين.

اقتربت منه والدته وابتسمت بسخرية قبل أن ترفع طرف الفراش وتخرج من أسفله مسدسًا صغيرًا، صوّبته نحو رأس ابنها واستعدت لإطلاق النيران، فدفعها دفعةً قويةً وهو يجاهد للقيام من فراشه غير أنّ الممرضة أخرجت من جيبها ثعبانًا طويلاً من نوع الكوبرا السامّة وألقته على سامح الذي صرخ صرخةً قويةً وهو يحاول إبعاد الثعبان الذي سقط على صدره وارتفع قليلاً قبل أن يتراجع رأسُه إلى الوراء وهو يفتح فمه عن آخره ويستعد للانقضاض على فريسته التي لا حول لها ولا قوة، ولكنّ سامحًا أمسك بالثعبان بسرعة وألقاه في آخر الحجرة ليندفع إلى الحجرة ثلاثة رجال يحمل كلٌّ منهم هراوة قصيرة ويضرب بها سامح على أُمِّ رأسه.

قاومهم سامح بكل قوته ولكن الضربات كانت قوية ومؤثرة، فسقط فاقدًا الوعي قبل أن يسود المكان صمتٌ مطبقٌ رهيبٌ، قطعه نحيب والدة سامح على ولدها الملقى أرضًا بلا حراك.

التفت الطبيب إلى الرجال الثلاثة وقال بتوتر:

- خدوه على عنبر سبعة لغاية ما أطلب تحويله لمستشفى الأمراض النفسية والعصبية.

قال عبارته وهو يلتفت إلى والدة سامح ويقول بتعجب:

- أنا مش عارف إيه اللي حصل ! ده اتهجم علينا كلنا كأننا أعداؤه، حتى إنتي كمان ضربك ووقعك على الأرض.

جلست الأم على طرف الفراش وهي مذهولة ولا تجد أيّ كلماتٍ تجيب بها الطبيب، لقد رأت بعينيها ما فعله سامح منذ قليل ولم تجد أيّ تفسير لما حدث.

أشار الطبيب إلى الرجال الثلاثة فحملوا سامحًا قبل أن يشير إلى الممرضة أن تتبعه، فربّتت على كتف والدة سامح مواسية إياها قبل أن تتبع الطبيب إلى خارج الحجرة.

رفعت والدة سامح رأسها إلى السماء وانفرجت شفتاها لتنطق بالكلمة التي تفرّج الكرب وتطمئن القلب؛ كلمة.... "يا رب".

****

جلست (ميلا) بهدوء أمام اثنين من الحاسبات الآلية المحمولة (اللاب

توب) الموضوعيْن على منضدةٍ صغيرةٍ داخلَ حجرةٍ مُصْمَتة بلا أيّ نوافذ أو أبوابٍ.

مدّت يدها الصغيرة وفتحت الجهاز الأول ثم فتحت الثاني وانتظرت قليلاً قبل أن تخرج من جيبها أسطوانتين مدمجتين، وضعت كلَّ واحدةٍ في جهازٍ من الجهازين قبل أن تفتح الأسطوانة الأولى وتستعرضَ محتوياتِها الكثيرة ثمّ تتجهَ بالمؤشّر إلى ملفٍ صغيرٍ جدًا ضمن الملفات التي تملأ الأسطوانة وتقف عليه بالمؤشر ثم تضغط زر (Delete) لتقوم بمسح الملف بأكمله من الأسطوانة. ثم التفتت إلى الجهاز الآخر وفعلت نفس ما فعلته بالجهاز الأول قبل أن تقوم بمسح الملف نفسه عن الأسطوانة المدمجة، وما إن اختفى الملف عن الأسطوانتين حتى ابتسمت (ميلا) وأخرجت الأسطوانتين من الجهازين ثم أغلقتهما تمامًا وهي تقوم من مكانها وتتجه نحو أحد الجدران وتخترقه بهدوء دون أن تصدر أيّ صوت.

****

فتح (شلينكو) عينيه ببطء وتلفّت حوله ليطالعه وجه صديقه (تروتسكي) الذي ابتسم بهدوء وقال:

- حمدًا لله على السلامة.

بادله (شلينكو) الابتسامة وتنهّد بعمقٍ ثم قال:

- أنا فين؟

تحرّك (تروتسكي) نحو فراش (شلينكو) ووضع يده على كتفه ثم قال:

- إنت في مستشفى موسكو الدولي، جبناك هنا بعد الحادثة اللي حصلت للمصريين و.....

قاطعه (شلينكو) باستغراب قائلاً:

- مصريين!! مصريين مين؟

عقد (تروتسكي) حاجبيه بحيرة وقال:

- حادثة العربية بتاعة الشاب المصري وزوجته، إنت بنفسك رُحت لمكان الحادث علشان تعاينه وبعد كده.....

قاطعه (شلينكو) للمرة الثانية وهو يهزّ رأسه بحيرةٍ قائلاً:

- أنا مش فاكر أي حاجة من اللي بتقوله ده، كل اللي فاكره إني خلصت شغلي وقررت أروح أتغدى مع والدي لكن حسيت بدوخة ووقعت على الأرض.

أطرق (تروتسكي) رأسه حزينًا وقال:

- (شلينكو)، أنا آسف.

عقد (شلينكو) حاجبيه بتساؤل قبل أن يقول:

- في إيه؟

تكلم (تروتسكي) قائلاً ببطء:

- والدك جت له غيبوبة وهو في البيت ونقلته جارتكم (إيفا) ومشيت على طول، وكان في الحجرة اللي جنبك، لكنه توفي من ساعة.

اتسعت عينا (شلينكو) بدهشةٍ عظيمةٍ واغرورقت عيناه بالدموع ولم يستطع أن ينبسّ ببنت شفة، كان خبر وفاة والده مفاجأةً كبيرةً له، لقد شاءت الأقدار أن يعود إلى الدنيا حين رحل والده عنها.

العقيد (دوروف)، الذي ذهب للقاء ربه ليلقى جزاءه العادل لما اقترفته يداه من آثام.

أدار (شلينكو) عينيه الدامعتين إلى (تروتسكي) الذي ربّت على كتفه مواسيًا وقال:

- هسيبك ترتاح دلوقتي وبعدين نكمل كلامنا.

هز (شلينكو) رأسه موافقًا، فتركه صديقه واتجه نحو الباب ليغادر الحجرة فناداه (شلينكو) قائلاً:

- المصرى اللي عمل الحادثة، إسمه إيه؟

التفت إليه (تروتسكي) وقال:

- سامح.

أدار (شلينكو) الإسم في رأسه، ثم أخذ يردده بلسانه ولمّا عجز عن تذكره حرك رأسه في حيرة وقال:

- مش فاكر، أنا أول مرة أسمع الاسم ده.

صمت (تروتسكي) لثوانٍ قبل أن يبتسم بهدوء ويقول:

- حمدًا لله على السلامة.

قال عبارته ثم غادر المكان تاركًا (شلينكو) في حيرةٍ وحزنٍ شديدين:

حزنٍ على وفاة والده المفاجئ، وحيرةٍ من تلك الحادثة التي يصرّ زميله على أنه كان يعاين مكانها منذ فترة ليست بالبعيدة.
قطّب حاجبيه مرةً أخرى محاولاً تَذَكُّر أيّة أحداثٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ ولكنه فشل في ذلك.
فشل تمامًا.

****

كانت فرحة والديْ منال بحجم الكون وهما يشاهدان ابنتهما تستعيد وعيها وتبتسم في وجههما وبجانبها الطبيب المعالج يفحص جسدها ويطمئن على نبضها وعلى صحتها العامة، قبل أن يقول:
- حمدًا لله على السلامة.
ردّت والدتها بسرعة قائلة:
- الله يسلمك يا دكتور، إيه الأخبار؟ طمنّي.
تكلم الطبيب قائلاً على الفور:
- تمام، طبعًا هي كانت في غيبوبة طويلة بسبب الحادثة اللي اتعرضت لها هي وجوزها و.....
قاطعته منال متسائلة:
- حادثة إيه؟ أنا مش فاكرة أي حاجة، كل اللي أنا فاكراه إني كنت مع سامح في العربية وفجأة الدنيا ضلّمت قدامي وبعد كده صحيت دلوقتي.
تعجّب الطبيب من حديثها وارتفع حاجبا والدتها بدهشة بينما عقد

والدها حاجبيه وقال:

- إنتي عملتي حادثة عربية إنتي وسامح، والبوليس نقلكم هنا من أكتر من أسبوعين.

تكلمت منال باستنكار قائلة:

- أسبوعين! إزاي؟ مش ممكن! فين سامح؟ أنا عايزه أشوفه، هو جرى له إيه؟

قالت عبارتها وهي تقوم من الفراش بالفعل، فوضع الطبيب يده على كتفها وقال محذرًا:

- ممنوع، إنتي لسه في مرحلة الخطر.

تراجعت بالرغم عنها وقالت:

- طب هو أخباره إيه؟

أطرق والدها رأسه ولم يتكلم وأشاحت والدتها بوجهها بعيدًا عنها لتداري دمعةً حزينةً فَرّتْ من عينيها ممّا زاد من توتر منال التي قالت:

- في إيه يا جماعة؟

أجابها الطبيب قائلاً:

- سامح تعب شوية بعد ما فاق، واتهجم على والدته وعلى الدكتور بتاعه، اللي قرر عمل رسم مخ له وحط قراره بوضع سامح في إحدى المصحات النفسية.

وضعت منال يدها على فمها لتمنع صرخةً قويةً من الانفلات من

حلقها، وهي تقول بصوت خافتٍ لاهثٍ:

- مش ممكن، سامح.

لم يستطع الطبيب إلا أن يقول بأسًى:

- ربنا يشفيه.

قال عبارته، ثم غادر الحجرة على الفور هاربًا من هذا الموقف المحزن فالتفتتْ منالُ إلى والدها ووالدتها وقالت:

- الكلام ده صحيح؟

ربّت والدها على كتفها وقال:

- ربنا يشفيه يا بنتي.

تراجعت منال في فراشها وقلبها يقطر دمًا، حزنًا على زوجها وحبيبها. حاولت أن تتذكر أيّ شيء؛ الحادثَ الذي يتحدث عنه الجميع ولكن دون جدوى، لقد امَّحى هذا الجزء من ذاكرتها تمامًا وكأنّه لم يكن، ولما يئست من أن تتذكر أيّ شيء، وجدت عقلها وقلبها يذهبان إلى هناك على الرغم منها.

إلى زوجها الحبيب... سامح، الموجود الآن في أحد عنابر كبريات المصحات النفسية في موسكو، ليقضي ما بقي من عمره يعاني من الخوف والرعب الألم..... بلا هوادة.

****

في مدينة (سيدني) بقارّة أستراليا، وبالتحديد في أحد فنادق الدرجة

الثالثة الرخيصة، فتحت كلٌّ من (ميلا) و(نيرفانا) عينيهما، وتركت كلٌّ منهما كفَّ الأخرى قبل أن يطلقا تنهيدةَ ارتياحٍ قويةٍ، لقد حققتا ما كانتا تصبوان إليه منذ سنوات.

لقد انتقمتا من القتلة المغتصبين، وأحكما الأغلال على رقاب الأوغاد حتى جاء موعد القصاص.

وبينما تنظر كلُّ واحدةٍ منهما إلى الأخرى بارتياح، سمعتا صوتًا يدوّي في عقليهما ويقول:

"شكرًا."

وعندما نظرت كلتاهما نحو النافذة الكبيرة في منتصف الحجرة، وجدتا (زوشا) تطلّ عليهما من الأفق وهي تبتسم، قبل أن تختفي تمامًا من المكان، فاغرورقت عينا (نيرفانا) بالدموع عندما رحلت أختها عنها للمرة الثالثة.

أمّا (ميلا) فقد ابتسمت بهدوءٍ وقالت:

"مع السلامة يا أُمّي."

في تلك اللحظة سطع البرق في السماء، وهطلت الأمطار على الفور لتبشر بالخير والأمل والسعادة،كأنها تبشّر ببدايات جديدة.

تمت بحمد الله

المراجع:

١- موسوعة (ثبت علميًا)، للدكتور/ محمد كامل عبد الصمد.
٢- (الدالي لاما) / موسوعة ويكيبيديا الثقافية.
٣- كتاب (قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط) للدكتور/ راغب السرجاني.
٤- كتب (العقل القوي)، (العقل واستخدام طاقته القصوى)، (كيف ترسم خريطة عقلك)، للدكتور/ توني بوزان.
٥- (أخطاء غيّرت وجه التاريخ)/ موسوعة ويكيبيديا الحرة.

فهرس المحتويات

إهـــداء ٧

شكر خاص ٨

الجـــزء الأول ٩

الجزء الثاني ٨٧

الصين عام ١٣٤٧م ٩٣

جنوب أفريقيا ١١٧

(لندن) ١٦٩٦ م ١٤١

بلاد الغال ١٦١

(تْشِرنوبِل) ١٧٥

الجزء الثالث ١٩٥

المراجع ٢٤٣

التعريف بالروائي :-

- محمد عبد الرازق محمد
- مواليد الجيزة عام ١٩٧٣
- حاصل على بكالوريوس العلوم والتربية قسم الكيمياء والفيزياء عام ١٩٩٦
- حاصل على الشارة الخشبية كمساعد قائد للكشافة البحرية عام ٢٠٠٠
- صدر له العديد من الروايات منها :
- رواية المجهول ج١
- رواية قاهر المستحيل ج٢
- رواية انتقام قلب
- رواية كلاكيت
- رواية الشيطان
- رواية أغلال
- قصة قصيرة بعنوان الخوف ضمن الكتاب الجماعى المنتصرون للجمعية العامة لأدب الخيال العلمى .

التواصل مع الكاتب :

Email / maelrazek15173@yahoo.com

Mrazek3@facebook.com

الصفحة الرسمية لاعمال المؤلف أ/ محمد عبد الرازق

الرواية القادمة :-

-تُرْبة الزعفران -

لاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com